

هوميروس





ترجمـة

دريـني خشـبة

هوميروس

الإلياذة

نقلها إلى العربية بتصرّف

دريني خشبة



هوميروس

الإلياذة

الكتاب: الإلياذة
المؤلف: هوميروس
نقلها إلى العربية: دريني خشبة

عدد الصفحات: 248 صفحة

الترقيم الدولي: 3-4-85115-977-978

رقم الإيداع: 2014/10187

الطبعة الأولى: 2014

الناشر:

دار التنوير للطباعة والنشر

مصر: القاهرة-وسط البلد -19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا)-الدور 8-شقة 82
هاتف: 0020223921332 فاكس: 0020227738932
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

مقدمة

الإلياذة أشهر ملاحم الشعوب القديمة قاطبة، وقد أجمع النقاد ومؤرخو الأدب على أنها مع زميلتها وقرينتها في الشهرة ملحمة «الأوديسة» هي من تأليف الشاعر الإغريقي القديم هوميروس. وأجمع أكثرهم على أن أحداث الإلياذة وقعت حوالي منتصف القرن الثاني عشر قبل ميلاد المسيح، ولكنهم يختلفون حول شخصية هوميروس نفسه. بعضهم يقول: إنه لم يكن هناك شاعر بهذا الاسم أصلًا، وبعضهم يقول: إن هوميروس شاعر عاش في القرن التاسع قبل الميلاد. أما هيرودتس فيقول: إن هوميروس كان من مدينة خيوس القديمة في ولاية يونانية على ساحل الأناضول اسمها ايونيا ويقول: إن هوميروس عاش في القرن السابع قبل الميلاد.

والإلياذة The Iliad تعنى «قصة إليوم» أو «إليوس»، وإليوم أو إليوس هي طروادة، المدينة الآسيوية القديمة الواقعة على شاطئ البوسفور حيث وُجدت خرائبها تحت تلال الرمال، بعد أن دمَّرتها القبائل الأيونية والأيولية والدورية ـ أسلاف الإغريق القدامى ـ في حروب طويلة امتدت قرناً كاملًا قبل تسعمائة عام من ميلاد المسيح، وأغلب الظن أن الحرب نشبت بسبب المنافسة على التجارة والسيطرة

البحرية على جزر بحر إيجه وعلى سواحل الأناضول وشمال اليونان.

أما هوميروس فقد زعم أن الحرب نشبت بسبب اختطاف الملكة الإغريقية هيلين على يديّ الأمير الطروادي «پاريس» وزعم أن الحرب استمرت عشر سنوات فحسب.

ولكن إلياذة هوميروس لا تحكي قصة الحرب كلها، وإنما تحكي قصة «غضب أخيل» بطل أبطال الإغريق في الحرب، وهذه القصة تستغرق العام الأخير من الحرب. ومن خلال غضب «أخيل» وأحداث القتال في عامه الأخير يروي هوميروس في حبكة محدودة ومتقنة كيف وُلد أخيل، وكيف اختطف «پاريسُ» هيلين. ويروي تواريخ حياة كل من قادة الإغريق وتاريخ طروادة قبل الحرب، كما يروي ملخّصاً لكل ما حدث في السنوات التسع التي استمر خلالها الحصار. فإلياذة هوميروس تبدأ بالمشاجرة التي وقعت بين أخيل وبين «ملك الرجال» أجامنون، وتنتهي الإلياذة بتمزيق جثة هكتور بطل طروادة وابن ملكها. ولكن هوميروس يروي من خلال هذه الحبكة المحدَّدة الضيقة أحداث السنوات التي تسبق المشاجرة، ويروي الأحداث التي تقع زمنياً بعد جنازة هكتور من مقتل أخيل وفتح طروادة وتدميرها.

وقد تُرجمت الإلياذة إلى كل لغات العالم تقريباً، وتُرجمت إلى الإنجليزية أكثر من خمس عشرة ترجمة قام بها عدد من كبار الشعراء الإنجليز. وقد استند دريني خشبه في «صياغته» العربية للإلياذة على أربع من هذه الترجمات الإنجليزية.

استند إلى ترجمة جورج تشابمان في القرن السابع عشر، وهي أفضل الترجمات الإنجليزية، وتكاد تكون إعادة صياغة للملحمة بأسلوب وبناء يتلاءمان مع ذوق العصر الأليزابيثي في إنجلترا، وقد

امتدحها الشاعران الإنجليزيان العظيمان كولريدج وكيتس. واستند دريني خشبة أيضاً إلى ترجمة ويليام كاوبر في القرن الثامن عشر، وإلى ترجمة آلكسندر بوب في القرن الثامن عشر أيضاً، وإلى ترجمة ويليام، إيرل أوف دربي في القرن التاسع عشر.

وأتَّبع الكاتب العربي في صياغته للإلياذة ثم للأوديسة من بعدها الطريقة نفسها التي أتَّبعها جورج تشابمان ألا وهي إعادة كتابة ملحمة هوميروس بالأسلوب والبناء اللذين يعتقد أنهما أصلح لعصره وأكثر ملاءمة للغته. إن الأحداث التي سيجدها القارئ سابقة لبداية أحداث الملحمة الأصلية أو تالية لنهايتها، موجودة بنفس النسيج داخل الملحمة الأصلية، ولكن دريني خشبة حاول أن «يفرد» هذه الأحداث، وأن يضعها في مكان من البناء الفني يتلاءم مع التسلسل الطبيعي للزمن، لكي يحصل على أكبر قدر ممكن من تسلسل الأحداث للملحمة بحيث لا يخل بحبكتها الرئيسية. وربما كان ما دفعه إلى اتِّباع هذا المنهج هو ما اعتقده من أن بُعد جو الملحمة عن قرَّائه، وعدم معرفة غالبيتهم بأسماء الأبطال والآلهة وتواريخهم ولا بأسماء الأماكن وموقعها، عوامل قد تؤدي إلى إبهام الملحمة وغموضها أمام القارئ العربي. ومن ناحية أخرى فقد آثر دريني خشبة أن يلخِّص بعض المقاطع التي لا تروي حادثة متعلقة مباشرة بحبكة الملحمة أو بوقائعها الرئيسية، كما حذف بعض المقاطع التي رأى أنها قد تؤذي السياق الجديد في الصياغة العربية بإبعاد القارئ عن مجرى الأحداث.

وبالتالي فإن تقسيم الملحمة الكلاسيكي إلى أناشيد أو «كتب» منفصلة، لم يعد مجديًا هنا ـ وربما كان على دريني خشبة أن يكتب صياغته العربية بالشعر ـ وقد كان شاعرًا لا يحب أن يعلن عن نفسه ولكنه آثر أن يكتبها بالنثر، ربما لأنه رأى في النثر قدرة على نقل ما

ينقله الشعر الكلاسيكي، خاصة إذا كان مثل، نثر دريني خشبة في هذه الصياغة، بليغًا وموسيقيًا وغنيًا بالتعبيرات الفنية والصور والأوصاف والتشبيهات، هذه الصفات التي تجعله أقرب ما يكون إلى أسلوب الشعر الكلاسيكي الذي كُتبت به الملحمة في الأصل، وتُرجمت إليه في اللغات الأخرى. ولعلّ مما يجدر ذكره هنا، أن أحدث هذه الترجمات في اللغة الإنجليزية قد استخدمت «الشعر المرسل - Blank verse» الأقرب إلى النثر بموسيقاه الخافتة وإيقاعه البطيء المستقيم كإيقاع النثر البليغ.

والملحمة التي بين أيدينا الآن، مثلها مثل السير «الشعبية» العربية، كسيرة بني هلال، أو عنترة، أو سيرة الظاهر بيبرس، تقوم على حكاية رئيسية ـ هي الحكاية الرئيسية من حكايات الحرب حسبما رأى مؤلف الملحمة ـ وترتبط الحكاية بأحداث الحرب كلها، وبالحياة الواقعية التي يعيشها الشعب ـ أو الشعبين ـ المشتبكين في الحرب. هكذا يربط هوميروس بين حكايته الرئيسية، وهي حكاية غضب البطل الإغريقي أخيل من أكبر ملوك الإغريق وقائد حملتهم «على طروادة» الملك أجاممنون. فقد سلب الملك من أشجع أبطال جيشه الفتاة الأسيرة الفاتنة بريسيز، ويشعر البطل بالإهانة البالغة، وهو الذي خيَّرته الآلهة بين حياة آمنة وخاملة وطويلة وبين حياة قصيرة مليئة بالمجد الحربي والبطولة تنتهي تحت أسوار طروادة. ولا يحتمل أخيل الإهانة، فهو يعرف أنه يضحِّي بحياته نفسها هنا في هذه الحرب من أجل أجاممنون وأخيه الملك مينلاوس، فيعتزل الحرب ويترك بني وطنه يواجهون الهزيمة والقتل، وحين يبتهل إليه أعز أصدقائه، أن يخرج للقاء الأعداء وردهم، يتركه يخرج في دروعه هو للقتال، فيفقد أخيل أعز الأصدقاء، وحين يخرج لينتقم له من قاتله ـ هكتور ـ ويقتله، يتنبأ له هكتور بما

ستصير إليه الحرب: سيُقتل أخيل نفسه بسهم من سهام باريس ـ شقيق هكتور ـ ولكن طروادة ستسقط في أيدي الإغريق وتلتهمها النيران.

ويربط هوميروس بين هذه الحكاية الرئيسية وبين أحداث الحرب نفسها من ناحية، وبين حياة كل من الإغريق والطرواديين من ناحية أخرى، وفي هذا الجانب الذي يشمل أحداث الحرب وأساليب ممارسة الحياة، يقدم لنا صورًا بالغة الخصوبة والحيوية لحضارة بأكملها. مما يؤكد لنا معرفته الشاملة «الملحمية» بكل ما يتحدَّث عنه أو صوَّره: أدوات المعيشة وأسلحة القتال وأساليب الاشتباك وأساليب التعبير عن النفس في كل المواقف من الحب إلى النزال إلى النقاش في الاجتماعات العامة، ومن طقوس الزواج إلى طقوس العبادة أو دفن الموتى، وإلى ممارسة الألعاب الرياضية أو إقامة المآدب أو مجالسة الضيوف.

وهو يمزج في إحكام بين الحكاية الرئيسية وبين الجوانب العامة والحكايات الفرعية التي يصوغها بإحساس إنساني وحساسية دراميّة قوية، الأمر الذي جعل ملحمتي الأوديسة والإلياذة مصدرًا لا ينضب ينهل منه كتَّاب المسرح، وعلماء التاريخ والاجتماع واللغة حتى عصرنا هذا. وهوميروس شاعر بصير بالنفس البشرية، وبعلاقات الإنسان المتشابكة، وأعماقه، إلى الدرجة التي جعلت أبطاله تمهيدًا قويًا لظهور أبطال المأساة «التراجيديا» العظيمة الكبار.

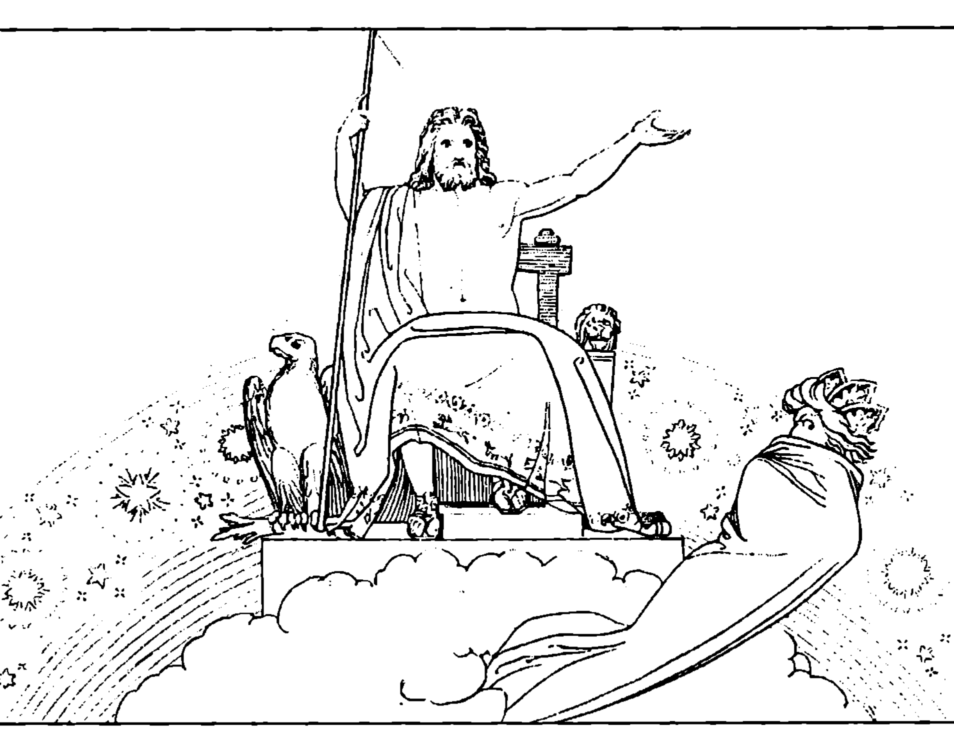
إننا نرى ـ مثلًا ـ أخيل الغضوب الذي يشعر بمصيره الفردي المفجع رغم شجاعته، وحصانته الأسطورية ضد الموت ورغم نبله وجماله ومهارته الخارقة في القتال. ونرى في مقابله هكتور النبيل، بطل طروادة الأكبر الشجاع، الذي يحب وطنه وأسرته ولا يفكر في مصالحه الشخصية أبدًا، والذي يحارب تحت أسوار مدينته، وفي موقف الدفاع

اليائس، ويجتاحه الحزن حين يفكِّر في الخطر المروِّع الذي يهدِّد وطنه وأسرته: الدمار والقتال والعبودية. إنه أب نبيل وزوج محب وابن حنون وبطل وطني، وضعته الأقدار ـ رغمًا عنه ـ في مواجهة أعتى الخصوم، وجعلته يخوض حربًا دفاعًا عن أخ نذل ووالدٍ ضعيف، ولكنه يخوضها حين يدرك أن الخطر يهدِّد وطنه كلّه بالإذلال والخراب. وحول «أخيل وهكتور» مجموعات من الرجال والنساء، أبطال وآلهة وزوجات وأمهات، فيهم الداهية الماكر ولكنه النبيل العاقل، مثل أوديسيوس بطل الأوديسة الذي يدخل الحرب مكرهًا ولكنه يصبح عقل الإغريق المدبر وصاحب الحيلة التي ستهزم طروادة في النهاية، وفيهم أجاكس، الجبار والشجاع الذي يقتل نفسه في نوبة جنون حين يحرمه القادة من دروع أخيل، وفيهم أجاممنون الذي يتراوح بين النبل والنذالة وبين الكرم والخسة وبين الشجاعة والجبن. وفيهم مينلاوس الزوج الذي خانته زوجته فأشعل الحرب ثم توارى في الظل لكي يفوز بكل شيء في النهاية. وفيهم پريام ملك طروادة الضعيف المحزون صاحب النهاية المفجعة. أما أرباب الإلياذة، فقد صوَّرهم هوميروس كالبشر العاديين بكل أهوائهم وانفعالاتهم، بل يخضعون للقدر أكثر مما يخضع البشر العاديون، فلا ينبغي النظر إليهم إلا على أنهم بعض أبطال بشريين يتميزون ببعض القدرات الخارقة نسبيًا، وليست «ألوهيتهم» إلا خرافة ينبغي التمرد عليها مثلما فعل أخيل وديوميديز وغيرهما. هذا هو التمرُّد الذي مهَّد لتمرُّد سقراط العظيم فيما بعد، حتى ظنَّه بعض المؤرخين نبيًا.

والجدير بالذكر دائمًا، أن هذه الصياغة العربية للإلياذة، قد جعلت الملحمة الإغريقية، جزءًا من تراث الأدب العربي الحديث، وإحدى الروائع الأدبية الكبرى التي تضمها اللغة العربية الأدبية المعاصرة،

بفضل حرص دريني خشبة على بلاغة التعبير العربي وروعة أسلوبه ورصانته. لقد استخدم دريني خشبة في بعض اللحظات، عبارات وتعبيرات، مشتقة من المصادر الكبرى لعبقرية اللغة العربية، وعلى رأسها، بالطبع، المنبع الأول لهذه العبقرية، وهو القرآن الكريم. وفي لحظات أخرى، يستفيد المعرِّب من تراث الشعر العربي المليء بقصائد الحرب، أو الغزل، أو الفخر، أو الحماسة، وبالصور البليغة الحيوية المؤثِّرة، وفي لحظات أخرى استفاد المعرِّب من تراث السِّيَر الشعبية العربية، خاصة في ما يتعلَّق بطريقة السرد، وبالتمهيد للمواقف الحاسمة في الأحداث، أو المواجهات الحاسمة بين الأبطال، سواء كانت مواجهات حربية، أو عاطفية، أو إنسانية: وبذلك أقام دريني خشبة ـ من خلال التعبير الأدبي العربي الجميل والاستفادة من كل تراث اللغة العربية ـ علاقة وثيقة بين الملحمة اليونانية في صياغتها العربية وبين الأدب العربي نفسه، وهو ما جعل هذه الصياغة ـ التي بين أيدينا الآن ـ إحدى الروائع التي يقرأها أجيال القرَّاء العرب، باستمتاع منذ الثلاثينات ـ حين نُشرت أول مرة ـ إلى الآن، وسيستفيد منها دارسو الأدب الكلاسيكي، وكل عشاق الأدب الرائع العظيم.

سامي خشبة



زيوس. (فلاكسمان)[1]

(1) جون فلاكسمان (1755- 1826) john flaxman: نحات انجليزي، قام بعمل العديد من المنحوتات والرسومات التوضيحية للأعمال الكلاسيكية الشهيرة، بالإضافة إلى عمله في الإلياذة فقد قام برسم رسومات للأوديسة وللكوميديا الإلهية لدانتي وتراجيديات أسخيلوس. وكانت رسوماته لتلك الكلاسيكيات أشهر أعماله.

التفاحة

نشيدُ الزمان!

وقصيدةُ الماضي!

وغناءُ السلف!

وحداءُ القافلة التي لا تفتأ تخبّ في بيداء الأزل، إلى الواحة المفقودة في متاهة الأبد، ركبانها الآلهة، وأپوللو، وكيوپيد وملؤها ولدانها المخلّدون.

**

انشد يا هوميروس!

واملأ الأحقاب موسيقى!

واللا نهاية جمالًا وسحرًا!

فالأرواح ظامئة، والقلوب متعبة والإنسانية واجفة والآذان مكدودة من دويّ العصر، فهي أبدًا تحنّ إلى سكون الماضي!

**

لن تصمت يا هوميروس!

فالقيثارة الخالدة لا تزال بيدك!

والقلوب هي القلوب!

فدع أوتارها تملأ الدنيا رنينًا، فقد أوسعتنا هذه الدنيا أنينًا، ورنينك العذب أذهب لأنين الشاكين ولوعة الباكين!

1

رآها تخطر فوق الثَّبَج[1]، وتميس على رؤوس الموج، فهام بها، وشغلته زمانًا عن أزواجه في قصور الأولمپ، فكان يجلس عند شاطئ البحر يترقَّب الفرصة السانحة، يفتِّش في كل موجة عن حبيبته «ذيتيس».. عروس الماء الفاتنة، «ذات القدمين الفضيتين»، ابنة نريوس، ربّ الأعماق، الثاوي مع زوجته الصالحة دوريس، في قصور المرجان.. هناك.. هناك تحت العُباب..

ورقَّت له الفتاة، حين علمت أنه ربّ الأرباب، وسيد آلهة الأولمپ، زيوسِ العظيم، فوصلت بحبالها حباله، تطمعُ الخبيثة في أن تصبح زوجةً أولمپية عظيمة، تصاولُ حيرا أم مارس وڤلكان، وتفاخِرُ لاتونا أم ديانا وأپوللو، وتدلّ على ديون أم ڤينوس.. وعلى سائر أرباب الأولمپ!

وابتسم لهما الزمان، وتساقيا كؤوس الهوى، وأوشك الإله الأكبر أن يبني بها لولا وسواسٌ خامر قلبه، فآثر أن يستشير ربَّات الأقدار[2]

---

(1) الثَّبَج: أعالي الموج.

(2) زيوس هو صاحب الأمر والنهي على جميع الآلهة في الميثولوجيا اليونانية، ما عدا ربّات الأقدار Fates وهن ثلاث ربات، (أ) كيلوتو صغراهن تغزل حبل الحياة من خيوط بيضاء وسوداء (ب) الاخيسيتين تبرمه فتجعل منه المتين والواهي (ج)

قبل أن يبتَّ في الأمر، أو يقطع فيه بشيء.

ولقد شاء حُسْنُ طالع الإله الأكبر أن يفعل، إذ أخبرته الربّات أن ذيتيس الجميلة التي يهواها سيد الأولمپ، تلدُ غلامًا لا يزال يقوى ويشتد، حتى يخلع أباه ويستأثر بالمُلك من دونه، أو على الأقل «تكسف شمس عظمته شمس أبيه، فيعيش إلى جانبه إمَّعة لا شأن له». وهوَّلت فحدَّثته عمَّا يكون للغلام من مقام حين يُثار النقع، ويستحرّ القتال، بين شعبه «الإغريق» وجيرانهم «الطروادبين».

وخَفَق قلب زيوس، وذكر تلك الحرب الضَروس التي انتصر فيها على أبيه ساترن[1] بعد فظائع وأهوال، فأشفق أن يكون له ولد يصنع به ما صنع هو بأبيه.

لذلك قصر هواه، وأصدر على غفلة من كل آلهة الأولمپ إرادة سامية تقضي بأن تتزوج ذيتيس من بليوس ملك فيتيا، الذي كان هو الآخر مولَعًا بها، شغوفًا بجمالها.. حتى لقد خطبها إلى أبيها غير مرَّة فرفض ربّ الأعماق أن تتزوج ابنته من بشريّ هالك ولو كان ملكًا. بيد أنه صدع بأمر الإله الأكبر، وقبل بليوس لابنته بعلًا..

وحزنت ذيتيس، واعتكفت في غرفتها المرصّعة باللآلئ تشكو وتبكي، فلما علم زيوس بما حل بها، زارها من فوره، وطفق يلاطفها ويترضّاها، حتى رضيت أن تكون زوجة لبليوس الملك «على أن تحضر بنفسك، أنت وجميع الآلهة ليلة الزفاف، وليعزف أپوللو على قيثارته، ولترقص ديانا ربّة القمر».

اتروبوس كبراهن وهي تقصه جزءا فجزءا بمقص كبير.

(1) حرب مديدة وطويلة لا يتسع المكان للتحدث عنها.

2

ودقَّت البشائر، واضطرب بطن اليَمّ، وانشقّ الماء عن طريق رحب يتهادى فيه موكب الآلهة إلى قصر نريوس في أعماق المحيط، ووقفت الأوسيانيد والنيرييد وسائر عرائس الماء صفوفًا صفوفًا تحيي الضيوف الأعزاء، اللطفاء الأحبَّاء، وتغني وتنشد. وترسل ألحانها الخالدة موقَّعة على الموسيقى المشجية.

وانبرى أبوللو يوقِّع على قيثارته الذهبية. أبوللو! الذي اشترك في بناء أسوار طروادة. لم يكن يصنع شيئًا أكثر من أن يلعب بأنامله على أوتار القيثارة، فتقفز الحجارة راقصة من الطرب إلى مكانها من الأسوار!

وانطلقت ديانا ترقص.. فما علم أحد من الآلهة أخطرات نسيم تهبط من القمر الفضّي، وتعلو في السماء، أم ديانا الهيفاء، ترقص في القلوب والأحشاء!

ونهض الجميع إلى المقصف الفاخر، الذي تفننت في تنويع أكلاته وأشربته أيد إلهية ماهرة، فأكلوا ما لذ، وشربوا ما طاب. وأخذوا في سمر جميل. وكان هرمز يرسل نكاته الطريفة فيرتفع المكان الحاشد بالضحك، وتدوي الأكف بالتصفيق!

وبينما الآلهة في قصفهم، لا يفكر أحدهم إلا في هناء العروسين، إذا بالربة المنكرة إيريس[1] تظهر فجأة في وسط الجماعة، ثم تشرع تقلِّب فيهم عينين تقدحان بالشر، وتنفثان سُمَّ البغض، وعلى رأسها الفاحم الأسود تتلوى خصل ثعبانية شائهة ذات فحيح وصلصلة، وعلى صدغيها الأبرصين يخشخش عقربان منكران، لكل منهما ذنبان

(1) تسمى أيضا ديسكورديا (ومعناها نزاع) أو أيتيه.

يقطر الموت الأسود منهما ههنا وهناك.

ظهرت إيريس غَضْبى مُحْنِقة، لأن القائمين بالدعوة إلى العرس أغفلوها فلم يرسلوا إليها الدعوة التي أُرسلت إلى الأرباب جميعًا. وهم قد قصدوا إلى ذلك عن عمد، لأنهم خافوا على العروسين من أذاها الذي ما تفتأ تثيره في كل مكان وطئته قدماها. أليست هي ربّة الخصام، النافخة في نار العداوة التي تتضرَّم منذ الأزل في الجوانح والقلوب؟

لكنها لم تنسَ لهم هذا الإهمال، بل أقبلت، وهي تتميز من الغيظ، لتقلب هذا العرس الكريم إلى مأتمٍ أليم.

ولقد أوجس الآلهة جميعًا خِيفة حين رأوها تقلِّب فيهم ناظريها المشتعلين، غير أنهم اطمأنوا قليلًا، حين رأوها تنصرف بعد إذ ألقت على الخوان الفخم تفاحة كبيرة من الذهب، نُقشت عليها هذه الكلمة المقتضبة: «للأجمل!».

3
پاريس

جرت عادة القدماء على أنه كلما وُلد لأحدهم غلام توجَّه من توِّه إلى هيكل أپوللو في دلف يقدِّم القرابين ويزف الهَدْي، ثم يستوحي الكاهنة عمَّا يكون مستقبل ولده وما يفيض به من سعادة أو شقاء، ليأخذ للأمر أهبته، وليعدَّ لكل شيء عُدتَّه.

فلما وضعت هكيوبا، ملكة طروادة، غلامها «پاريس». حمله أبوه الملك پريام إلى هيكل أپوللو، ليرى رأي الإله فيه.

وأربدّ وجه الملك الشيخ، وتغضَّنت أساريره، حين قالت كاهنة المعبد: إن ولده سيكون كارثة على قومه وعلى بلده! وسيأتي من الإثم ما يجرّ إلى قتل ذويه وبني جِلْدَته. ويفضي إلى سقوط طروادة في يد أعدائها.

وتحدَّث پريام إلى هكيوبا في ذلك، فصمَّما على الخلاص من الطفل بتركه في العراء، فوق إحدى جنبات الجبل، ينوشه طير جارح، أو تفترسه ذئاب البرية. وأنفذا فعلتهما الشنعاء! ولكن القضاء ينبغي أن يتم، والقدر يجب أن يأخذ مجراه، فلقد جاز بهذا المكان من الجبل أحد رعاة الأغنام فوجد الغلام وفرح به واتَّخذه لنفسه ولدًا، ثم سهر عليه واعتنى به، ونشّأه على الفروسية التي كانت أحب ما يزاوله الناس في هذا الزمن.

وشبَّ «پاريس» فتى يافعًا، جميلًا ممشوقًا، فعمِل مع الراعي الذي انقذه، وكان مولعًا بالبحر، تشوقه أمواجه، وتفتنه أَواذِيُّه [1]، يختلف إليه ريثما تفيء الأغنام في الحَرّ، يلهو بالسباحة، ويتريَّض بمصارعة الموج، وبدت له إحدى عرائس الماء ـ أيونونيه ـ وكانت قسيمة وسيمة، فهويها وعلقها قلبه، وما لبث أن أصبحت أعزّ شيء عليه في هذه الحياة.

وهامت به أيونونيه، وأخلصت له الحب، وكانت تنتظر أوبته من رعي الغنم كما ينتظر الظمآن جرعة الماء، وكما ينتظر العليل برد الشفاء.

وا أسفاه!

لقد قضت ربّات الأقدار ـ كلوتو وأختاها ـ ألا يدوم هذا الحب طويلًا!

---

(1) الآذي: جمعها أواذي: الموج القويّ الشديد

4

اجتمعت الغانيات حول التفاحة، كل واحدة تريدها لنفسها، وكلٌّ تدَّعي أنها أجمل مَنْ في الحفل جمعيًا.. ثم ساد صمت عميق حينما نهضت «حيرا» و«مينرڤا» و«ڤينوس»، ميمّمات شطر الجهة التي تتنازع فيها الغانيات من سائر الربّات على التفاحة الثمينة.

ـ «أنا حيرا العظيمة، مليكة الأولمپ، وصاحبة الحَوْل والطَوْل فيه وآثركن إلى قلب الإله الأكبر، أنا أحقكن بهذه التفاحة العلوية وأعرفكن بقدرها؛ سأضمها إلى تفاحات هسبريا[1] فهي بهن أليق، وهن عليها أحفظ.. سيعلقنها مع أخواتها الثلاث لتزدان بها حدائقهن».

ـ «أنتِ تفاخرين بملك الأولمپ، وبالجاه والسلطان؟ إذن أين أنا؟ مينرڤا.. ربّة الهُدى والسبيل الحق.. أحق منكِ بهذه التفاحة».

ـ «فيم تختصمان يا أختيّ العزيزتين؟ أليس قد كُتب الحكم على التفاحة نفسها؟ أليست هي للأجمل؟ أولستُ أنا.. ڤينوس.. ربّة الجمال؟ لم تربعتُ على عرش الفتنة إذن؟ هي لي من دونكما».

واختلفت الآلهة، وساد الهَرَج والمَرَج، ولم يجسر أحد ممن احتشد حول الخوان أن يَفُوه بكلمة يفضل بها إحدى الربّات الثلاث حتى لا يقع في سخط الآخرين، وحتى لا يكون أبدًا عرضة لنقمتهما.

وتفرّق الجمع بَدَدًا.

وقصدت الربّات الثلاث جبلًا شامخًا يشرف على البحر فانتظرن عنده، واتفقن على أن يفصل أول عابر، مهما يكن شأنه، بينهن في أمر التفاحة، وتعاهَدْن، بالأيمان المغلظة، على أن يخضعن لحكمه. وأن

(1) راجع قصص «هرقل» في كتاب أساطير الحب والجمال عند الإغريق ج 1 للمؤلف.

تكون كلمته فصل الخطاب في ما اختلفنَ فيه.

وانتظرن طويلًا، وكان البحر يضطرب من تحتهن فيقذف باللآلئ والمرجان، كأن إلهًا حاول أن يُشبع نهم الربّات بالجواهر الغالية فلا يتشاجرن من أجل تفاحة، ولكنهن ما كنَّ يأبهن لحصباء الدرّ المنثور على الشاطئ، بل ما كانت أعينهن تريم عن لقية إيريس!

وكانت عروسة فتّانة من عرائس الماء تعلو وتهبط مع الموج، ولا تفترّ تحدّق ببصرها في الجهة التي جلست بها الربّات يتربَّصن.

وكانت أيونونيه من غير ريب! وكان الجبل مُسْتَراد باريس الذي يريح فيه قطعانه، ثم ينطلق للقاء حبيبته، فيتباثّان ويتشاكيان.

وأقبل «باريس» يشدو لأغنامه ويغنِّي، فزُلزل قلب أيونونيه، وهلعت نفسها، وخافت على حبيبها خوفًا شديدًا، ذلك أن أخبار النزاع الذي انتهى إليه يوم الزفاف من أجل تفاحة إيريس كان قد شاع، وتسامع به كل عرائس البحار، فلما عرفت أيونونيه ما اجتمع الربّات من أجله اضطربت أيَّما اضطراب، وقلقت على باريس أيَّما قلق. لأنه وحده هو الذي يجوز بهذه الطريق، حين ينفذ إليها إلى حيث يحلمان ويتناجيان. وكان مصدر قلقها هو ما عساه أن يجرَّه على نفسه - إذا قضى بينهن - من سخط الربتين اللتين لا يقضي لهما بالتفاحة.

5

وصاحت حيرا: «قف أيها الراعي الجميل فاحكم بيننا في ما نحن مختلفات فيه، تلك تفاحة من الذهب ساقتها السماء إلينا منحة منها لأكثرنا جمالًا وأبهانا رونقًا، وأنا - حيرا - مليكة الأولمپ، وذات الحَوْل والطَوْل فيه، وربَّة التاج والصولجان، وصاحبة القوة والسلطان.

وآثر أزواج ربّك، كبير الآلهة، وأحبهنَّ إليه.. أنا ـ حيرا ذات الجَبَروت ـ وولدي مارس إله الحرب، ورب الطعن والضرب، أقوى أبناء زيوس العظيم.. وولدي ڤلكان كذلك، إذا شئت سَرَد لك الدروع من حديد فتصبح سيد أبطال العالم، لا يُشَقّ لك غبار، ولا يُجرى معك في مضمار! إذا خضت حربًا حماك مارس وأيَّدك، ونصرك ڤلكان وآزرك.. ألست ترى أذن أيها الراعي الجميل أنني أحق من هاتين بتلك التفاحة. أنا ـ حيرا مليكة الأولمپ ـ سأمنحك الثروة التي لا تفنى، والسلطان الذي لا يبيد.. سأجعلك ملك هذه الديار التي ترى.. ستكون صاحب عرش وتاج، وستستريح إلى الأبد من هذه الحياة الضنك التي تحياها.. أنت جميل يا فتى.. وأنت بعرش عظيم أولى منك بهذا القطيع الذي يثغو. وصمتت حيرا.. وجعل پاريس يقلّب في التفاحة ناظريه، وفي قلبه مما رأى وما سمع قلق عظيم».

لقد كانت حيرا تختال في ثوبها الأولمپي الموشّى، وكان طاووسها الجميل ـ الذي اتخذته منذ الأزل رمزًا لها ـ يتشبَّث بناصيتها ويميس، فيزيدها جلالًا وكبرياء.

وأوشك الفتى الراعي أن يقدِّم التفاحة لحيرا، لولا أن صاحت به مينرڤا:

ـ «على رُسُلك أيها الشاب.. اسمع منَّا جميعًا ثم اقضِ بيننا.. أنا لن أزخرف عليك بملك ولا سلطان، فأنت أعقل من أن تنخدع بالعَرَض الزائل. وأعلى من أن يهيمن جسمك على عقلك، وهواك على قلبك، أنا مينرڤا ربّة الحكمة وإلهة الروح الأعلى المقدس.. سأمنحك السداد، سأكشف لك حُجُب الجهالة، وسيضيء مصباح المعرفة بين يديك فتكون أهدى الناس، وأعلم الناس، وأحكم الناس».

وسكتت مينرڤا، وسُمع هاتف من جهة البحر يصيح:

«پاريس، أعطها لمينرڤا يا پاريس..» وكانت أيونونيه ما في ذلك شك!!

وكاد پاريس يلقي بالتفاحة في يدي مينرڤا.. لولا أن تقدَّمت ڤينوس الصَّنَاع[1].. ڤينوس الحُلوة.. ڤينوس الساحرة.. ڤينوس ذات الدّلّ.. ڤينوس التي تكفي غمزة ماكرة من طرفها الفاتر الساجي لإذلال ألف قلب. لولا أن تقدّمت ڤينوس كلها تطارد قلب پاريس وتحاصر عينيه حتى لا يقعان إلا على عينيها.. تقدَّمت ڤينوس ترنو وتبتسم، وتتبرَّج وتهتز، وتشد هذا الصدر وتثني هذا الذراع، وتميل برأسها الذي كله خدود وعيون وأصداغ.. تقدَّمت ڤينوس تبتسم للراعي الجميل عن فم حلو رقيق، تتلألأ ثناياه، ويتضوَّع عبيره، وقالت: «پاريس! هل لك عينان تعرفان الغزل، وقلب يعرف الحب؟.. پاريس أنا ڤينوس التي صليّت لها بالأمس، والتمست منها التوفيق.. هأنذا يا پاريس.. التفاحة للأجمل!

ألست تحب أن أهبك أجمل زوجة في العالم! ستكون زوجتك مثلي، تغمرك بجمال لا حدود له، ولن تشعر معها إلا أنك تعيش معها في جنة.. فتنة.. نظرات حلوة.. خد مورد.. أهداب كظلال الخلد.. عينان نجلاوان.. جسم ممشوق طويل.. زوجة ترضيك وتفي لك.. قلب ينبض بحبك.. هاتها يا پاريس هاتها يا حبيبي..»

وقبل أن تتم الخبيثة سحرها، كان الفتى البائس، قد ألقى التفاحة في يديها الجميلتين، على الرغم من الصيحات المتتالية التي كانت تأتي إليه من البحر، «لا يا پاريس.. لا يا پاريس.. أعطها لمينرڤا يا پاريس..»

---

(1) امرأة صناع: رقيقة اليدين حاذقة بالعمل.

وجرَّ على نفسه غضب حيرا ومينرڤا، وكُتبت التعاسة عليه وعلى قومه ولم يلقَ أيونونيه بعدها..



تفصيلة من لوحة «ولادة ڤينوس» ساندرو بوتشيللي (1445- 1510)
Sandro Botticelli

پاريس يعود

ـ «ألست تحنُّ إلى وطنك، وتتمنى لو ترى والديك يا پاريس؟».

ـ «وطني ووالدي؟».

ـ «....؟....».

ـ «وهل لي وطن غير هذه المروج الخضر، ووالدان غير أبي الراعي وأمي المتداعية الفانية؟».

ـ «مسكين!».

ـ «بل أسعد الناس بأن أكون ابنهما! ولماذا؟ أليس أبي سَيِّد هذه الفلوات، وأمي أعزّ الأمهات؟».

ـ «ذلك حق لو أن أباك هو هذا الراعي يا پاريس!».

ـ «ماذا تعنين؟».

ـ «أعني أنك لست ابنه!..».

ـ «وي! لو لم تكوني ڤينوس لقتلتك!».

ـ «الحقّ أقول لك أيها العزيز!».

ـ «أنت تعذبينني! ابن من إذن؟..».

- أترى إلى جمالك البارع وجسمك الممشوق السمهري؟ أيكون هذا الخلق من نسل الرعاة الأجلاف؟».

- «...؟....».

- «أتدور بك الأرض إذا علمت أنك ابن ملك؟..».

- «سخرية وهزء.. إلام تعذّبين فؤادي يا ربّة الحسن والحب؟ ألانني أعطيتك التفاحة الخالدة؟..»

- «الآلهة لا تكذب يا پاريس!».

- «أنا؟.. أبي.. ملك؟.. هذا الراعي؟! ملك ماذا؟».

- «ليس هذا الراعي قلتُ لك!! أنت لست ابنه! أنت سليل الملوك الصِّيد[1]!!..».

- «إذن من عسى أن يكون أبي؟..».

- «ملك طروادة!!..».

- «ملك طروادة أبي؟.. پريام؟!..».

- «هو... هو...».

- «ها ها ها.. ومن جاء بي إلى هنا؟ سرقوني؟.. أليس كذلك؟».

- لا تنسَ يا پاريس أنك في حضرة ڤينوس.. وأقولها لك مرة أخرى، إن الآلهة لا تكذب. أجل أنت ابن پريام ملك طروادة.. قيل له: إنك تجرُّ عليه ألوانًا من العذاب فصدَّق، وأرسل بك من تركك فوق جبل بعيدًا لتأكلك الذئاب.. كل هذا وأنت طفل صغير.. وليد.. ولقد عثر بك ذلك الراعي الذي تحسبه أباك ففرح بك وقال لامرأته، عسى أن

(1) الملوك الصيد: الملوك العِظام

يكون لنا منه ولد.. والآن لقد وعدتك بزوجة جميلة.. أجمل امرأة في العالم.. فاذهب أولًا إلى طروادة، والقَ أباك فإنه يعرفك لأن له أبناء خلقهم كخلقك.. وسيحدّثه قلبه.. وتكلمه روحك أنك ابنه.. سيفرح بك پريام يا پاريس، وسيخفق قلب هكيوبا.. أمك التي تبكي من أجلك، وتتمناك بنصف ملكها!

فإذا اطمأنوا إليك، ولبثت فيهم أيامًا، فابدِ لهم رغبتك في الإبحار إلى بلاد الإغريق في أسطول كبير.. إلى اسپرطه.. هناك المرأة التي وعدتك.. أجمل نساء العالم».

وغابت ڤينوس وكأنما، ابتلعها الهواء!

**

وجلس پاريس على صخرة تشرف على البحر المضطرب من جهة، وعلى السفح المعشوشب المصطخب بالحياة من جهة أخرى، ثم أخذ يفكر في كل كلمة انفرجت عنها شفتا ڤينوس.

«تُرى؟! أصحيح ما قالته ڤينوس؟ أصحيح أن پريام أبي؟ ألا أنادي الراعي أبي بعد اليوم؟ وأنتِ أيتها الأغنام: أفراق لا لقاء بعده؟ وا أسفاه! لم لقيتُ ڤينوس؟ عزيزٌ عليَّ أن أهجرك إلى الأبد أيتها البطاح!..

وأنتِ أيتها السماء الحبيبة، بمَ أستبدل قلائدك الدرّية في الليل، وشمسكِ الدافئة، وسحبك الموشاة بالذهب في النهار؟!

الآلهة لا تكذب!! هكذا كانت تقول ڤينوس! أنا إذن ابن ملك! وأبي لا بد أن يكون غرًا ضيق العطن[1]، وإلا فلماذا صدَّق ما ذكرته له الكاهنة عني «طفل صغير يُنبذ بالعراء لتأكله السباع».

---

(1) رجل ضيق العطن: غيرُ صبور، لا حيلة له عند الشدائد.

يا لقساوة القلوب، وتحجُّر الأكباد؟! وأمي؟ أين كانت أمي؟ وأين كان قلب الأم في هذه المرأة، كيف سَهُلَ عليها أن تدعني يُنطلقُ بي لأنبذ بالعراء، فريسة لا حول لها لكلاب الجبل، وطعمة شقية لسباع البرية؟!.

لا بد أن أذهب! لا بد أن أعلم حقيقة أمري! وداعًا أيها البحر!

وداعًا أيتها المروج! يا كل شيء هنا.. وداعًا».

وانطلق لا يلوي على شيء.

وكان أصدقاؤه الرعاة يلقونه في الطريق فينكرون منه كل شيء! ينكرون منه انقباضه، وعهدهم به طلق المحيا لا يفارق المَرَح ثغره البسَّام، وينكرون منه صمته الطويل وهو الثرثار الذي لا يقف لسانه ولا تسكن شفتاه! وينكرون منه هذه النظرات العميقة الحزينة، وهو ذو العينين الضاحكتين والجبين المشرق الطَروب.

وكان هو ينكرهم جميعًا كذلك! أليس قد عرف أنه ابن ملك؟ وابن أي ملوك العالم؟ ابن ملك طروادة! وهل أقوى وأعظم في ملوك العالم من ملك طروادة؟

وبالرغم من هذا الإنكار كان الرعاة لا يبرحون يحبون باريس ويعجبون به، وقد أحزنهم أن ينطلق فريدًا وحيدًا في فلوات تدمدم فيها السباع وتهمهم الوحوش، فذهبوا يقتفون أثره، وكانوا له حرسًا شديدًا في وحشة هذه البرية المَخُوفة[1]..

ووصل إلى طروادة..

وجلس فوق هضبة مرتفعة قليلًا فنظر إلى المدينة الخالدة! واجتمع حوله أصدقاؤه الأمناء الأوفياء يسألونه فيم جاء إلى هذا البلد، ولِمَ

(1) يُقال للطريق: مَخُوف، لإنه لا يخيف السائر، لكن قاطع الطريق يخيف.

هجر قطعانه وأوطانه، وهل في أمره.. حُبّ؟

وطمأنهم باريس. وزوَّق لهم الأحلام والأماني، ووعدهم خيرًا «لا ترى مثله عين، ولا يخطر على قلب بشر».

ودخلوا المدينة.

ويمَّموا نحو ميدانها الرحب الفسيح، حيث اجتمع خلقٌ كثير يَشْهَدون المهرجان الرياضي، ويمتِّعون أنظارهم بشتى الألعاب التي يمارسها أبطال طروادة وما جاوَرَها من القرى، ولبث باريس وأصحابه ينظرون إلى المتبارين ساعة، ثم زَهَاهم[1] الروح الرياضي فقدَّموا أنفسهم إلى الرئيس المشرف على الألعاب، فأشركهم في كثير من المباريات.

ولقد برز باريسٍ على أقرانه، وبزّ كل من تبارى معه في مضمار حتى لفت إليه أعين النظّار، وأصبح موضع إعجاب الحاضرين.

وكانت الأسرة الملكية، الملك وزوجته وأبناؤه وحاشيته، يحدّقون في الفتى مشدوهين مأخوذين، وكانت الملكة بخاصة تحسّ كأن رباطًا روحانيًا يجذبها إلى الناحية التي يجول باريس فيها ويصول، بل كانت تشعر كأن الحديد الذائب في عضلات البطل، إنما يتدفَّق من عضلاتها هي! وأعجب من ذلك جميعًا، ذلك الحنان المتفجِّر في قلبها، وذاك الحب الحزين السادر الذي يغمرها كلها من أجل هذا الغريب المفاجئ المجهول!

ولمحت كاسندرا، ابنة الملك ما كان ينتاب أمها من عواطف، وكانت فتاة بارعة الحسن مليحة القد، فينانة[2] ريَّانة، أعجب بها أپوللو فمنحها حبه، وهام بها حتى لكان يعبدها عبادة، وهو الإله المعبود!

---

(1) زَهَا فلان: أُعجب بنفسه. وزهاه الشيء: كان الشيء سببًا لإعجابه بنفسه.

(2) امرأة فينانة: شعرها حسن طويل.

وكان ما يفتأ يباركها ويخلع عليها من نِعَمِه، فمن ذلك أنه وهبها القدرة على كشف الغيب، والتنبؤ بما كان وما يكون، فكانت تخبر الناس بماضيهم وحاضرهم وما يكون من مستقبلهم، وهم يسمعون ويَعْجَبون.

ولكنها تاهت على أبوللو ودلَّت وكانت أبدًا تمنحه الجفاء والصدود، وتعرض عنه وهو المقبل عليها بروحه وقلبه وبشعره وموسيقاه!

رجاها أبوللو أن تكون له، وأن ترتضيه لها بعلًا، ووعدها لقاء ذلك أن يبني لها القصور الشمَّاء في قبة السماء، وأن يحملها معه أبدًا في رحلاته العُلوية فوق مركب الشمس، فترى كل ما يدبُّ على الأرض. وأغراها بالتوسُّط لدى كبير الآلهة زيوس الأعظم فيمنحها الخلود، وربما رفعها إلى صفوف الآلهة أنفسهم.. بيد أنها ما كانت تزداد إلا شماسًا[1] وعنادًا.

ولما ضاق أبوللو بها ذرعًا، صبَّ جام غضبه عليها، وسلَّط عليها سخرية سامعيها، فما تقول شيئًا، ولا تتنبأ بشيء ولا تكشف غيبًا، إلا استهزأ بها الناس، وعيَّروها بأنها تكذب وتهرف وتدَّعي!

فلما شاهدت ما كان من فورة الإحساس التي تجرف قلب أمها من أجل باريس، ذكرت أن هذا الشاب ما هو إلا أخوها الذي نبذوه بالعراء فوق الجبل لتأكله السباع، وآيتها على ذلك هذا التشابه الشديد بينه وبين أبيها الملك. وحاجّها قومها فأحضروا باريس ليطابقوا بينه وبين هكتور.. ولكن المطابقة ما كادت تتم حتى أخذته هكيوبا في حضنها الحنون المرتجف، صائحة معبدة: «ولدي باريس.. ابني باريس.. ولدي.. إليَّ إليَّ يا بُني..!». أما الملك فقد بكى هو الآخر، ونهض

(1) فرس شموس: جامحة شاردة لا يمكن ركوبها.

فعانق ابنه عناقًا طويلًا حارًا، غاسلًا جبينه المتلألئ المشرق بدموع الاعتذار عن الماضي البعيد المحزن.

ولمَّا أخبرهم پاريس أن ڤينوس، رَبّة الحب والحسن، هي التي هدته إلى مولده ومنشئه وكريم أرومته، خرَّ الملك وأهله ساجدين.. إلا كاسندرا.

لقد عبست عبوسة قاتمة، وحدَجت أخاها الغريب بنظرة كالحة! ثم صاحت بالملك: «أبي! لتحذر هذا الأخ.. لتحذر پاريس.. ولتذكر نبوءة الكاهنة في معبد أپوللو.. ابنك يجرُّ الخراب على مملكته ويعرِّض شعبك للدمار، وينشر الموت في بيوت رعاياك!».

وهنا ينتقم أپوللو، ويسخر من حبيبته الجافية!

لقد تضاحك الملك مستهزئًا، وغمزت الملكة ابنتها، ولمزتها بكلام قارص. أما هكتور، فقد عبث بأخته ومازحها مزاحًا ثقيلًا.

مسكينة كاسندرا!

حتى الحاشية استهزأت بها وأشعرتها المذلة والهوان.

كل ذلك والرعاة.. أصدقاء پاريس.. ينظرون ويَعْجَبون ولا يفهمون!

أفرخ روع پاريس إذن وصدَّق كل ما ذكرته ڤينوس!

الآلهة لا تكذب!

ها هو ذا يعيش في قصر منيف باذخ، وها هو ذا لأول مرة في حياته يخلع هذا الصوف الخشن الغليظ، ليلبس من سندس أبيض واستبرق! والولدان البيض كالتماثيل يطوفون عليه بالخمرة في أكواب من فضّة، والآكال في صحاف من ذهب وشعب بأسره يطيع أباه ويطيعه،

وجيوش تصدَعُ بأمره، وأساطيل لجبة[1] تملأ البحر، إن شاء أرست، وإن شاء أقلعت، وملك وسلطان، وتاج وصولجان!

لا تنقصه الآن إلا أجمل فتاة في العالم..

تلك الفتاة التي وعدته بها ڤينوس! وما دامت الآلهة لا تكذب فأجمل فتاة في العالم هي من غير ريب في بلاد الإغريق.. لأن ڤينوس أوصته بوجوب الإبحار إليها.. وهل أجمل من حسان اسپرطه في بلاد الإغريق؟! إنهم قوم يعبدون الجمال واعتدال القوام.

إذن فليبحر پاريس إلى اسپرطه!

---

(1) ذات جلبة وصخب وكثرة.

إلى اسپرطه

ـ «سمعتُ يا أبي قصة أختك المعذَّبة «هسيونيه» إذ أنا أرعى الشاء[1] والبُهُم، فكان قلبي يتفطَّر أسى، كيف يسكت شعب عظيم كشعب طروادة على إهانة تصيبه في الصميم من شرفه، وعار ليس أيسر من دفعه، ولكنه يُغضي عليه، وينام عنه، كأن العزَّة القومية عند أهل هذا البلد ليست إلا أسطورة قديمة، أو حلمًا لا يدور لهم بخَلَد؟!».

ـ «حسبك يا پاريس. حسبك يا بني. إنها محنة كُتبت على طروادة صنعها جَدّك بيديه».

ـ «جَدّي؟».

ـ «أجل! جدك.. أبي.. أبي لايوميدون، هو الذي نكث بعده لبطل الأبطال هرقل.. الرجل العظيم الذي أنقذ هسيونيه من براثن هذا الوحش البحري الهائل.. الوحش الذي فتك بعذارى طروادة.. لقد أعلن أبي أن من يقتل هذا التنين فإنه يتزوج هسيونيه.. ولمَّا قتله هرقل العظيم..»

ـ «رفض والدك أن يزوجها منه!».

---

(1) جمع شاة.

ـ «هو ذاك!».

ـ «لم أسمع بهذا من قبل.. ولكن كيف سمحتم لهرقل ومثله أن يستبيحوا طروادة ويذهبوا ببعض الأعزاء من أفراد البيت الملكي».

ـ «كنتُ طفلًا.. وقد كنتُ بعض هذا السبي.. ثم من ذا الذي كان يستطيع دفع هرقل أقوى أبناء زيوس، وصاحب المجازفات الخرافية! من كان يستطيع حماية طروادة منه، بعد أن نكث الملك بوعده؟».

ـ «أنت كنت بعض السبي؟ أنت يا أبي؟».

ـ «أجل يا باريس وقضيتُ في أيدي أعدائنا الشرفاء أجمل حقبة من شبابي! لله كم كانوا كرماء حقًا؟».

ـ «وكيف عدت إلى طروادة إذن؟».

ـ «مات أبي بعد حياة مفعمة بالمتاعب، ولمِ يكن له ولي عهد غيري، فتوجَّه الطرواديون إلى الأعداء يطلبونني ملكا عليهم بأي ثمن.. ولكن أعداءنا كانوا أكرم من أن يسترقوا الملوك أو يبيعوا الأمراء.. لقد أعادوني معززًا مكرمًا إلى وطني، بعد إذ أخمد خصومتهم موت هرقل».

ـ «ولِمَ لمْ تعد عمتي هسيونيه يا أبتاه؟».

ـ «تزوجها تيلامون يا بني، وأحسبها الآن أيِّمًا».

ـ «ذلك أدعى لعودتها.. أنها لا شكَّ تتعذَّب في دار غربتها.. مسكينة! إن حدائق الخلد لا تجدي نفعًا إذا كانت سجنًا!».

ـ «هذا حق يا بني.. ومثلها القفص من ذهب يُحبس فيه البلبل المحزون».

ـ «أنا حزين يا أبتاه.. لا بد أن تعود عمتي.. أفتأذن لي في الإبحار إلى هيلاس؟ إذا أذنت، فلن أعود إلا بها».

**

«الآلهة لا تكذب».

هكذا قالت ڤينوس، وإذا كانت الآلهة لا تكذب، فلن يكذب أپوللو.. لا بد أن تصدق النبوءة القديمة، لا بد أن يبحر پاريس إلى هيلاس ليجر الخراب على طروادة، وليخيِّم الموت في دورها جميعًا.

الآلهة لا تكذب.

لقد أبحر إلى اسپرطه في يوم عاصف.. أسودَ من جبين الموت، وأبرد من بطون القبور.. ولقد كانَ أسطوله اللِّجب يرقص على نواصي الموج، كما يرقص الطائر المذبوح في قبضة الفَناء.

هيلين[1].

ثمرة الحب الأوليمبي الساخر.. ابنة زيوس الغزل، زير النساء، من ليدا الفاتنة التي حوَّلها حبيبها كبير الآلهة، وسيِّد أرباب الأولمپ، إلى بجعة بيضاء تتهادى في مرايا المستنقعات والغدران، ليسهل عليه لقاؤها من دون عزول.. أو رقيب، ولقد ولدت له هذه الطفلة التي كانت كقطرة المداد يُمْهَرُ بها إعلان الحرب.

شبَّت هيلين، وشبَّت في إثرها شياطين الفتنة، وكبرت، وكثرت تحت قدميها مصارع العشاق.

لقد كان جمالها أسطورةٍ مصوَّرة في السحب، موشَّاة بذهب الأصيل.. كانت نظراتها تتغذَّى بأرواح المحبين في غير شره. وترتوي بماء حياتهم في غير نهم.. وإن كان محبوها ليُحْصَوْنَ بالآلاف.

وهي لم تعمد يومًا إلى قتل هذه الأرواح المظلومة، ولم يكن ذنبها

(1) هيلين أو هيلانة أخت كُليتمنسترا من أشهر الشخصيات الكلاسيكية.

كذلك أن تنظر فتصرع، أو تنعس فتصمي[1].. ولكن القتل كان يذهب بأرواح محبيها عفوًا كلما نظرت هنا أو هناك.. وذلك هو القتل البريء.

وكان لها فم شتيت[2] حلو، أودعت فيه السماء أسرارها، وصبغته عرائس[3] الفنون بحمرة الفتنة.. فهو دائمًا يبتسم، وكل ابتسامة منه تحيي وتميت.

وخداها الأسيلان كذلك.. لقد كانت لهما نعومة ولمحة و«فونة»[4] خلّابة، هي ملتقى الفتنة بين الخد والفم والعين والأنف.

ثم عنقها الطويل البلّوريّ الشفّاف، وجيدها الممتلئ الخصب، وجسدها الرخْص المرمري، وساقاها الملتفتان، ويختلط في بشرتهما بياض الندف بحمرة الورد.

هذه هي هيلين.

فإذا فترت العينين، وأرخيت الأهداب الكحيلة السوداء ذات الوطف[5]، وأرسلتَ نظراتك المذهولة ترفّ بالخد والجيد، والفم النضيد، فترتد إلى فؤادك بأحمال الحب، وأثقال الهوى.. رأيتَ التمثال المعبود الذي خلب ألباب أمراء هيلاس، وأجّج قلوبهم بالفتنة، وقرّح أجفانهم بالسهاد.

**

(1) صمي الصيدُ: مات بين يدي صاحبه، يريد دريني خشبة أنها تصيد الناس وتقتلهم إذا نعست.

(2) فم شتيت: مفلَّج، أسنانه متباعدة، وهو ما كان من علامات الحسن قديمًا.

(3) Muses.

(4) الخد البارز المستدير خط مما يلي الأنف يزيد عرائس الفنون التسع جمالًا، وقد أطلق عليه بعض الكتاب «نونة» ودعاه بعضهم «قسمة».

(5) الوطف: كثرة شعر الحاجبين والأهداب.

لم تنشأ هيلين مع ذلك في حجور الآلهة.. فقد تزوَّجت أمها، بعد أن هجرها زيوس، من تنداريوس أحد أمراء هيلاس، فترعرعت الطفلة في مهاد النعمة، وسعدت بالهناء والعيش المخفرج[1]، حتى كانت هيلين التي رأيت!!

وقد تقدَّم إلى خطبتها كثير من سادة الإغريق ونبلائهم، ولكن أحدًا منهم لم تقبله هيلين بعلًا لها.. لا لعيب فيهم.. ولكن القلب!

أجل، لم يكن يتفتَّحُ قلب هيلين الأولمپية الرائعة إلا لكل جميل رائع، ولمَّا لم يكن في كل من تقدَّموا لخطبتها من هو سليل الآلهة مثلها، فقد رفضتهم جميعًا.. وعلَّة ذاك هذا الدم المتكبِّر الذي يجري في عروقها، وذاك الجمال المعبود الذي كان أكثر من أن يجري في امرأة واحدة!

وجرت الألسن في هيلين، وجمال هيلين، وأحباب هيلين.. والساخطين على هيلين ممن جَرَحت كبرياءهم لرفضها إياهم، ولقي زوج أمها من جرَّاء ذلك هولًا شديدًا ورَهَقًا.

تحدثوا أن خُطَّاب هيلين، ومنهم أبطال هيلاس وشجعانهم وذوو الصولة والجبروت فيها، كانوا يضربون معسكراتهم حول بيت زوج أمها، يطمع كل منهم أن يفوز هو بهذه الغادة ذات المفاتن، التي أذلَّت الأعناق العزيزة ورغمت[2] بها الأنوف الإغريقية الشمَّاء.

وخشي تنداريوس أن تنشب الحرب بينهم، لو أن هيلين قبلت أحدهم زوجًا لها دون الآخرين.. وأسقط في يده حين تقدَّم منلوس ملك أسبارطة، وسليل الآلهة أيضًا، إلى هيلين يطلب يدها.. فلمَّا

---

(1) الخفرجة: حسن الغذاء.

(2) رغم الشيء: ألصق بالتراب.

أسرَّت الفتاة إلى زوج أمها أنها ترضى ملك أسبارطة بعلًا لها، تضاعف فزعه وازدادت خشيته، وأيقن أنه لو أنفذ من أمر ذلك الزواج شيئًا فإن أمراء هيلاس بأسرهم يصبحون له أعداء ألداء، وهو لا حول له بعداوة أحدهم بمفرده ولا قوة!

ولجأ تنداريوس إلى الحيلة..

لقد أقام حفلًا شائقًا دعا إليه كل من تقدَّموا لطلب يد هيلين، وبالغ في إكرامهم والاحتفاء بهم، ثم خطبهم فتحدَّث عن فتاته وما كان من أمر خطبتهم لها وعدم التوفيق في انجاز شيء مما أقدموا عليه واختلفوا فيه.. «فإن بدا لهيلين يا سادة أن تختار أحدكم ليكون زوجًا من دونكم انقلبتم على أعقابكم، وثرتم بمن يقع عليه اختيار الفتاة، فقتلتموه أو فضحتموه في عرضه، وجعلتم اسم هذا البيت الكريم مضغة في أفواه الهيلانيين وجيرانهم! إننا نريد أن نتَّقي هذا الشر فلا يستطير، ونتدارك الأمر فلا ندعه همجية بيننا، ولن أكلِّفكم في سبيل ذلك شططًا.. يمين ـ يا سادة ـ صادقة، تقسمونها فتكون عهد الوفاء بيننا، أن ترتضوا جميعًا ما ترتضيه هيلين، وأن تكونوا يدًا على من يحنث ولو كان أعزّكم جانبًا وأكثركم قوة.. بل لنتفق جميعًا على أمر يكون أهم مما أشرت إليه، أن نكون يدًا على من تحدثه نفسه بالإضرار بهيلين أو بسببها، فقد تحدَّث إليَّ مَنْ عندها علم، أن بعضكم ينتوي هذه النية السوداء.. ينتوي أن يسرق هيلين إذا لم يكن من حظه أن يقع اختيارها عليه ليكون بعلًا لها.. وأنتم أيها السادة النجُب من علية الإغريق وجيرة الأولمپ، أتفترضون أن يحدث هذا الحدث في أمر كلكم شاركتم فيه من قبل؟».

ويجيب المدعوون في صوات واحد: «حاشا حاشا».. لنقسم جميعًا..

وأشرفت هيلين على الملأ، وكادوا يفتنون بعد أن أقسموا، لولا أن أرسلت الفتاة صوتها الموسيقي الرنان.. تختار ملك أسبارطة، الملك منلوس، ليكون زوجها الوفيّ الأمين!

وطأطأوا رؤوسهم.. وانصرف أحدهم في إثر الآخر.



هيلين وفينوس. (فلاكسمان).

رسا أسطول باريس في مرفأ ليسديمونيا[1] الأمين، وخرج الأسبارطيون وعلى رأسهم ملكهم ومليكتهم للقاء ابن بريام العظيم، حيث شاع أنه ينزل ضيفًا كريمًا على صاحبي العرش، فيلبث أيامًا في

(1) أو ليقديمونيا عاصمة أسبارطة قديما، ويطلق هذا الاسم على أسبارطة نفسها.

ضيافتهما ثم يعود أدراجه إلى طروادة مصطحبًا عمته الأيِّم[1] هسيونيه!

وتقدَّم الملك والملكة فسلَّما على الضيف الشاب، وتحرَّك الموكب الكبير في طريق حفَّت بالشعب الطروب، وفُرشت بأوراق الورود، وتأرَّجت في جنباتها أنواع الرياحين.. وكانت فرق الموسيقى تعزف هنا وهناك، فتراقص ألحانها العذبة حبات القلوب.. وكم كان جميلًا رائعًا انشاد الجنود وقد وقفوا صفوفًا صفوفًا، كلما مر الموكب الملكي بفرقة منهم دوى هتافهم حتى يبلغ عنان السماء.. فإذا فرغوا واصلت هتافاتهم فرقة ثانية.. وهكذا.

وكان سرب من أجمل قيان اليونان وحسانها يحيط بالملكة الجميلة وقد قصَّرن ثيابهن، وأرسلن شعورهن، فبدون فتنة الركب، وكن سحر الموكب.. ولفتن من پاريس بصره وسمعه وفؤاده!

وكان الفتى يخالسهن نظرات شغوف، وكن بدورهن يبتسمن له ويتبرَّجن، حتى التقت عيناه بعيني الملكة.. فنسيَ نفسه!

لقد خيل له أن قلبه انخلع من مكانه الذي بين جنبيه، ليتأرجح في مقلتيه! أين رأى هذه الملكة من قبل يا ترى؟ إنه لم يذهب إلى الأولمپ قط! وهل لبشري أن تطأ قدماه أرض الأولمپ فيرى مثل هذا الجمال الساحر، والحُسْن الفتَّان؟

الحق أن هيلين تعمَّدت أن تشك قلب پاريس بقوّة وعنف، حين أدركت رُسُل العيون تنتقل بسرعة بينه وبين قيانها وحسانها! فلما التقت عيناها بعينيه غمزت قلبه الضعيف الغض بسهم مراش من عينيها الساجيتين، انطلق إلى جوانحه في برق من بسماتها.. ورعود.

---

(1) الأيِّم: التي مات عنها زوجها

لقد زلزل قلبه..

وأحس كأن قوى خفية تجذب روحه لتمرغها تحت قدمَيْ هيلين! وطفق يفكر ويفكر أين رآها من قبل.. ولكن بلا جدوى.

ثم بدت له ڤينوس، بحيث لا يراها أحد غيره.. وقالت له:

«هي.. هي.. كن شجاعًا».. ثم غابت ربّة الحسن.

فذكر ماضيه القريب، وذكر ما وعدته به ڤينوس، وذكر أن هيلين إن هي إلا صورة أرضية، سماوية، من ربّة الحب.. وأنها مخلوقة كخلقها، عذوبة روح، ورقّة نفس، ودفء دم، وسحر عيون.. فصمَّم على أن تكون له!

**

ولبث باريس في ضيافة الملك أيامًا كانت تنصرم كأطياف الأحلام! ثم حدث حادث جَلَلٌ في أطراف المملكة استلزم وجود الملك نفسه ليرى رأيه فيه، فلما كان يوم السفر ودَّع منلوس زوجته الحسناء، وأوصاها بإكرام ضيفه العظيم: باريس «ابن صديقي ملك طروادة»! فطمأنته هيلين وخرجت تودّعه، حتى إذا كانت عند أسوار ليسدمونيا حيته تحية فاترة.. وعادت لترعى عصفورها الغريد!

أقبلت هيلين على ضيفها غير هيابة، وأقبل هو عليها في غير وجل.. أقبلت عليه تؤانسه كما أوصاها زوجها.. وأقبل هو عليها يغازلها، ويبحث فيها عن أجمل امرأة في العالم كما وعدته ڤينوس!

«هي.. هي.. كن شجاعًا».. هكذا كانت تتردد هذه العبارة المقتَضَبة في أذني باريس كلما ذكر الوفاء، وشكران الجميل. وكلّما هَمّ أن يبتعد بقلبه عن زوجة الملك الكريم المضياف الذي احتفى به وأكرم مثواه.

«هي هي.. كن شجاعًا».. إذن فليكن پاريس شجاعًا كما أمرته ڤينوس! ليقترب من هيلين في هذه الخلوات الحلوة التي تمنّ عليه بها، فتستطيل كل مرة إلى ساعات وساعات؟

ليقترب منها، ولتصبّ هي سلسبيلًا من الموسيقى في أذنيه المرهفتين في كل كلمة من كلماتها.. وليرشف هو هذا السحر حتى تثمل روحه، ويسكر قلبه، وتزوغ عيناه!

لقد وقف كل منهما أمام صاحبه كأن شيئًا كان يدفعهما دفعًا، أجل.. لقد كان هذا الشيء هو يد المقادير التي كانت تلعب من وراء الحُجُب.. المقادير التي تعمل عملها من وراء ستار، حتى لا تراها، وحتى تنفذ ما كتبته في ألواحها.. لا نستطيع له دفاعًا، ولا نستطيع له ردًا..

**

لقد وقف كل منهما أمام صاحبه ليسمع إلى لغة المقادير في الأعين المغرورقة بالدموع، وخفقات القلب التي تقول ما لا يُفهم.

لقد كان كل منهما يحملق في عيني الآخر، وكأنه كان يبحث عن شيء قديم عزيز ضائع.

ترى؟ ماذا كان هذا الشيء؟

عِلْمُ ذلك عند ڤينوس.

وعِلْمه في لوح القضاء والقدر.

**

ـ «ألا يسرك يا هيلين أن نعيش معًا أبد الدهر؟».

ـ «ألا يسرني؟! ما السرور إذن يا حبيبي پاريس؟».

ـ «إذن فلنرحل في ظلام الفجر».

- «إلى أين؟».

- «إلى طروادة».

**

وأقلع الأسطول في غبشة البكور يحمل.. هيلين.

وعفا الحب على عمة پاريس، عفا الحب على الأيِّم هسيونيه.

التعبئة

عاد منلوس من رحلته في الحدود، وليته لم يعد!

لقد جنَّ جنونه حينما علم من أمر زوجه وضيفه ما عَلِم.

«علام إذن كانت كل هذه الضجة، التي أحدثتها تلك اللعينة قبيل زواجنا لقد تركت خُطّابها الكثيرين صرعى حول قصر أبيها، وظلّت تتيه وتدل وتتأبى وترفض، وفيهم شجعان هيلاس وحماتها وأباتها، وملوكها الصِّيد، وفرسانها الصناديد.

فيم إذن كانت كل هذه الضجة؟

هل منحتني جسمها فقط يوم اختارتني بعلًا لها؟ وهل ذخرت قلبها للحب الأثيم، والهوى الفاجر، حتى ترزقها شياطين الفتنة هذا الشاب الغُرَانِقُ[1]، اللاهي المستهتر، فراحت تقدّمه فوق مذبح جمالها قربانًا لهواها النجس، وتقدمه لشبابها الرجيم؟ واحربًا، هل اختارتني بعلًا لها، لا لشيء، إلا أنني ملك وسليل آلهة؟

يا للفاجرة!

أفي ذلك البيت الرفيع الذُّرَى، ظلَّت تتقلَّب الناعسة في ضلالات الخيانة، وظلمات الإثم؟

(1) الغرانق: الشاب الناعم الجميل.

أيتها الجدران الحزينة، كم كلمة دنسة أصمَّت آذانك، وكم صرخة فاجرة دوت كالرعد في حناياك؟ حدثني أيها الهواء المسموم عمَّا كنت تشهد في صميمها، حين كانا ينفثانك من صدريهما سُمًا قتالا.. خبري أيتها الستائر، أيتها المصابيح، يا شموع قصري، أيتها الأرض الملوَّثة، أيها العرض المهين، أيها التاج الذليل، أيتها الكؤوس المتناثرة، والأكواب المقلوبة.. تحدثي إليَّ!

حدثني يا كل شيء هنا عن مهازل الفسق ومذابح الشرف! آه! الشرف؟ الخرافة الكبرى!

الحرب! الحرب! الانتقام! من الفاجرة.. اقتلوا الخائن.. يا حلفائي.. يا تنداريوس.. ادعُ حلفاءك.. لقد أقسموا جميعًا.. لقد كنت تتوقع هذه النهاية يا تنداريوس.. استيقظ.. استيقظي يا اسپرطه.. جنودي شعبي.. هلموا إليَّ».

وهكذا أرسلها منلوس صرخة تجاوبت أصداؤها في جميع أجواء. هيلاس، واستجاب لها كل قادر على الحرب فيها.. إلا القليل.

لقد عجب عشَّاق هيلين حين وصلتهم صيحة تنداريوس، وصدقوا يمينهم التي أقسموا، فلبوا سراعًا، وانتفضت هيلاس كلها فصارت ثكنة تعجّ بالجند وتضُجّ بآلات الحرب، واضطربت البحار بالأساطيل، تيمم شطر أوليس[1]، حيث اتفقت الكلمة على أن يبحر منها الأسطول المتحد، فلا يرسو إلا في مياه طروادة.

ولبَّى الصيحة كل عشاق هيلين الذين أقسموا اليمين، فهرعوا من المشارق والمغارب بخيلهم ورجالهم.. إلا ملك ايثاكا.. أوليسيز[2].

---

(1) أوليس ثغر كبير في مقاطعة بووطيه (التي كانت طيبة حاضرتها قديمًا).

(2) آثرنا هذه التسمية بدلا من التسمية الشائعة (عوليس) لحوشيتها (الحوشي من الكلام: الغريب الوحشي. الناشر) وبدلا من أوليسيس أو بوليسيس لتكرار السين. ويسمى أيضًا أوديسيوس وبها دعوناه في قصة الأوديسة.

أوليسيز

كبر في نفس أوليسيز أن يتقدم لخطبة هيلين فترفضه في مَن رفضت، وهو مع ذاك ملك ايثاكا وبطلها الحُلاحل[1]، وفارس هيلاس الذي لا يشقّ له غبار.. وكَبُرَ في نفسه أن تؤثر عليه منلوس، وهو مع ذلك دونه شجاعة وأقل منه إقدامًا حين يُثار النقع[2] وتستعر الحرب وكَبُرَ في نفسه أيضًا ألا تكون له زوجة يفاخر بها ويزهى على كل جميلة في العالمين. فذهب من فوره إلى عَمّها فتزوج ابنته الجميلة الرائعة پنلوپ: «الزهرة التي تهتز للندى، وترقص لخيوط الشمس الذهبية، وتغني مع الأطيار، ويسكر النسيم إذا داعب خديها.. قبلة الحب الخالدة على خدود الجمال الطليق، وابتسامة السماء الضاحكة في قلوب المحبين المعذبين. پنلوپ، الوديعة كالأطفال الحلوة كالرضا، الصافية كقطرة الندى بين أوراق الورد، المرحة كسطور الغرام في خطاب الحب.. پنلوپ.. التي تفخر الأرض بأن تحملها.. ويفخر الهواء بأن تستنشقه.. والسماء بأنها تظللها وتشرف عليها والجبل بأنها تنظر إليه.. والبحر بأنه يغسل قدميها المعبودتين.

---

(1) السيد في قومه، والشجاع الركين في مجلسه.

(2) النقع: الغبار المرتفع. والتعبير يراد به الغبار المرتفع في ساحة القتال.

پنلوپ: ذات الفم العِطْريّ، والخَدّ اللامع المورَّد، والجبين الناصع الوضّاح، والعنق الناهضة الجيداء.. ربيبة الآلهة، ولمحة الأولمپ وبندورا الثانية..».

تزوج أوليسيز من پنلوپ هذه فأخلصت له الحب، وأصفاها المودة والغرام، وولدت له طفله الجميل المتلألئ تليماخوس «تليماك»، فزادت محبتها له، وتضاعفت عبادته لها، بعد هذا الرباط القدسي الكريم.

عزَّ على أوليسيز أن ينأى عن زوجته الجميلة وطفله العزيز المحبوب، لا لشيء يجري عليه مغنمًا أو رفعة، ولكن ليحارب حربًا لا تعلم إلا الآلهة كيف تنتهي، فقد تكون عقباها القتل أو الغرق أو الأسر فتعيش الزوجة الجميلة أيّماً محزنة، ويحيا الطفل يتيمًا مفجعًا.. وثمن ماذا كل هذه المصائب وتلك الآلام؟ ثمن امرأة أذلّت سادة هيلاس، وجرحت كبرياء زوجها، وفضحت أباها. ثم هتكت عرضها، إذا كان لها عرض، بفرارها مع هذا العاشق الفاجر الأثيم.

لم يشأ أوليسيز أن يقامر بسعادته وحياته في هذه الحرب إذن ولو كان في ذلك كله أو بعضه، الحنث العظيم.. فما يمين شرف هذه التي يتمسك بها ملك كبير كملك ايثاكا، من أجل امرأة ليس لها شرف؟

ليقعد إذن عن هذه الحرب، وليصمّ أذنيه دون صيحتها الكبرى، فإذا ألح عليه المُلحّون.. فليتظاهر بأنه مجنون مأفون.. لا تهديه مسكة من عقل ولا ترشده إثارة من تفكير.

ارسلوا إليه رسولهم السياسي الكبير بالاميدز يحضّه على الحرب ويذكره بيمينه التي آلاها، ويحرضه على «الطرواديين اللؤماء» الذين يوشكون أن يفضحوا الهيلانيين في أعراضهم»، ولكنه ألفاه يحرث

شاطئ البحر بمحراث هائل يجره ثور ذو خوار.. وحصان عربي أصيل!

- «عم صباحًا أيها الملك..».

- «..!..».

- «ماذا يصنع مولاي؟».

- «أحرث هذا الحقل الخصيب!».

- «أي حقل؟».

- «الحقل الذي ترى.. أليس لك عينان تسمع بهما وأذنان تريان ما أفعل؟».

- «عينان تسمعان، وأذنان تريان؟».

- «اذهب.. لا تشغلني.. أريد أن أبذر حقلي هذا الصباح».

- «وماذا عساك أن تبذر أيها الملك».

- «لست ملكًا فلا تهزأ بي.. نحن الفلاحين نطعمكم ونسمنكم ثم يكون جزاؤنا أن تسخروا بنا، اذهب، اذهب».

- «وماذا عسيت أن تزرع؟».

- «سأزرع ملحًا؟!».

- «تزرع ملحًا؟! وتحصد ماذا؟».

- «أزرع ملحًا، وأحصد سمكًا، هها.. لا لا.. سأحصد باذنجانًا.. ولكن لماذا تقف هكذا قريبًا مني؟ لماذا لا تذهب؟».

- «ألا تعرفني يا مولاي؟».

- «أرجوك، أنا لست مولاك ولا مولى أحد، اذهب ودعني أشتغل».

- «أنا بالاميذز يا مولاي! وا أسفاه! إن هيلاس كلها تنتظرك ليومها المشهود».

- «تنتظرني؟ إنها لا بد جائعة، يا بالا، يا باما، يا بلاديز».

- «لستُ بالاديز يا مولاي! أنا بالاميدز».

- «بالاميدز: هذا عجيب! تعال إذن فاعمل معي.. سأسأ[1]».

- «الحرب يا مولاي، الأساطيل في أوليس!».

- «أي حرب وأي أساطيل يا رجل؟».

- «سنحارب طروادة!».

- «وَلِمَ لمْ تذهبوا بعد؟».

- «نريد أن تكون معنا، فالكل يهتف بك ويدعوك؟».

- «يدعونني أنا؟.. أنت يا رجل لا تريد أن أزرع هذا الحقل ملحًا؟ وماذا أصنع في الحرب؟ هل أخبروك أنني فارس؟ اذهب.. سأسأ.. سأسأ».

- «ألا تعرف من أنت يا مولاي؟».

- «وهل تعرف أنت من أنت؟».

- «أنا بالاميدز، وأنت؟».

- «أنا أتريد أن ترسل اسمي إلى ميدان؟.. أتتركني بغير اسم يا رجل؟»

لم يستطع بالاميدز أن يفوز من أوليسيز بطائل، فقد مثَّل ملك ايثاكا دور المجنون تمثيلًا متقنًا يحاول أن يفلت من هذه الحرب التي لا شاة له فيها ولا جمل، والتي قد يُقتل فيها أو يؤسر من أجل زوجة خائنة لا شرف لها ولا عرض.. بيد أن بالاميدز لم ييأس حين رأى ما شاهده من

---

(1) سأسأ بالحمار دعاه للشرب أو الانصراف، أو للعمل والسير.

جنون الملك، فإن وسواسًا وقَرَّ في قلبه أن هذه البله قد يكون تبالها، وأن ما بالملك من مس إن هو إلا حيلة يحاول أن يفلت بها من أرزاء الحرب وأهوالها، ثم هو حيلة كذلك للتحلل من اليمين التي أقسمها عشّاق هيلين.

كذلك لجأ بالاميدز إلى الحيلة هو الآخر، فانقطع أياما ظل يرقب الملك فيها عن كثب، بحيث لا يراه أوليسيز، ولكن الجواسيس كانت تحمل أخبار السياسي الداهية أولا بأول إلى رئيس البلاد، وهذا يحملها بدوره إلى مولاه.. الذي يفطن إلى مكر بالاميدز فيبالغ في ادعاء الجنون، وينزل إلى البحر يحرث موجه. بعد إذا فرغ من حرث شاطئه!

ويسقط في يد بالاميدز فيطلق آخر سهم في كنانته.

ذلك أنه تحايل فسرق تليماخوس الصغير، ولي عهد أوليسيز، والأعز عليه من نفسه، ومن الدنيا وما فيها؟!

سرقه فذهب به إلى حيث والده، يحرث الشاطئ ويحرث البحر، فطفق يضع الغلام أمام المحراث ليرى ما يكون من جنون الملك، هل يقتل ابنه، ويكون بذلك مجنونا حقا، أو يتفاداه ويكون جنونه محض ادعاء، وبلهه تلفيقا في تلفيق.

ولكن الملك كان أحرص على ولي عهده، وقُرّة عينه، من أن تتم فيه حيله بالاميدز الداهية! فكان كلما تعرَّض ابنه لخطر الموت، لوى عنان الثور وذاد الفرس، متفاديًا الطفل إلى الناحية التي لا يكون عليه فيها خطر.

فتضاحك بالاميدز، وفضح جنون الملك، وأخجل حيلته.. ثم لم يزل به حاضًا محرضًا، حتى أقنعه بوجوب خوض هذه الحرب مع إخوانه الهيلانيين.

ازدحمت جحافل الهيلانيين في أوليس، وانعقد المجلس الحربي لانتخاب القائد الأعلى، فاختير ابن أتريوس البكر «أجاممنون» شقيق منلوس وصفيّه، بالإجماع.

اختير أجاممنون للقيادة العامة وإن لم يكن خير أعضاء المجلس الحربي، وكيف يكون كذلك ومن أعضاء هذا المجلس أوليسيز العظيم ملك ايثاكا وأجاكس بطل الأبطال وفارس كل نزال، ونسطور أحكم من أشار بخطة في معمعان، وديوميدز المحارب الصنديد، إلى آخر هذه العصبة المختارة من جيرة الأولمپ، والسادة النجب من فرسان هيلاس.

اختير أجاممنون إذن لأنه شقيق منلوس وممثله في هذه الحرب، ثم لأنه أكبر أعضاء المجلس الحربي سنًا، وهو مع ذاك أحد شجعان هيلاس المعدودين.

انتظمت صفوف الجند، وأخذوا في تمرين عنيف أيامًا معدودات، ركبوا بعدها في سفائن أسطولهم العظيم، وظلوا ينتظرون إذن القائد الأعلى أمير البر والبحر، بالإقلاع، فتجري بهم الجواري المنشآت في موج كالجبال.. إلى طروادة!.. يحملون إليها المنايا الصفر، والغوائل السود في شفار المشرفيات[1] البيض.

ولكن أمير البحر والبر لم يأذن لهم بالإقلاع.

ذلك أن بعض أعضاء المجلس الحربي أشار بوجوب استخارة الآلهة عمًّا إذا كانت حملتهم العظيمة هذه قد كتب لها الظفر والانتصار، أو الهزيمة والانكسار؟ ليكونوا من أمرهم على بينة، وليكونوا أيضًا قد استخاروا أربابهم فتخير لهم. واستشاروها فتخلص لهم المشورة

(1) المشرفيات: السيوف، منسوبة إلى مَشْرَف وهو حداد كان يعمل السيوف.

وليمضوا بعد ذلك على بركتها وفي حراستها.

وارتقبوا نبوءة الآلهة بقلوب فارغة ونفوس مبتهلة. ومضت أيام.

ثم رأوا تيرزياس كاهن المعبد يدلف نحوهم في هدأة فجر صامت فشخصت أبصارهم إليه، وظنوا به الظنون.

وجلس الكاهن المسن، يقلب في القادة عينيه الكبيرتين، وصمت لحظة ثم قال: «أين ابن بليوس أيها الملأ؟».

ونظر القادة بعضهم إلى بعض ولم يحيروا..

فقال الكاهن: «أين ابن بلينوس ربّ الأعماق، من زوجه ذيتيس؟ أليس فيكم أخيل؟».

فأجاب أجاممنون: «ومن أخيل أيها الأب المقدس؟».

فقال الكاهن: «هو ابن ذيتيس التي قالت فيها ربّات الأقدار أنها تلد غلامًا يكسف مجده مجد أبيه. ابحثوا عنه، فلن تُفتح طروادة إلا أن يكون معكم. ولن ينفعكم أن تذهبوا بدونه.. هكذا قالت الآلهة.

أخيل

شُدِهِ القوم، ونظر بعضهم إلى بعض، ونهض الكاهن الوقور ذو اللحيةَ المرتعشة يضرب في غبشة الصبح، متكئًا على عكازه الذي أحنته وأحنت صاحبه السنون. ولم يكد يتسنَّم ذروة الجبل حتى أشرقت ذُكاءُ[1]، فاختلط ذهب أشعتها بفضة لحيته، فزادته رهبة، وزاده البعد وقارًا. وملأ بهامته السامقة وطيلسانه القشيب، قلوب العسكر، وعيون القادة، ألغازًا وأسرارًا..

**

عاشت ذيتيس في كنف بليوس قانعة راضية. لا يعنيه من هذا العالم الرحب إلا الجنين الحبيب الذي يتقلَّب في أحشائها، فتتقلَّب معه أكبر الآمال.

ومضت شهور.. ووضعته غلامًا بُكّاء كثير الصخب، يضم الهواء برجليه الصغيرتين، كأنما يضرب المشرقَيْن والمغربَيْن، وينظر في السماء العميقة بعينيه الزرقاوين، وكأنما يبحث في أغوارها عن جَدّه.. ومجده! وتراه أمه وتبتسم.

(1) ذُكاء: أحد أسماء الشمس.

وشبَّ الغلام وأيفع، وتحدَّثت إلى أمه العرافات والكاشفات الغيب أنه سيكون محاربًا عظيمًا، تتحدَّث بذكره الركبان، وتتعطَّر باسمه المحافل في كل زمان ومكان، وأنه لا بد من رحلة به إلى الدار الآخرة هيدز مملكة بلوتو ـ حيث تستطيع الأم غمس ابنها في أمواه ستيكس، نهر الخلود الزاخر، الذي أودعته الآلهة أسرارها، ونظم فيه شعراء الأولمپ أشعارًا، واشتهرت بركاته في العالمين.

حدثتها أنها إذا غسلت ابنها في أمواه ستيكس، فإنها تُكْسِب جسمه مناعة ضد الموت، وحفاظًا من الفناء، لأن جلده يصبح كالدرع المسرودة من حديد، لا تنفذ فيه السهام، ولا يؤثر فيه طعن القنا، ولا ضرب المشرفيات البيض.

ووقفت به على شواطئ ستيكس!

وهالها أن تنظر فترى المنايا تقفز على غوارب الموج، وتثب فوق نواصي الثبج، تدمدم كأنها الذئاب، وتهوى كأنها البواشق، وترقص ظلالًا سودًا كأنها الجن.

لقد ريعت الأم المسكينة، وكادت تنثني بطفلها المعبود، اشفاقًا عليه من هول ما شاهدت.. بيد أن الطفل.. بيد أن أخيل الصغير، كان يصرخ وينتحب كلما بعدت به أمه عن النهر، في حين كان يهدأ ويبتسم كلما اقتربت به منه.. فتعجَّبت ذيتيس، وجلست ترقب من النهر فرصة هادئة فتغمر ابنها في مائه لحظة وتمضي لشأنها.

وكأن الآلهة قد استجابت لتوسلاتها، فقد نامت الأمواج واستقر سطح الماء، وقالت[1] شياطين النهر المصطخب، فتقدمت الأم المضطربة حاملة ولدها من إحدى رجليه، وذكرت أربابها، مبتهلة

(1) من القيلولة أي النوم في الحر.

إليهم، وغمست أخيل في الماء الهادئ في أقل من لمح البصر، وعادت أدراجها فرحة متهللة.

إلا أن جزءًا واحدًا من جسم أخيل لم يغمره الماء؟

ذلك هو عقب قدمه اليسرى، فيا للهول!

ثم أسلمت ذيتيس ولدها الحبيب للسنتور العظيم شيرون[1]، مؤدب هرقلٍ ومدربه، يلقنه الفنون الحربية، وينشئه على أعمال الفروسية، ويبثُّ فيه ذلك الروح الكبير، الذي بثَّه في سائر تلاميذه من قبل، فكانوا فرسان كل حلبة، وصناديد كل ميدان ولقد نبغ أخيل في استعمال السيف، واللعب بالرمح، وتوتير القِسِيّ[2]، وثقِفَ حيل المصارعة والملاكمة. وقصارى القول: أصبح فتى زمانه، والهلع الملقى في قلوب أنداده وأقرانه، إن كان له أنداد وأقران.

وعاد إلى أمه فاحتفت به، وذهبت من فورها هذا إلى العرافات القدامى، وكهنة المعبد، فاستوحتهم ما عسى أن يكون في كتاب الغيب من حظ لابنها في الميدان.

ولكنها حزنت، ودهاها من الهم ما دهاها، حين قال الكاهن الأكبر، مؤمنًا على ما تنبأت به العرافات، من أن أخيل سيُدعى للقتال في صفوف الإغريق، وإنه سيلقي حتفه تحت أسوار طروادة، بسهم يرميه به ألد أعدائه، يصيب منه مقتلًا في موضع دقيق من جسمه هو، وا أسفاه، عقب قدمه اليسرى، التي لم تغمرها مياه ستيكس.

حزنت ذيتيس، وتجهَّمت للحياة المشرقة، وتجهَّمت لها، وآلت ألا أن تحول بين ابنها وبين حملة طروادة التي كانت الصيحة لها تجوب

---

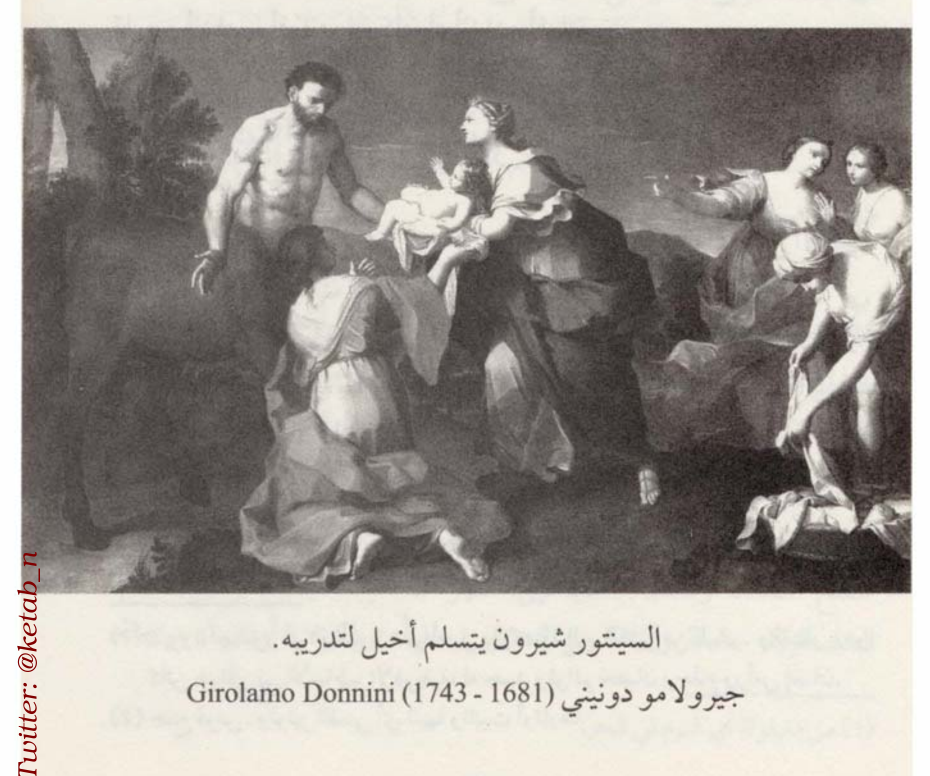
(1) شيرون: سنتور أو (قنطور) علَّم أخيل بالإضافة إلى الكثير من البشر. والقنطور هو كائن خرافي في الأساطير الإغريقية، له جسد وقوائم حصان وجذع ورأس إنسان.

(2) جمع قوس. وتوتير القسي أي ثنيها وتثبيت أوتارها.

آفاق هيلاس في تلك الآونة.

وجلست تفكر..

وبدا لها أن ترسل بأخيل، حيث يحل ضيفًا على ليقوميدس، ملك سيروس الكريم المضياف، وأن تنتحل الأعذار الواهية، فتعرض على الملك أن يسمح لولدها بالتنكر، بأن يصفف طُرَّته ويرسل غدائره، ويزجِّج عينيه وحاجبيه، ويصبغ خديه وشفتيه، ويضفي عليه من وَشْي العرائس وأفواف الإناث، وحبر القيان الغيد، ما يبدو به كأنه واحدة من بنات الملك أو إحدى سراريه! تحسب المسكينة أنها بذلك تعفيه مما قُدِّر له، وهو أينما كان يدركه القتل، ولو كان في برج مشيَّد!



السينتور شيرون يتسلم أخيل لتدريبه.

جيرولامو دونيني Girolamo Donnini (1743 - 1681)

واشتدَّ طلب الإغريق لأخيل، ولبث الأسطول الضخم يرقب مجيئه في كل لحظة عدة أيام، وخشى أجاممنون إن هو أقلع بالفُلك، ورسا عند شطآن طروادة أن ترسل الآلهة ريحًا صرصرًا تسخِّرها عليه، فتأتي على أسطوله، أو يظل تحت أسوار أعدائه مرابطًا أبدًا، لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر وتكون إقامته ثمة بالهزيمة أشبه، وإلى الانخذال أقرب. فأخذ يبعث الرسول تلو الرسول للبحث عن أخيل، الذي أنبأت الآلهة أن فتح طروادة مستحيل بدونه، ولكن عبثًا حاول أحد من الرسل العثور بأخيل أو ظل أخيل، بل كانوا يعودون جميعًا وهم يتعثَّرون بأذيال الخيبة، ويلملمون أطراف الفشل.

وهنا، نهض البطل الملك «أوليسيز» فتى ايثاكا، وندب نفسه للبحث عن أخيل، وأقسم لا يعودَنَّ إلا به.

ومع أن بعض القادة من أعضاء المجلس الحربي، أوجس خيفة من أن يفر أوليسيز، وأن يكون ندبه لنفسه بحجة البحث عن أخيل، إن هو إلا حيلة يريد بها أن يفلت من تبعات الحرب وأهوالها، إلا أن أجاممنون نفسه، وهو القائد الأعلى للجيوش والأساطيل، قبل أن يذهب أوليسيز كي يقص أثر أخيل، بعد أن أخذ عليه «يمينًا على حد الحسام المهند!».

استطاع أوليسيز أن ينفذ إلى مملكة بليوس في أعماق المحيط واستطاع أيضًا أن يختلط بالخدع وحاشية القصر، وأمكنه أن يستدرج بعض الأمراء المقرَّبين من رجال الأسرة المالكة، فيعلم منهم أين يختبئ أخيل، وكيف يمارس حياة العذارى في بلاد ليقوميدس، ملك سيروس، كأنه إحداهن، وعلم أيضًا أن أخيل نشأ نشأة عسكرية على يدَيّ شيرون العظيم، ومن كان تلميذ شيرون فأخلق به ألا يستنيم لهذه الحياة الناعمة التي لا تليق إلا بأبكار الخدور، وربات الحجال، لا بالأبطال وصناديد الرجال، فانطلق إلى سيروس من فوره.

انطلق أوليسيز إلى سيروس النائية، التي تكاد تكون منقطعة عن العالم، وقد حمل على ظهره العريض، وكاهله القوي حقيبة كبيرة جمع فيها من كتان مصر وأصباغها، وعطورها، وحبر الشام، وحريره وسموره[1]، وتصاوير فارس، وقاقمها[2] وسنجابها[3] ومشرفيات الهند وتحف السند، وطرف الصقلب.. ومن كل ما غلا وارتفع ثمنه من أدق صناعات العالم جميعًا.

فلمَّا كان في حاضرة المملكة، يمَّم شطر قصر الملك.. وكان الوقت ضحى، ثم يصيح باللهجة السيروسية، معدِّدًا أسماء السلع التي: استحضرناها حديثًا من مصر الجميلة المتفننة، والشام الصناع العبقري، وفارس الغنية الكسروية، والهند العظيمة، والسند الـ.. ونحن لا نبيع إلا للملوك وأبناء الملوك، لأن الشعب فقير لا يقدِّر بضائعنا الغالية.. ونحن معروفون في مصر، لا يشترى فرعون إلا منا وفي الشام، وفي فارس، وفي الهند، حيث الأقيال العظام والـ..

وأرسلت بنات الملك فأحضرن هذا التاجرِ المُفاخِر بما معه واجتمعن حوله يتفرَّجن ويتلهَّين، هذه تختار منديلًا من حرير الهند أو منطقة من خزِّ الشام، وتلك تشترى من أصباغ مصر وعطورها وخرزها، وثالثة تفتتن بتصاوير فارس فتشترى كل ما مع الرجل منها.

ولكن فتاة ملثَّمة.. وقفت وحدها ترمق سائر الفتيات بنظرات ساخرة، ولا تكاد تبين إلا عن عينين زرقاوين متألقتين، تقدَّمت في خطوات متزنة، ومشية منتظمة، وأخذت الحقيبة من الرجل فقلبتها وما كادت ترى إلى المشرفيات الرقاق، حتى تهللت وبدا البشر في عينيها، وتناولت حسامًا مرهفًا وشرعت تلعب في الهواء ههنا وههنا،

(1)، (2)، (3) ألوان من الفرو الثمين.

كأنما تطيح به رؤوس أعدائها الذين تتصورهم في لوحة الخيال البعيد، المنطبع على أسوار طروادة!!

وشُده أوليسيز مما رأى!

إنه هو نفسه لا يستطيع أن يلاعب السيف كما تلاعبه هذه الفتاة.

وإن فتاة تغازل السيف هكذا، لا يستطيع عشرة آلاف فارس أن يقفوا في وجهها، إذا جمعتهم واياها حلبة الوغي!

إنها تأخذ على الهواء مسلكه، فالهواء نفسه ذبيح هذه الضربات القاسيات!

وانقشع الشك عن نفس أوليسيز، وأيقن أنه أمام البطل المنشود، فصاح بصوته الجهوري، وكأن الرعد ينبري من بين شدقيه:

«أخيل!..».

وكأن كل ما في الأرض والسماء راح يردد صيحة أوليسيز:

«أخيل... أخيل... أخيل».

ووقف أخيل لحظة جامدًا، شارد اللب، زائغ العينين، كأنه يستيقظ من حلم كريه مفزع، ثم ما هو إلا أن نثر لثامه ومزق الغلالة الحريرية التي كانت تحبس جسمه العظيم في سجن امرأة، وصاح بأوليسيز وقد بدا في بُرْدِ الأسد.

ـ «أنا هو.. أنا أخيل.. فمرحى يا رجل!».

ـ «أنت هو..؟!».

ـ «أجل.. أخيل بن بليوس.. أبي إله عظيم وأمي بنت إله عظيم، فلبيك وسعديك!».

ـ «وأنت مختبئ هنا في خدور النساء خشية الحرب التي احتشد لها

قومك دفاعًا عن الوطن؟».

ـ «أية حرب يا رجل؟».

ـ «بين هيلاس وطروادة».

ـ «ومن أثارها؟».

ـ «لقد سرق باريسُ بن پريام، هيلينَ ملكة أسبارطة».

ـ «سرقها؟ ولِمَ لم تقتله الفاجرة؟».

ـ «فرَّت معه، ولم تبالِ بأن تلقي شرف هيلاس في الوحل».

ـ «ولِمَ لَمْ تذهب أنت إلى الحومة، ويبدو لي أنك محارب كبير؟».

ـ «بل أقبلت من الصفوف لأبحث عنك!».

ـ «ومن أنت حتى ينتدبك الجيش للبحث عن أخيل؟».

ـ «ومن أنا؟ وماذا يسرك أن أكون؟».

ـ «من أنت يا رجل؟».

ـ «أيسرك أن ملكًا هو الذي يبحث عنك يا أخيل بن بليوس؟».

ـ «ماذا تعني بـ... أأنت ملك إذن؟ ملك ماذا؟».

ـ «ملك إيثاكا يا أخيل!!».

ـ «أنت ملك ايثاكا؟ أنت أوليسيز؟ هاها.. وما تلك الحقيبة إذن؟».

ـ «هي وسيلتي إليك. لقد مزَّقت بها خمارك، وهتكت بما فيها أستارك».

ـ «أنت تهينني!».

ـ «لا عليك، ما دام محدثك أوليسيز!».

ـ «أفي الحق أنك هو..؟».

ـ «أقسم لك بالكِنَاس[1] الذي آواك..».

ـ «وفيم كنت تحرث شاطئ البحر إذن؟ لقد ذكروا أنك زرعته ملحًا، فهل حصدت سمكًا يا أوليسيز؟».

ـ «أخيل! الأسطول ينتظرنا، ألف ألف يتحرَّقون شوقًا لرؤياك وأنت أكرم من أن تفرّ من حرب.. فهلمَّ!».

ـ «هلم إلى أين؟».

ـ «إلى أوليس أيها العزيز.. إلى حياة البطولة والمجد والشرف!».

ـ «البطولة والمجد والشرف! ماذا تقول؟».

ـ لم يُخلق تلاميذ شيرون للتقلب في قصور الراحة، والتلذُّذ بما في العيش من طراوة ونعومة.. هلم يا أخيل نخض المعمعة، ونلقَ طروادة العاتية، ونلقنها درسًا داميًا في الذود عن كرامة الوطن! لا تقتل وقتنا، فقد حرصنا جميعًا على أن تكون معنا، وتحدَّثت إلينا آلهتنا أن طروادة لا تُفتح إلا عليك، ولا تعنو إلا لك، وقد اتفقت المقادير أن ترميها بك.. لا تترك لخصومك فرصة أن يقولوا: فرَّ أخيل وتقاعس، فأين أبطال هيلاس! هلم هلم، فقومك بنو الكريهة[2] وقروم[3] الحرب وحتوف الأعادي لو رأيتهم مستلئمين[4] في سلاحهم، مقنعين في حديدهم، ململمين في سفنهم، لزهاك عسكرهم الجرَّار، وبهرك خميسهم[5]

(1) الكناس بكسر الكاف بيت الظبي.

(2) الكريهة: الشدة والنازلة في الحرب، ويريد الكاتب أنهم اعتادوا على الحرب ومصائبها.

(3) القروم: السادة المعظَّمون.

(4) المستلئم: لابس اللأمة، وهي الدرع.

(5) أطلق العرب الخميس على الجيش الكبير لأنه يتكون من خمس فرق: الميمنة والميسرة، والجناحان، والقلب ـ فهل كانوا يأخذون هذا النظام عن الإغريق؟

العرمرم[1]! وتمنيت أن تكون أحدهم بالدنيا وما فيها.

دع الغيد يفاخرن بالقلائد والعقود، وتعالَ إلينا نعدّ ما في أجسامنا من ضربات السيوف، ووخزات الرماح، ومواقع السهام، فهذه أعز مفاخر الرجال يا أخيل!

أخيل! ردّ عليَّ! قل سأحضر معك! كلنا ننتظرك يا أخيل!

لن تفتح طرواة إلا عليك! فأي فخر ينتظرك تحت أسوارها، وأي مجد يكلل هامتك يا أعز أبطالها!

تكلَّم، ولا تصمت هكذا.. إن ملك ايثاكا يتوسَّل إليك، أنا أوليسيز كله! سأكون خدنك في الحومة، وصديقك في المعمعة!

وأجاممنون! إنه قائدنا إلى الفخار، وصاحبنا في مصارع الشرف! وديوميدز بطل الأبطال وفارس كل كريهة وقتال! سينسى شجاعته حين ينظر إليك تلاعب الأسِنَّة، وتقبِّل مشارف الرقاق البيض! وأجاكس[2] يا أخيل! لقد بهره ما سمعه عنك، ويتمنى أن يراك ويحارب تحت بند من بنودك خفاق! أجاكس نفسه يود أن يكون جنديًا من جنودك وهو أقوى وأبسل جنودنا جميعا..!

ماذا؟ أتبكي؟ لا لا يا أخيل.

لترقأ دموعك فهي أغلى من أن تنسكب هكذا!

أكرم بك هيلانيًا رقيق القلب، بارًا ببلادك، مناضلًا عن رايتها في ساحة المجد!

لتشرب من دموع أخيل يا ثرى الوطن!

---

(1) عرمرم: كثير العدد.

(2) هواياس.

لتَزْوكَ هذه العَبَرات الغاليات، فهي ترياقك إذا حَزَبك أمر، أو ادلهمَّتِ بك الخطوب!

**

وهكذا كان أوليسيز ماهرًا في إثارة النخوة في قلب البطل!

وهل أحلى من كلمات البطولة، ومن حديث المجد، وقعاً في نفس شاب مثل أخيل؟ لقد تقدم مختارًا طائعًا فقبَّل جبين أوليسيز، ولَثَمَ سيفه ثم ودَّع بنات الملك. وحيَّا القصر، وتزوَّد من الحدائق نظرات.

وانطلق في أثر أولسيز!

إلى..

أوليس!

القربان[1]

لم يبق إذن على الأسطول إلا أن يقلع إلى طروادة فيدمِّرها تدميرًا!

ولكن البحر هادئ. والرياح نائمة، ولا بد لهذه السفن المثقَّلة بالعدَّة والعديد من قوة هائلة تدفعها في هذا الخضم الزاخر.

الأيام تمضي دون أن تستيقظ الريح.

والملال يدب إلى قلوب الجند، من طول ما تلبثوا في تلك الجهة من الشاطئ العابس المتجهِّم لا يريمون.

والميرة تكاد تنفذ.

والخيل تعلك حديدها كأنها بَرِمَت بهذا الركود.

ـ «كالخاس».

ـ «مولاي».

ـ «اذهب يا رجل فاستوح لنا أربابك ماذا تبغي لتطلق الرياح؟».

---

(1) اعتمدنا في تلخيص هذا الفصل ـ علاوة على هوميروس ـ على درامة يوريبيدز الخالدة «إفيجنيا في أوليس» وذلك لأن ما وصلنا من هوميروس عنها مقتضب فكانت درامة يوريبيدز هذه كالشرح المسهب لها.

- «لبيك يا مولاي».

وانطلق عرَّاف الحملة إلى المعبد القريب فمكث غير قليل، وعاد بقلب موهون، وجسم مضغضغ، ووجه مغبرّ، وجبين كاسف معقد.

- «ماوراءك يا كالخاس؟»

- «مولاي!»

- «تكلَّم!تكلَّم ياكالخاس»

- «الآلهة، الآلهة عطشى يا مولاي!»

- «عطشى؟»

- «أجل. عطشى إلى الدماء».

- «دماء من؟».

- «دماء..ابنتك!»

- «ابنتي؟ابنتي من؟»

- «إفيجنيا..»

- «ويلاه، ماذا تقول؟»

- «لا بد من تقديمها قربانًا! لا بد من أن يطل دمها على مذبح ديانا يامولاي».

- «ولمه؟»

- «لكي تطلق الرياح من عقالها، ولكي تكون فدًى للجيش كله، ولهيلاس جميعا».

- «ياللهول! لا كانت هذه الحرب».

وما كاد يقولها حتى تكبكب القُواد حوله وطفقوا يترضونه: «من

أجل الآلهة، وفي سبيل الوطن»، والرجل يبكي وينشج، وتذهب نفسه شعاعًا!

وأمرهم أن يتركوه وحده ليرى رأيه.

فلما انصرفوا دعا إليه كالخاس وأخذ معه في حوار طويل ثم رجاه أن يذهب إلى المعبد فيضرع إلى الآلهة، عسى أن تقبل قربانًا آخر، غير هذه الفتاة الحبيبة المنكودة، مهما غلت قيمة هذا القربان!

ذهب كالخاس وعاد، وأخبر أن الآلهة لاتبغي بأفيجنيا بديلًا!

وانهزم أجاممنون الأب، وانتصر أجاممنون المؤمن التقيّ الورع، الذي يقدِّس الآلهة، ويعرف لها قدرها، فأمر بقرطاس وقلم، وكتب إلى زوجة كليتمنسترا!

«بشراك ياحبيبتي!

أتعرفين أخيل؟

أخيل الذي أصبح ملء الأسماع والأفواه والقلوب، بطل هيلاس الذي وعدتنا الآلهة بفتح طروادة على يديه، الشاب الوسيم القسيم القوي الأبيّ الشجاع، يتقدَّم أخيل لخطبة أفيجنيا «ابنتنا المحبوبة» وبوده لو تزف إليه قبل أن يقلع الأسطول لتدمير طروادة، أنه لا شك سيرى في مرآة أفيجنيا وطنه، وحينئذ يكون حربًا على الأعداء ونقمة عليهم من السماء.

أرسليها أيتها العزيزة، وبودي أن تسرعي بإرسالها من دون ما جلبة فالوقت ضيق ونحن على وشك الإبحار».

(أجاممنون)

وانطلق رقيق عجوز بالخطاب إلى أرجوس، حيث تثوي كليتمنسترا،

في قصرها المنيف «أتريدي» مع ابنتها أفيجنيا، وأبنائها الآخرين.

وخفق قلب الفتاة حينما أخبرتها أمها أن أخيل يريدها، فقد كانت هيلاس كلها تتحدَّث باسم الفتى، وتصلِّي للآلهة التي وفَّقته للانضمام إلى الجيوش الغازية.

خفق قلب أفيجنيا.. وكأنما غرقت في لجة من الأحلام التي تجيش عادة في قلوب العازبات، حين يمر بهن هذا الطور الناعم الجميل من أطوار الحياة.

ولكن ما الذي أوحى إلى أجاممنون بهذا التدبير ولم اختار هذه الحيلة المكشوفة لاستدعاء ابنته التاعسة؟ لا ندري!

لقد مرَّت أيام دون أن تحضر أفيجنيا، ولم يكن الطريق طويلًا أو شاقًا بين أوليس وآرجوس حتى تتأخَّر كل هذه المدة، فهل حدث شيء؟

وكأنما أثار طول الانتظار العاصفة من جديد في قلب أجاممنون الأب فبدا له ألا يصدع لهذا الظلم الأولمبي، ولو صار بعدها زنديقًا ملحدًا مطرودًا من جنة الآلهة، مغضوبًا عليه من قلب الوطن.

وقد كان!

فإنه استدعى الرقيق العجوز، الذي كان يحمل دائمًا بريد القائد العام إلى أرجوس، ودفع إليه برقعة أمر فيها ألا تحضر أفيجنيا، وأمره بأن يسرع بها إلى زوجه، قبل أن تكون قد أخذت أهبتها للسفر.

**

واأسفاه!

لقد لقي منلوس، شقيق أجاممنون وزوج هيلين وملك أسبارطة،

والذي من أجله هذه الحرب، الرقيق العجوز حامل الرسالة فاستوقفه وقرأها.

ودارت الدنيا بالملك المحزون، وأحلولكت الحياة في عينيه وقصد من فوره إلى أخيه فانتهره، ونشبت بينهما معركة حامية من الكلام المقذع والتعيير.. يدفع أجاممنون عن ابنته وفلذة كبده، ويفتديها بنفسه وبالدنيا وما فيها، ويعيّره منلوس بالمروق من الدين، وعصيان الآلهة، وشَقّ عصا الطاعة على السماء.

وأنهما لكذلك، إذ برسول يقول إن كليتمنسترا، زوجة أجاممنون وابنتها إفيجنيا تستأذن في لقاء الملك، ولقاء القائد العام.

يالسخرية المقادير؟ لقد ذهل أجاممنون، وانطلق يبكي، حتى تفجَّر الحنان في قلب منلوس المتحجِّر، ورقَّ لأخيه البائس الملتاع فقال له: «أخي: أنقذها ياأخي، إنها ابنتي كما هي ابنتك فانقذها كما يحلو لك».

ويبهت أجاممنون لهول الموقف، ولا يدري ماذا في وسعه أن يصنع، ثم يراه واقفًا وحده يبكي كما يبكي الأطفال، بعد إذ غادره أخوه.

ويلمح زوجه مقبلة، فيصلح من شأنه، ويتكلَّف البشاشة والتبسم، وأنها لبشاشة باكية، وأنه لتبسم مرّ حزين.

ـ «أهلًا أهلًا إفيجنيا، مرحبًا مرحبًا كليتمنسترا، سفر حميد ورحلة طيبة!»

ـ «أين أخيل، وماذا أعدتتم للاحتفال بالعروسين؟»

ـ «آ.. آ.. أجل. ولكن لا بد أن تعودي أنتِ إلى آرجوس!»

ـ «أعود إلى آرجوس، أعود وأترك ابنتي!»

ـ «أجل.. تعودين وتتركين إفيجنيا!»

ـ «والعروس وإعلان الخطبة على الأقل؟ ألا أحضر شيئًا من ذلك؟ هذا لا يكون، لن أعود حتى أشهد كل شيء».

وتصر كليتمنسترا على بقائها حتى تحتفل بابنتها، وحتى ترى هذا العسكر الجرَّار والأساطيل المنتشرة في البحر كالدَّبى[1]، تحيي ابنتها وتحيي أخيل، وترقص طربًا للعروسين.

ثم يحدث ما ليس في حسبان أحد

يحضر أخيل ليقابل القائد العام، وليبدي له سخطه وسخط جنوده «الميرميدون» من طول هذا الانتظار الذي يبدو أن ليس له آخر، ويلح لديه في وجوب القلاع إلى طروادة مهما كلفهم الأمر.

وما تكاد كليتمنسترا تسمع كلام أخيل[2]، وتسمعه يذكر فرقة الميرميدون المشهورة في جميع الآفاق ببسالتها وكلفها الخارق بالحروب، حتى تعرفه، وتعرف أنه أخيل.. أخيل بعينه، خطيب ابنتها....

وزوج إفيجنيا الحبيب.

فتتقدَّم إليه هاشة محيية، حتى إذا أنس إليها، بدهته بالسؤال عن العرس.

ـ عرس ماذا؟

ـ «عرس ماذا؟ ألست أخيل! قد تقدمت إلى أجاممنون أمير آرجوس، تطلب أن تكون إفيجنيا زوجة لك ألم تطلب يد إفيجنيا! تكلَّم..»

ولكن أخيل يتسمَّر في مكانه باهتًا لا يدري ماذا يقول. لأنه لا يعرف

(1) الجراد.

(2) قد يلاحظ من له اطلاع على الأدب اليوناني المسرحي تصرفا في السياق.

مما قالت السيدة شيئًا. وتحملق الملكة في أخيل طويلًا، ويتصبَّب العرق في جبين إفيجنيا، الفتاة البريئة، لما ترى من حيرة أمها، وارتباك هذا الجندي الباسق الجميل، الذي كانت تحلم به زوجًا كريمًا لها..

ولكن هذا الموقف لم يرض أحدًا.. حتى الرقيق العجوز، حامل بريد القائد العام، فقد انفجر هذا الخادم الأمين من شدَّة الخنق فباح بكل شيء.. باح بكل ما سمع من تحاور منلوس الملك، وأجاممنون القائد الأعلى، بخصوص هذا الزواج المفتري: «مولاتي الملكة! خذي حذرك لفتاتك المسكينة، إنها ستذبح، إن الكهنة الأشرار سيذبحونها اليوم ليسقوا أربابهم الظامئة من دمها الذكي البريء، إن أخيل الكريم لم يتقدَّم ليطلب يد إفيجنيا، بل هو لا يعرف من أمر ذلك قليلًا أو كثيرًا...

ها هو ذا أمامك فاسأليه..»

وكأن صواعق السماء جميعًا نزلت على قلوب القوم.

لقد تحطَّمت كليتمنسترا.

وذاب الثلج في عروق إفيجنيا.

وزُلزل أجاممنون.

أمَّا أخيل : فقد شُده وحجبت ناظريه سحابة كثيفة من الذهول ثم ما هو إلا أن أفاق فاضطربت به الأرض، وأحنقه أن يُتخذ مطية لهذا العبث العابث، والسخرية المهينة.

وصاح الشاب كأنه أسد مهيج وانداح شرر الغضب من عينيه، حتى خيف أن يبطش بأجاممنون وجنوده. كيما يثأر لاسمه، ويصون كرامته..

وانتهزتها الملكة فرصة غالية لتنقذ ابنتها من القتل، فانبطحت عند قدمي أخيل تقبّلهما، وتغسلهما بدموعها، متوسِّلة إليه أن يدفع عن

إفيجنيا، ويحول بينها وبين الموت.

ـ «فإن لم يكن بحسبك أن أمرِّغ خدِّي تحت قدميك لتكون حامي ابنتي، فإنها هي أيضًا تفعل مثلى يا أخيل، إنها تمرِّغ حرَّ جبينها عند موطئ هذه القدم الطاهرة لتكون حاميها وحارسها».

ـ «قفي ياسيدتي، وكلِّمى أباها في شأنها، فإن لم يحل بينها وبين الموت فإني، سأقاتل من دونها حتى أنقذها من الهلاك، ولو حاربت هيلاس جميعًا».

وترجو الأم زوجها، أن يحول بين ابنته وبينه هذه القتلة الشنيعة، ويتصدَّع قلب أجاممنون، وتنهمر دموعه شفقة على الفتاة التعسة، فيعد، ولكن.. لاتَ حين موعد.

لقد نما إلى العسكر أن أخيل أنذر أنه سيقف دون الدم الذي أمرت به الآلهة أن يُراق فغيظوا وأحنقوا، وذهبوا إليه يتحسَّسون جلية الأمر، فصارحهم به فانقضوا عليه يرشقونه بألسنتهم الحداد، ويرجمونه بحجارة الشاطئ.. فولَّى مدبرًا.

وريعت الأم حين رأت إلى الميرميدون ـ جنود أخيل الأمناء ـ يرجمون سيدهم فيمن يرجمه من الجنود الآخرين، فعوَّلت على أن تحمل السلاح وتقف إلى جانبه، لتذود هؤلاء الوحوش.

ولكن إفيجنيا الفتاة، إفيجنيا العظيمة، وقفت في وجه أمها، وصرخت قائلة:

ـ «مكانك يا أماه، لن يموت أخيل من أجل فتاة.

من أنا حتى يفتديني هذا البطل العظيم؟ وما حياتي التافهة في حياته المذخورة الغالية؟.. إن رجلًا يحارب من أجل هيلاس، أجدر بالحياة من عشرة آلاف امرأة لا يستطعن إلى حرب من سبيل؟ أيها الجنود:

خلّوا سبيل سيدكم، فلن تفتح طروادة إلا على يديه، كما أخبرت بذلك آلهتكم، وما دام النصر معلقا بحياتي، فكم يبهجني أن أفتدي الوطن، وأرض أربابي، إن هيلاس كلها تنظر إليّ إليوم، فهل هناك فخر أكثر من أن أكون عند حسن ظنَّها بي، أنا لها، أنا أفديك ياوطني، أماه لا تحزني، انظري إليّ، ها أنذا ابتسم للموت... للقتل... للذبح... هلموا يا سادة هلموا.. أين المذبح.. صلوا من أجلي.. تحيا هيلاس..».

وفي هذه اللحظة فقط، تكبر إفيجنيا في عيني أخيل. فيتمنى لو أجِّلت في حياتها لتكون زوجة كريمة له.. ويعرض استعداده للمنافحة عنها بسيفه، ولكنها تنهاه، وتوصيه أن يعيش لوطنه، ليذب عن بيضته. ويعلي كلمته.

وتنسكب دموع أخيل.

فيا للفتاة..ويا للأم.ويالأخيل البطل.

وتضع إفيجنيا رأسها على رخامة المذبح، ويرهف الكاهن مديته..

ولكن؟لقد شُده القوم.. ونظر بعضهم إلى بعض.

إنهم ينظِرون فلا يرون إفيجينا.

بل يرون مكانها ظبيًا.. رشا غريرًا.

إذن هي المعجزة.

لقد تقطَّر قلب ديانا الكريمة من أجل الفتاة، فهبطت من ذرى الأولمپ لتنقذها.. فرفعتها إلى السماء.. ثم أرسلتها لتكون راهبة معبدها العظيم في مملكة توريس.

وارتفعت أغاني الغوالي.

يسبِّحن للآلهة العطشى!



إفيجينيا. أنسيلم فيورباخ (1880-1829) Anselm Feuerbach

الفدائي الأول

رُويت الآلهة إذن وشفت ما في نفسها من ظمأ إلى دماء الضحايا، وإن لم تغفر لديانا الباردة، ديانا ربّة القمر، انقاذها للفتاة التعسة إفيجنيا، وهي قاب قوسين من خناجر الكهنة والربيين القساة.

لقد أبت الآلهة إلا أن تشرب من ماء الحياة القرمزي، المتدِّفق في عروق عبادها المخلصين من أبناء هيلاس، فلما ذهب كالخاس، عرَّاف الحملة، يستوحي أربابه في معبد دلفي هل لها مطلب آخر في ضحية أو قربانًا بعد تقدمة إفيجنيا ارتفع الصوت الخافت المنبعث من صميم مقصورة الإله الأكبر يقول: لا.. ولكم أن تقلعوا اليوم.. فإذا كنتم عند شطآن طروادة، فإن لنا دم الفارس الأول الذي تطأ قدماه رمال الشاطئ... سيُقتل، وسيكون لنا عوضًا عن إفيجينا.

ودعا إليه أبناءه[1] أيولوس ربّ الرياح الستة فأمرهم أن يكونوا

---

(1) (ايولوس) ربّ الرياح في الميثولوجيا اليونانية، وقد توج من أوروا فأنجبت له أبناءه الستة:

1 ـ يوريس ربّ الريح الشمالية.
2 ـ كوروس ربّ الريح الشمالية الغربية.
3 ـ أكوبلو ربّ الريح الغربية.
4 ـ تيتوس ربّ الريح الجنوبية الغربية.
5 ـ أيوروس ربّ الريح الشرقية.
6 ـ ثم زفيروس ربّ النسيم الجنوبي.

(عن هـ أ. جروير ص 184).

جميعًا في خدمة الاسطول الهيلاني، حتى يصل إلى طروادة.. «وأنا أعرفك يا يوريس حين تعصف وتزفّ، وتصبح ويلًا على الجوارى أي ويل، وأنت يا كوروس، إياك وهذه البوارج التي تصلى بها سفائن القوم، وأنت يا أكويلو، وأنت أيضًا يا تيتوس إن ريحك مجفل، وهبتك هوجاء، ولفحاتك حرور، وأنفاسك سموم، فإن لم تترفق بالقوم وتجر بين أيديهم رخاء، فلأسجننك في الكهف الأسود حتى حين، أما أنتَ يا ولدي أيوروس، فاحذر أن تصيب الناس سوافيك، أو أن يسوء فألهم فيك، بل كن لهم خادمًا أمينًا، تدفع ركبهم في رفق وتملأ شراعهم في أناة.. ويسرني أن تسمعوا لنصيحة زفيروس، فهو ألينكم عريكة وأكثركم صفاءً.. ألقوا إليه بزمامكم، ولا تختلفوا في أمر يلقيه إليكم، أصلح لكم زيوس أحوالكم..».

وهبَّت الريح فخفقت أفئدة العسكر، وابتهجت أنفس القادة واجتمع الميرميدون حول أخيل يترضّونه ويعتذرون عن رجمهم إياه يوم القربان المشؤوم، ثم انتشرت الشُّرُع ورُفعت المراسي، وهمت الفلك فاحتواها البحر اللجّي، وما عتمت أن صارت من الماء والسماء في الهاتف فوق الشاطئ الشاحب في بحر من الأمان.

واضطرب البحر بعرائس الماء وأبكاره، أسرعن من كل فج يحيين أبطال هيلاس، يخفين الوشائح السوداء اللواتي ادخرنها لأيام الفصل، إن أيام الفصل كانت ميقاتًا، وأي ميقات.

توارت الشمس بالحجاب، بزغ القمر يفضض حواشي الماء، وحملقت النجوم تنظر إلى هذا الأسطول اللجب، يمخر عبابًا من خلفه عباب، ويطوي لجة من ورائها لجة، والملاحون دائبون ما يَنون،

مرسلين في اللانهاية ألحانهم، مرددة الرياحُ أغانيهم وأنغامهم، والقادة متكبكبون حول القائد الأعلى، حول أجاممنون، يدرسون تلك الخطة، وينقذون هذه الفكرة، ويدبِّرون من أمرهم ما يصل بهم إلى نصر عزيز.

وتنفَّس صبح اليوم الثالث.

وبدت طروادة العاتية في الأفق الشرقي، متَّشحة بالشفق النحاسي الذي صبغ سماءها بالبنفسج الرائع، تتفجَّر منه أنهار من الدم.

طروادة!

ذات الأبراج المشيَّدة والقباب المنيفة.

إليوم[1].

بنية نپتون إله البحار[2] نفاه زيوس من جنة الأولمپ، ونفى معه أپوللو، فساعده في بنائها بموسيقاه.

يا ما أروعه منظرًا أن نرى أپوللو العظيم يعزف على قيثارته المرنة. فتثب الحجارة وتتراقص، وتقفز إلى مكانها من أسوارك يا إليوم.

طروادة يا ذات الحول!

أين تنام هيلين الساعة ساهمة حالمة، وأيان تتقلَّب تِرْب[3] ڤينوس التي فرَّت مع پاريس.

---

(1) Iluim هي طروادة أيضًا. ومن هذا الاسم اشتق هوميروس كلمة «إلياذة» لملحمته الخالدة iliad وعلى ذكر الإلياذة ننبه القارئ إلى أننا ـ حتى هذا الفصل ـ لم نصل إلى بدايتها عند هوميروس. إلى ذلك في حينه.

(2) إشارة إلى أن نپتون هو الذي بناها.

(3) يقال هذه تِرْبُ هذه أي في نفس سنها، ويريد دريني خشبة أنهما جميلتان بنفس الدرجة حتى يظنهما الناظر في سن واحدة.

ويحك يا منلوس.

إنه ينظر بعينين مشدوهتين إلى أسوار طروادة، يتمنى لو تندكّ على الخائنين الآثمين.

«.. أهو الآن هناك، هذا اللص الغادر، وقاطع الطريق السفاح! هو؟.. وهي؟ ويلاه».

منلوس. لا بد مما ليس منه بد..

لقد ترامت أخبار الحملة الهيلانية إلى طروادة فهبَّ أهلها البواسل يسعون ويستعدون جيرانهم فنصروهم ولبّوا نداءهم، وهرعوا إليهم من كل فجٍّ عميق. وها هي ذي مشارف الجبال وقننها وسفوحها ونتوء الشاطئ وصخوره ومغاوره، وها هي ذي ليديا المتيقظة وأيونيا المتحفِّزة وأيونيا الرابضة[1]. ها هي ذي تلك البلاد جميعًا تضجُّ بالجند، وتعجُّ بالسلاح، وتقعقع بآلة الحرب، وتدق طبول الوغى وتذكي نيران الحراسة في قمم الجبال، فلا تغفل عين ولا تهمد همَّة ولا يتسرَّب إلى النفوس كلال.

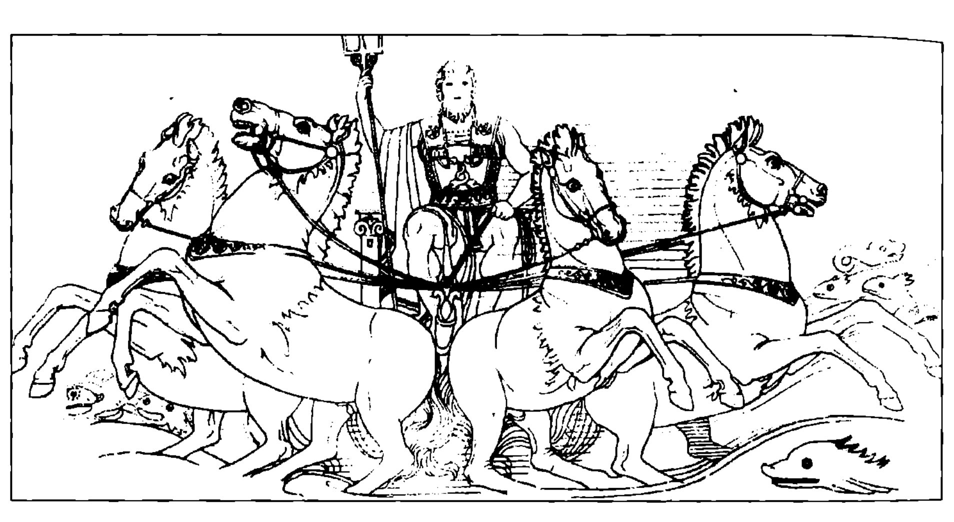
واقترب الأسطول من الشاطئ.

ولكن أحدًا لم يجسر أن يجازف بنفسه، لأن القتيل الأول، هو أول من يهبط إلى الأرض، كما أخبرت النبوءة في معبد دلفي.

ومرَّت أيام: والهيلانيون في سفائنهم ينظرون إلى أبراج طروادة وفجاجها، ويتحرَّقون شوقًا إلى لقاء جنودها، ومنلوس يحرق الأرم هو الآخر، ولكن أحدًا لا يرضى أن يكون الفدائي الأول.. «لأني إذا

(1) هذه أقاليم قديمة في غرب الأناضول مما يجاور طروادة برًا وبحرًا.

نزلت إلى هذا البر المخوف فسيكون الموت محتومًا عليَّ، دون أن أستطيع سبيلاً إلى قتل أحد من هذا الجند. وأنا لم أحضر إلى هنا لأكون قربانًا للآلهة، ولكن لأزاحم وأقاحم وأنافح وأصول فإن قتلت بعدها فبعشرات وعشرات، لا كما يقتل كلب البرية غير مفدَّى..».



نپتون. (فلاكسمان).

بروتسيلوس البطل

بيد أن هيلانيًا مقاحمًا، هيلانيًا واحدًا، من خيرة القادة ومذاويدهم، عزَّ عليه ألا يكون في هذا الجيش العرمرم على ما جمع من صناديد اليونان ومغاويرهم، فدائي واحد يتلقَّى الطعنة الأولى النجلاء. بثغر باسم وقلب لا يجزع، ونفس مؤمنة مطمئنة لا تهلع في موقف الموت، ولا تفرق إذا حمَّ القضاء.

كَبر على بروتسيلوس أن يُرمى قومه بجبن ليست لهم يد فيه، وكَبِر عليه أن يقف ألف ألفٍ لو شاؤوا لدكّوا الجبال وزلزلوا السموات، من دون هذا البلد لا يتقدمون ولا يتأخرون، كأنما حربهم هزل، ونفيرهم مكاء[1] وعزمهم تلفيق. أو كأنما ملأوا الدنيا وعيدًا لتمتلىء الدنيا عليهم سخرية وضحكًا.

كبر على بروتسيلوس ألا يكون هو شهيد هذا الموقف، فارتخص نفسه وهانت عليه الحياة، وتفهت في عينيه لذائذ هذا العيش الذليل، ثم استخار أربابه، واستعاذ بسيد الأولمپ، وما هو إلا أن لمح الشمس يذرّ قرنها في خدر الشرق فوق جبين طروادة، حتى قذف بنفسه على

(1) المكاء: الصفير. ويريد أنهم غير جادين في دعوتهم للحرب.

الشاطئ، وأرسل في الخافقين صيحة الحرب كأنها رعد يميد به جانب الجبل، وتهتز من قصفه أسوار المدينة، ثم جال جولة هنا وجولة هناك، وإذا بالسهام ترشقه من كل مكان، وإذا هو ملقى على أديم الثرى مضرّجًا بدمه، معفًّر الجبين بأول نقع في هذه الحرب.

وذاع خبر مقتله حتى انتهى إلى تساليا، حيث زوجته المفجعة، فحزنت عليه حزنًا أمضّ قلبها، وشفّ جسمها، وأقض مضجعها، وصيَّر الحياة في عينيها حلكًا شديدًا وظلامًا قاتمًا.. «بروتسيلوس: أهكذا يا حبيبي ذكرت كل شيء، في ميدان المجد والشرف، ونسيت فيه كل شيء، أهكذا يا حبيبي ذكرت التضحية والأقدام، حيث تخاذل مواطنوك عن مواطن التضحية والأقـدام، فغامرت بنفسك في هذا المعترك المضطرب، ونسيت أن وراءك قلبًا ينعقد رجاؤه بك، ونفسًا ترف من خلف البحار فوقك، وروحًا لا سكن لها إلا صدرك وأذنين ما التذتا إلا بالموسيقى المنسكبة من فمك، بروتسيلوس: ما قيمة الحياة بعدك يا حبيبي؟ من لزوجتك التاعسة يوم تفخر النساء بأزواجهن. ومن للمحزونة الكاسفة لأوداميا؟ ما أشقى الحياة عليَّ بعدك يا رجلي ومن كنت كل شيء لي.

لا سخط عليكم يا أربابي.

بل أنا أصلِّي لكم، أصلِّي لكم بدموعي وقلبي، أصلِّي لكم بأحشائي التي تتمزَّق، ورأسي الذي يحترق، أصلِّي لكم بلساني الذي يجف من شرق في حلقي، وكان حديث بروتسيلوس يرطبه ويندِيه، أصلِّي لكم يا أرباب الأولمپ عسى أن تلين قلوبكم لي، فأرى حبيبي وأموت.

رجية يسيرة على مقدرتكم يا أرباب الأولمپ، إمّا أن أقضي

فأستريح من هذا الكمد الممضِ، والبث المؤلم.. وإمّا تأذنوا فيعود بروتسيلوس فأراه وأموت.

أتمنَّى عليكم أن يعود فأكلمه.. أملأ أذني وقلبي من موسيقاه! أناديه باسمه ويناديني باسمي! يعانقني وأعانقه، يرى عبراتي وانظر إلى عبراته! يبتسم لي في رضاه وفرحه، وأبتسم له في انكساري ولوعتي!

إإذَنوا يا أرباب الأولمپ، فأنا ما أفتأ أصلِّي لكم، وأتوسَّل إليكم بدمِّه الذكي، وروحه الأبي، وقلبه الكبير!

ارحموا ذلِّي، ورقُّوا لهواني، وارثوا لحالي!».

**

وصيَّرت بنواحها إشراق الصباح ظلمة من الحزن لا أول لها ولا آخر، وأرسلت في الليل البهيم أنَّاتها المؤلمة، وزفراتها الحارة، ووصلت بكاءها الطويل بصلاتها الخاشعة، حتى ارتجفت قواعد الأولمپ، واهتزت عروشه الذهبية، وانعقدت بينه وبين لاوداميا قنطرة من الحزن، عبرت عليها بركات الآلهة إلى فؤادها المكلوم! فمسحت عبراتها، وهدأت من روعها، وبشّرتها بعودة بروتسيلوس!

وفي هدأة ليلة مقمرة، سكن هواؤها، وصدح بلبلها، وأنشد البدر لحنه الصافي على آراده الفضية ليغمرها بهاء وروعة، خرجت لاوداميا المحزونة من قصرها المنيف، لتلقي روح بروتسيلوس يهدهده هرمز الكريم بين يديه، حتى يكون تلقاء زوجه. فترتمي بين ذراعيه!

ويغرقان في طوفان من القبل!

ويغرقان في لجَّة من العبرات!

ويقص عليها بروتسيلوس أنباء مقتله.. فتبكي.. وتبكي.. وتعاتبه

لاوداميا.. وتعذله.. ولكن الساعات الثلاث التي سمحت بها الآلهة للقائهما تمر كاللمح.. فينبههما هرمز إلى انقضائها.. وما تكاد تسمع نذير هرمز، وتعرف أن زوجها عائد أدراجه إلى هيدز، فيظل فيها إلى الأبد، حتى تصعق مكانها، وتخرّ مغشيًا عليها وتموت!

فوارحمتاه للزوجين السعيدين اللذين لن يفترقا بعد اليوم.

وما أجمل هذين الطيفين الحبيبين يعودان معًا إلى دار الخلود!

من السماء

قضى بروتسيلوس نحبه، وعادت روحه الكريمة إلى هيدز مصطحبة روح زوجته البارة، وغرست عرائس الفنون فسائل الدردار فوق قبر الراحلَيْن فنمت وترعرعت، ونعم بفيئها الوارف ماء الهلسبنت[1] ورتعت في ظلها أترابه.

ولكن..!

لقد كانت روح بروتسيلوس الجذوة التي أجَّجت نيران الحرب فجعلتها ضرامًا! فإنه ما كاد يرمي بالسهام فيصمى، فيسيل دمه أنهارًا، حتى تدفَّقت جيوش الهيلانيين على الشاطئ الأسيوي غير مبالين بالموت الأحمر الذي كانت تمطرهم به سهام الطرواديين، والمنية السوداء التي كانت تقطر من سيوفهم، فتحصد صفوف الغازين حصدًا. لا. لم يبالِ الهيلانيون بهذا الهول الأكبر، بل انقضوا على الشاطئ شكاكًا في سلاحهم، مقنعين في دورعهم، مرهفين سيوفهم، تفيض عليهم عدة الحرب كأنهم جنة ترقص في زوبعة، أو ظلال من الذعر تجول في معمعة.

---

(1) هو بوغاز الدردنيل، وبالقرب من مأخذه الجنوبي، على شاطئ آسيا توجد طروادة.

وتبعهم قادتهم العظماء فانطلقوا يبوؤونهم مواقف للقتال، ويلقون عليهم من كلمات الحماسة وخطب الاستبسال، ما أضرموا به جوانبهم شوقًا إلى خوض الكريهة، وحنينًا إلى اقتحام الوغى، وصبوة إلى تقبيل الرقاق البيض.

ودقَّت الطبول فكانت إيذانًا بهجوم الهيلانيين.

فانظر الآن إلى البحر يلتطم بالبحر، والموج يساور الموج، والموت يصاول الموت، والحياة الحلوة تأخذ بتلابيب الحياة الحلوة، وصيحات الهيلانيين تردها صيحات الطرواديين، وليل الآخرة يغطش[1] نهار الدنيا، وظلام القبور يكشر لهذا الدور، والفزع يمشي في صفوف هؤلاء وهؤلاء، واليتم يجرح هذا الكبد، ويقرح ذلك القلب، والحزن يفيض على هذا السهل، ويجوب ذاك الوادي، ويرفّ على قلل[2] تلك الجبال، وأنين الجرحى يطن في فضاء الساحة الحمراء، فيملأ الآذان بالهلع، والنفوس بالجزع، والدماء تتفجر هنا، وتنحدر هناك، والرؤوس منتشرة فوق الأديم المضرج، زائغة أبصارها، فاغرة أفواهها، معفَّرة بالتراب أنوفها التي عَزّت على العالمين.

ثم انظر إلى أخيل يرعد بين الصفوف ويقصف، ومن ورائه الميرميدون يوزعون المنايا ويهدهدون الحتوف ويقرِّبون الآجال!

وأوليسيز المغوار، وتلك العجاجة المنعقدة فوق رأسه من غبار الحرب، وهذه الصعدة السمراء بيمينه تنفث الموت في صدور الأعداء!

وأجاكس وجنوده! الكِرَّار الفِرَّار، المذاويد الأحرار!

ونبليوس، قائد العساكر البوطية، القروم البواسل، والليوث الكواسر!

---

(1) ليل غاطش أي مظلم.

(2) قلل الجبال: رؤوسها.

وديوميد! نبعة أرومته، وسيد عشيرته، ووجه قومه، وفارس كتيبته!

وأجينور! فتى أركاديا، وملاك أمرها، وشمس ضحاها!

وميجيز! النجد الباسل، والبطل الحلاحل!

وأيدومينيز! ملك كريت وقائد جنودها، أباة الذل وكماة الوغى، ومرادي الحروب!

وتليبوليموس بن هرقل بطل المجازفات، المقدام أخو الغمرات[1]!
ثم انظر إلى الصِّيد الصناديد من أبناء طروادة وجيرانهم الكماة، الأباة الحماة!

هاك هكتور العظيم بن بريام الملك، عضد طروادة وسندها وليث عرينها، الثبت الصابر المصابر، رابط الجأش شديد البطش، قوي الشكيمة الفارس المقدام!

هاك هكتور الأسد، يرغي في أسود الشرى ويزبد، ويوقل في بطاح طروادة وينجد!

وهناك إينياس الهائل، يقود «الدردان»[2] الأبطال، إلى كرائم الفعال في ساحة القتال!

وهاك بنداروس! تلميذ أبوللو وربيبه، يقود فرسانه الفحول، ورجاله البهاليل!

وها هما ولدا ميروبس الكبير ملك أبيسوس، يصولان في الحومة ويجولان!

---

(1) ذكر هوميروس رؤساء القبائل اليونانية التي اشتركت في هذه الحرب في الكتاب الثاني من الإلياذة ونحن نكتفي بذكر من أوردنا.
(2) نسبة إلى داردانوس أحد ملوك طروادة.

وهاك أسيوس بن ملك بيدوس، يتقدَّم رعيل فرسانه، ويداعب أعداءه بمرانه!

وها هم أشبال تراقيه، يقودهم يوفيموس المقدام، ويقتحم بهم أيما اقتحام!

وها هم نسور أميدون البواشق، أقبلوا من هناك.. من جنات سيحون وجيحون ليخوضوا الجحيم، في ذلك اليوم العظيم، وليذودوا عن طروادة، حليفتهم، ويدافعوا!

وها هم أمراء ميديا، أقبلوا في عدد وعديد، وكل جبار مريد! انظر إذن إلى الجيشين في مد وجزر، تبتسم لأحدهما الآمال، وتعبس للآخر المنايا، ثم تدور الدائرة، فينتصر المهزوم، ويتأخر المقتدم، وهكذا دواليك.

وتغيب الشمس وتشرق..

ويبزغ القمر.. ويغرب..

وتكر الأيام، وتمر السنون!

وكلما لاحت للطرواديين غفلة من أعدائهم خرجوا إليهم وهم ألوف فنالوا منهم، حتى إذا كروا عليهم عادوا إلى معاقلهم فلاذوا بحصونها، واعتصموا بأبراجها، وتلبثوا هناك حتى تتاح لهم فرصة أخرى.

أعوام تسعة[1]!

مليئة بالتعب، مشحونة بالنَصَب[2]، مفعمة بالخطوب والأهوال.

وكان الهيلانيون يرسلون البعوث والسرايا، فتجوب الريف. وتؤوب

---

(1) من هنا تبدأ الإلياذة في الملحمة المنسوبة لهوميروس.

(2) النَّصَب: المشقَّة والتعب.

بالغنائم والفيء، والأسلاب والسبي، فيقتسمها القادة، ويفيضون منها على الجند.

وهاجموا مرة إحدى القرى، فكان من جملة السبى فتاتان ذواتا رقَّة وفتون، أما إحداهما فكانت من نصيب أجاممنون، واسمها خريسيز، وهي ابنة كاهن القرية الورع، حبيب أپوللو وخليله وصفيه القديس خريسز، وكانت فتاة لعوبًا حلوة الدل رشيقة الروح، وكان أبوها يحبها حبًا جمًا لا تعدل بعضه كل مباهج الحياة!

أما الأخرى فقد خَلُصت لأخيل وأخلصت له الودّ، وأصفاها هو المحبَّة، فكان أحدهما للآخر في هذه المحنة القاسية الصدر الحنون، والقلب النجيّ، والملاذ الأمين. اسمها بريسيز، وأبوها شريف من أشراف هذه الناحية التي نُكبت بتلك الحرب الضَروس، فصليت لظاها، وطحنتها رحاها.

وعلم كاهن القرية بما كان من أمر ابنته، فازدحمت على قلبه الهموم، وأحسَّ في أعماقه بثقل البلية، وشعر كأنه جُرِّد من كل شيء حتى من نفسه.

وبدا له أن يذهب إلى قائد الجند الهيلاني فيفتدي خريسيز، ولو نزل لأجاممنون عن كل ما يملك. وحذّره صحبه من المخاطرة بنفسه في هذا الطريق الشائك، ولكنه لم يعرهم التفاتة واحدة، بل دهن نفسه بالطيب الكهنوتي المقدس، ولبس مسوحة، وعقد زناره، وتناول مسبحة أپوللو العظيم، ثم توكًأ على عصاه العتيدة، وذهب يتهالك على نفسه، ويتعثَّر في خطاه، حتى كان تلقاء المعسكر الضخم.

وسأل عن خيمة القائد العام فقيل له: إنها هي الفسطاط الأكبر الذي تبدو قبَّته هناك.. هناك عند شاطئ الهلسبنت، بين الجيش وبين الأسطول.

وانطلق الكاهن الجليل والدمع ينحدر من قلبه قطرات من الدم.. عن طريق عينيه، فيعلق بلحيته البيضاء، ويصبغها بأرجوانه، كأنه آية السماء الباكية، نذيرا لهذه القلوب القاسية، والغزاة الأقوياء!

وبلغ الفسطاط بعد لأي..

واستأذن على القائد العام فلم يُؤذن له.. فاستأذن ثانية فهُدِّد بالضرب وبالعقوبة.. ولكنه أب مفؤود[1]، وحزين منكود، فتلبّث قليلًا واستأذن في أدب ولين واستكانة، فأذن له..

ووقف أمام القائد الأكبر واهي الجسم موهون القلب، محزونًا متصدعًا، وحاول الكلام فكانت العبرات تخنقه، والأسى يعقد لسانه، والنار المندلعة في رأسه تنسيه كل شيء.

وثار به أجاممنون!

لأنه على ما يبدو فوَّت عليه لذة طارئة، وسكرة مواتية، بمجيئه في تلك اللحظة الهانئة القريرة، والحاحه الشديد بضرورة لقاء القائد.

واحتشد القادة ورؤساء الجند حول فسطاط القائد، وسمعوا إلى الكاهن الكبير يقول:

«مولاي!

سعيتُ إليك عائذًا بك داعيًا أبوللو العظيم لك، أن يفيء عليكم من النصر والفتح المبين، وأن يهبكم من الرعاية والمنن ما تشتهي أنفسكم وتقرّ به أعينكم، وما تترفَّعون به عن ظلم الضعفاء، والجور على الملهوفين، فقد يغني القليل الذي ترضى عنه الآلهة، عن الكثير الذي يثير سخطها، ويستنزل غضبها.

(1) مفؤود: ضعيف الفؤاد.

ابنتي يا مولاي!

خريسيز العزيزة! ردها عليَّ يبارك لك أپوللو، وينزل سبيلك ببركة دعوات قديسه الحزين الواقف أمامك، المبتهل إليك، المستعد لأن يفتديها بكل ما يملك، وبكل ما يقدر عليه مما يرضي الملك!»

لكن الملك أشاح بوجهه، وكَبر عليه أن يجرؤ هذا الكاهن على التفوه بهذه الطِّلبة العزيزة أمامه! خريسيز! أينزل أجاممنون عن خريسيز وقد احتلَّت من قلبه مكانة زوجه كليتمنسترا؟ واستحوذت على لُبِّه حتى نسي الحرب، وعزف عن الطعن والضرب، واستقر معها في فسطاطه آخذين في لهو وحب وغناء وشرب!

أينزل أجاممنون عن خريسيز الجميلة الفاتنة، ولو استحالت عينا الكاهن بئرين تنزفان الدمع، وتفيضان بالدم؟

كلا! لن ينزل أجاممنون عن خريسيز!

«اصغ إليَّ يا رجل! لست أبالي أن تكون قديس أپوللو، وحامل صولجانه، وحامي مسبحته، وعاقد زناره!

ستعود خريسيز معي. إلى آرجوس.. وسيذوي جمالها هناك، وتذبل محاسنها في ثرى الوطن، وسأكل إليها منزلي تخدم فيه، وتصير أم بنين، ويكون بها قصري جنة خلد ونعيمًا لا يفنى.. اذهب، فاسفح دموعك في صومعة أپوللو، وصعِّد زفراتك في هيكله، وبين يدي تمثاله.. اذهب وانجُ بنفسك من عذاب أليم..

خريسيز تعود معك؟!

إنك تثير النقمة في نفسي، فانجُ بنفسك.. انجُ..»

وتصعَّد صدر الرجل، وكاد قلبه يقف، فتقف أنفاسه!

وانثنى والدنيا المظلمة تحجب ناظريه، وكلمات القائد تتردَّد في مسمعيه، فما كاد يبلغ قريته حتى خلا إلى أپوللو، وجلس يبكي ويصلي!

«أپوللو!

يا إلهي! أسمعتَ لقد استهزأ بك أجاممنون، وفجعني في ابنتي وفلذة كبدي، وقطعة قلبي، وحياة روحي!.

أپوللو!

هل سمعت يارب النور؟! أرأيت إلى ذلك العاتي المتجبِّر كيف ثار بقديسك الضعيف المسن الذي أحنت ظهره السنون في عبادتك، والصلاة لك، والتسبيح من أجلك، والهتاف باسمك؟!

ألا فلتنتقم لعبدك يا أپوللو العظيم، وليحل على الطغاة غضبك ولتسحقهم بعذاب واصب[1] ليس له من قدرتك من دافع..

أپوللو..!

استجب يا ربّ الهيكل الخالد، وحامي المعبد الأمين!..».

وسقط الكاهن أمام المذبح ينتحب، والشموع الموقدة تذري دموعها معه!

فثار في عليائه أپوللو!

انتفض الإله العظيم انتفاضة رَجَف من هولها الأولمپ، ورفَّ في السماء كأنه سحابة مظلمة في ليل بهيم، وفوق كاهله الكبير قوسه الفضية المرنان، وعلى ظهره كنانته الواسعة الشاسعة، يسمع لسهامها صليلٌ أي صليل.. وأشرف من سمائه المضطربة على سفائن الأسطول

(1) دائم ولازم.

المطمئن، وما هو إلا أن تميزها حتى عبس وبسر، ووتر قوسه فانهمرت منها سهام كالمطر، صبَّها على السفن حاملات الخيل والبغال أولًا، ثم لوى فأصلى سفائن الجنود وبالًا منها بعد ذلك.. فلا تسمع إلا أنينًا وبكاءً، ولا ترى إلا صرعى يضجُّون ويعولون، ولا تحس إلا زفير جهنم وشهيقها يأخذ القوم من هنا وهناك فيقعون إلى أذقانهم سجَّدًا وبَكيًا..

أمطر يا طاعون..

ولا حنانيك يا أپوللو..

واستمر هذا البلاء تسعة أيام طوال كأنها دهر بأكمله..

وفي اليوم العاشر أُوحى إلى أخيل أن يدعو مجلس الجيش ليرى رأيه في هذه النكبة التي دهتهم بها ميازيب السماء. فلمَّا التأم شمل القادة، اجتمع الرأي على أن يذهب كالخاس فيستوحي أربابه لتكشف هذه الغمَّة، أو ليرى بماذا ترضى من التضحيات والقرابين؟

وعاد كالخاس، كعادته، كلما حُمِّل أخبار الشؤم من لدن أربابه، كاسف الوجه كالح الجبين، يحبس في صدره شجون الأرض، وهموم السماء!

«خريسيز يا سادة!».

«خريسيز تعود إلى أبيها القديس، وإلا فتلك مصارعكم جميعًا فوق هذا الشاطئ المظلم، المضرَّج بدمائكم ودماء أعدائكم..!».

«هكذا تتفق كلمة الآلهة من أجل أپوللو.. فويل لنا جميعًا إن لم نهدِّئ ثورة صاحب القوس، ورب النور، وسيد الشمس..!».

«اسجدوا لأپوللو، واخشعوا..».

ونهض القوم من صلاتهم مشدوهين لا يحيرون، ينظر بعضهم إلى

بعض، ولا تنفرج شفة بكلمة، ولا يتحرَّك لسان بقول!

ولكن أخيل شعر في صميمه أن القدر يسخِّره هذه المرة أيضًا لتفريج الأزمة، وكشف البلاء، فنهض غير هيَّاب، وأرسل قولة الحق في غير وجل، وصرَّح بضرورة إرسال خريسيز إلى والدها القديس معزَّزة مكرمة، ثم تقديم القرابين من لحم وشحمِ الأوعال إلى معبد أپوللو، وإطعام الحاضر من شوائها والباد[1].

وزلزلت الأرض زلزالها، وهوت السماء فوق رأس أجاممنون.

ونشبت ملحمة هائلة بينه وبين أخيل، أوشك البطل أن يغمد سيفه من جرَّائها في صدر القائد العام، الذي طلب بكل صفاقة أن ينزل له أخيل عن غادته بريسيز «إذا كان لا بد من نزولي عن خريسيز، ليسلَمَ الجند من هذا الوباء! وليسكن غضب أپوللو، وترضى السماء!».

وتأجَّجت نيران العداوة بينهما، ذاك يحرص على فتاته الهيفاء وذاك يحضّ على انقاذ الجنود بتضحية الذات وانكارها في سبيل ما هو أسمى وأرفع، ولكن أجاممنون عمى عن هذا المثل العالي، فتشبَّث وأصرَّ أن ينزل له أخيل عن بريسيز، لينزل هو عن خريسيز!

وهنا تتنزل الآلهة لتحكم بين الخصمين!

تبدو مينرڤا، ربّة الحكمة والموعظة الحسنة، رسولًا من لدن حيرا سيدة ربّات الأولمپ، للبطل أخيل، بحيث لا يراها غيره، فتعظه أن يضحي بفتاته ما دام هذا الفظّ يأبى ألا أن يكون ذلك..

ويصدع أخيل بأمر السماء..

ويذهب أوليسيز بابنة القديس إلى أبيها حيث يلقاه في معبده يبكي..

---

(1) الغائب البعيد.

ويصلي، فيبشّره بها، ويسأله الصفح والمغفرة فيهش الكاهن ويبش، وتنهمر من عينيه دموع الفرح.

وتُقدَّم القرابين باسم الجيش الهيلاني إلى معبد أپوللو.

فينكشف البلاء.. وترضى السماء.. ويدفن الهيلانيون موتاهم.

أما أخيل.. فينقطع عن المعركة، وينعزل في معسكره، لا يشترك في الحرب، ولا يشترك فيها جنوده الميرميدون!

وتحسّ أمه بما يلمّ به من الحزن، وتعده خيرًا على يد الإله الأكبر زيوس، سيد أرباب الأولمپ!

فتنة

انتظرت ذيتيس ـ أم أخيل، وحبيبة زيوس من قبل ـ حتى عاد الإله الأكبر من حفل أولمبي دُعيٍ إليه حينما شبَّت السخيمة بين أجاممنون وبين ابنها، فأسرعت إليه لتكلمه في الإهانة التي لحقت بأخيل العظيم، وأزرت بكبرياء بطل هيلاس.

عجلت ذيتيس إلى زيوس..

وكانت ذكريات الإله الأكبر لا تزال تتدفَّق في قلبه، وكان طيف لقائهما على شاطئ البحر يملأ عينيه وخياله، ويطن بالأماني المفقودة في أذنيه، وكان هذا الجمال الفتيّ لا يزال له رجع في كل جوارحه.. وجوانحه..

وقفت أمام زيوس!

وكأن حلمًا لذيذًا طوَّف بعينيه، فرأى قصة حبه تمثل بكلٍ ماضيها الحافل أمامه، ورأى إلى هذه الأويقات الحلوة التي التذًّ فيها فتنة ذيتيس تثب فجأة من الأيام الخوالي فتغمره بسحرها وأسرها، ورأى ذراعيه ترتجفان أمامها في ذل وضراعة، وطرفه الساهم الباكي يجوَّل في طرفها الناعس الكحيل، ورأى إلى هذا المرمر الطروب المنصب في تمثالها يكاد يكلمه.. فيروى له من أخبار الماضي، وسكرات الوجد

ما يفيض له دمعه، ويخفق قلبه، وترتعد من ذكره فرائصه.

ـ «ذيتيس؟!».

ـ «......!».

ـ «..؟.. تبكين..».

ـ «......!».

ـ «مالك.. تبكين!».

ـ «..!..».

ـ «لا.. لا..تعالي إليَّ يا حبيبتي!».

وكانت كلما ألحَّت في الصمت والبكاء، ألح هو في التطلف والرجاء، وكانت ذيتيس تدرك ما أثارته في قلبه من وجده القديم، فدلَّت وتاهت، حتى أيقنت أنه مُنقادٌ لما تطلب، ولو كلَّفته هدم الأولمپ، وثَلَّ عروش السماء!

ـ «أ.. أخيل..!».

ـ «أخيل؟.. ما له؟..».

ـ «ما كفاني أن يذهب ليلقى حتفه تحت أسوار طروادة، حتى يهينه أجاممنون!».

ـ «يهينه أجاممنون؟ يهينه كيف؟»

ـ «أغضب قديس أپوللو وكاهنه الأكبر، ولم يقبل أن يرد عليه ابنته خريسيز فغضب الراهب الشيخ ودعا ربه، فسخَّر الطاعون على الهيلانيين، حتى كاد يبيدهم، فلمَّا طلب إليه أن يرد ابنة القديس على أبيها الشيخ، أبى، وأخذته العزَّة بالإثم، فلما ألحَّ عليه أخيل، ولدي البائس، انقاذًا للجيش، وابقاءً على أبناء هيلاس، رضى أن ينزل على الفتاة، إذا نزل له أخيل عن بريسيز..»

ـ «وآثر أخيل حياة المحاربين ونجاتهم، فنزل عن الفتاة للقائد الغاشم».

- «.. ثم..».

- «ثم هو الآن يحترق بينه وبين نفسه، وقد اعتزل الحرب، وخلا وحده في معسكره، يجتر أحزانه وتجتره الآلام..».

- «لا عليك يا ذيتيس! لا عليك يا حبيبتي! قِرِّي عينًا.. قرِّي عينًا.. فبما أخذه من الناس بغير ما ينبغي له، لأذيقنه وجنوده البلاء المبين!..».

وعادت ذيتيس جذلانة بعد أن طبع على جبينها المتلألئ قبلة.. ارتجف لها قلبه وانهمر الدمع من عينيه صبيا[1]..!

زلزلت ذيتيس قلب الإله الأكبر بدلالها وقوة فتنتها، وأرقَّ طيفها الرائع جفونه، فلم يذق طعم الكرى تلك الليلة بطولها.. فهبَّ من مضجعه السندسي فوق سدة الأولمپ، واستدعى إليه إله الأحلام، فأمره بالذهاب من فوره إلى معسكر الهيلانيين.

«فإذا كنت ثمَّة فانطلق إلى فسطاط أجاممنون، فداعب عينيه، واجثم على قلبه، وقل له، وهو يغط في نومه العميق، إن الآلهة تأمرك أن تصبح فتنفخ في بوق الحرب حاضًا عساكرك على اقتحام طروادة.. فإن زيوس يبشِّرك بالمدينة الخالدة، ولا يكاد النهار ينتصف حتى تكون جنودك في شوارع إليوم ظافرة منتصرة بإذنه..».

وصدع إله الأحلام بما أمره سيد الأولمپ، وأنطلق إلى معسكر أجاممنون في أقل من لمحة، فداعب عينيه، وألقى في روعه الحلم الكاذب، وعاد أدراجه إلى مولاه.

فلما تبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، هبَّ أجاممنون من نومه مذعورًا، وأرسل رسله إلى رؤساء الجند فاجتمعوا لديه قبيل الشروق، وأعلن هو انعقاد المجلس الحربي، فصمت

---

(1) صبيان المطر: قطراته الصغيرة. يريد أن دموعه كانت تنزل كالقطرات على خده.

الجميع، ونظر بعضهم إلى بعض، وكل يظن أن لا بد من أمر جَلَل، استدعى انعقاد المجلس في هذه الساعة من بكرة اليوم!

ونهض أجاممنون فتحدَّث إلى القادة، وأخبرهم برؤياه، ولما فرغ، نهض نسطور الحكيم المحنَّك، فسبَّح باسم زيوس وأثنى عليه، وقال:

«لو أن أحدًا غير القائد الأعلى رأى تلك الرؤيا لأثار استهزاء الجميع ولرماه الجميع بجنَّةٍ أو مَسٍّ، ولكنه قائدنا وملكنا، وسليل الآلهة العظام، أجاممنون، هو الذي رآها، وهي لا شك موحاة إليه من لدن ربنا وسيدنا ومولانا مليك الأولمپ، وهو لا بد ناصرنا على أعدائنا الظالمين. فهلموا أيها الإخوان إلى رجالكم فأيقظوهم، وانفخوا فيهم الحمية والحماسة، فإذا أشرقت ذكاء فسووا صفوفهم، واشحذوا عزائمهم، ولنتوكل على أربابنا، وليهتف الجميع باسم زيوس، ولنصل له، ولنسبِّح تسبيحًا كبيرًا».

فلمَّا كان الصبح، ارتجف السهل والجبل، ودوى المشرقان والمغربان بجلبة الجند، وصار كل المعسكر كأنه خلية صاخبة من النحل.. تطن وتطن.. وصارت الساحة الحمراء كأنها سماء معتكرة لرعدها هزيم، ولريحها هزيز[1]، ولبرقها خطف يذهب سناه بالأبصار.

وشرعت الرماح وأرهفت السيوف، وحملقت المنايا كأنها الأغربة السود ترنقُ فوق الفرائس، وتدوِّمُ فوق الجيف..!

ولم يكن أجاممنون قد انخدع بالحلم الكاذب، فشدهه أن يرى استعداد الجيش ونفرته نفرة واحدة.. ولم يخدعه كذلك هذا العدد العديد من الجنود، طالما أن ليس فيهم أخيل وشياطينه المقاتلة.. الميرميدون!

(1) هزيز الريح: دويّها.

فأوجس في نفسه خيفة، وهاله أن يكون في الأمر سر، ووقر في قلبه أن غضبة أخيل لا بد أن تغضب السماء واستقرَّ في نفسه أن هذا الجيش العرمرم ذاهبٌ إلى الهزيمة المؤكدة، ووارِدٌ موارد الردى؟

وهكذا جبن القائد العام.. وندم على أن عقد المجلس الحربي.

فما أن متع النهار، ونظر إلى الجند فرآهم يغمرون الأودية، ويربضون في مشارف الجبال، ورأى أن طروادة المنيعة تهزأ بكواكب الهيلانيين وجيوشهم، حتى نهض فوق يفاع من الأرض، وهتف بجنوده يقول:

«يا أبناء هيلاس: يا بنى قومي:

لستُ أدري إلام تمتد بنا هذه الحرب، وحتام نُنفى هنا في هذا المكان السحيق من الأرض؟!

تسعة أعوام يا قوم، ونحن هنا بمعزل عن العالم، ننامٍ في الخيام، ونأوي إلى السفائن، تلفحنا الرياح، ويثور بنا البحر، وتتخطفنا المنايا!

وعبثًا ينتظرنا أبناؤنا ونساؤنا في هيلاس العزيزة! ومن يدري! فقد يكون بعض أبنائنا أو آبائنا قد نقلوا إلى هيدز، ونحن هنا نتصارع مع الموت، من أجل امرأة آبقة لا عِرضُ لها ولا شرف.

أبناء وطني!

ألا أقولها لكم كلمة سواء صريحة؟ هلموا فاغمدوا هذه الرقاق البيض، ولنعقد مع الطرواديين هدنة يعقبها صلح شريف، ثم لنركب أسطولنا الذي نخر السوس في أخشابه أو كاد، ثم لنعد أدرجنا إلى هيلاس سالمين!

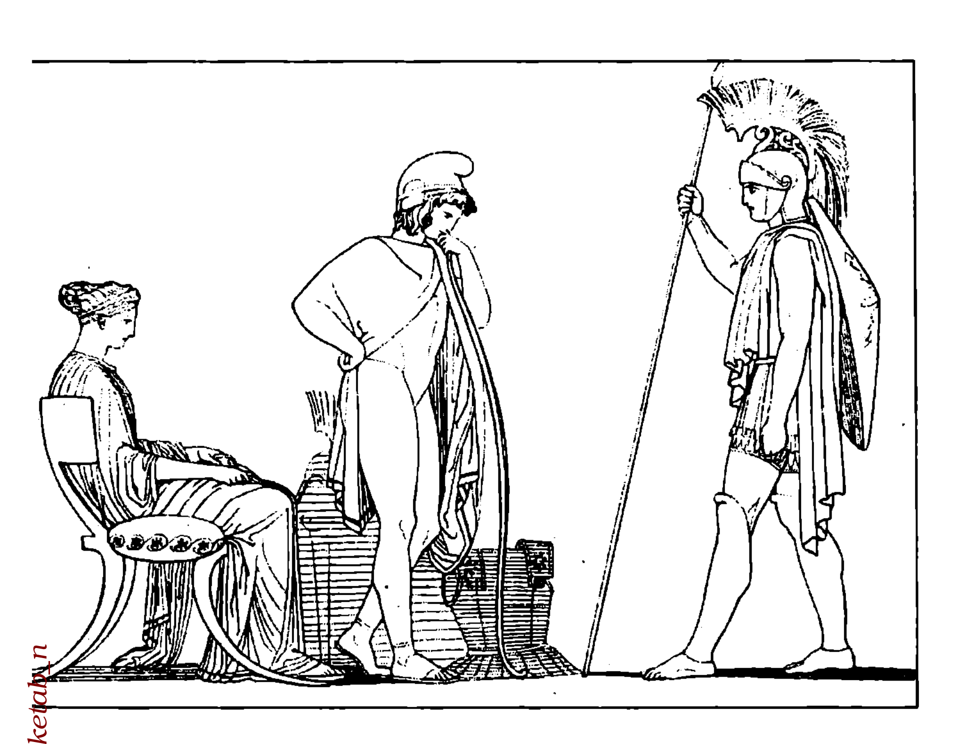
حرب!

أية حرب هذه التي إشتعلت من هولها الرؤوس شيبًا.

أية حرب هذه التي تودي بأعزِّ المُهَج، وتذهب بأغلى الضحايا من نفوس الشباب؟! بل أية حرب هذه التي توقع العداوة والبغضاء بين أخوين من أعز أبناء هيلاس، فيتراشقان بالفحش من القول، ويتبادلان الجهر من الكلام، ويوشكان أن يلتحما في نزال يودي بحياة أحدهما من أجل امرأة؟

أنا ـ أجاممنون ـ أُغْضِبُ أخيل أخي من لذة طارئة، ومتاع غير مقيم! يا للهول.

لتنته هذه الحرب، لتنته هذه الحرب.. ولنعد إلى هيلاس».



هكتور وپاريس وهيلين. (فلاكسمان).

وأرسلها أجاممنون خطبة طويلة تفيض بالحق وتعترف بالواقع.

فصادفت من قلوب الجند المعذَّبين هوى، ولقيت منهم استحسانًا وتحبيذًا، وطَربت لها نفوسهم التي أضناها الحنين إلى الأوطان، وشفَّها التوق إلى لقاء الأهل، ونبذ هذه الغربة الطويلة التي أنهكت قواهم وأوهنت شبابهم.

وفكَّر كل في أبنائه وأبويه وأحبائه، فهفَّت نفسه إلى الارتحال عن هذه الساحة المشجية، عسى أن يقضي الحقبة القصيرة الباقية من حياته الخريفية في راحة وهناء، بين أهله وذويه.

لكن الآلهة لا تريد هذا!

وكيف تنتهي حرب أثارها پاريس بين ربَّات الأولمپ في البدء؟!

أليس هو قد قضى بالتفاحة لڤينوس؟

إذن فڤينوس تنصره وهي لذلك تقيه هوان الهزيمة، وذل الانكسار، ولكنه أين يهرب من حيرا سيدة الأولمپ التي وعدته نعيمًا وملكًا مقيمًا، إذا هو كان أعطاها التفاحة؟

لقد أسخطها بما لم يسخطها أحد به من قبل، وهي لذلك تصل ليلها بنهارها في تدبير السوء له، والكيد لوطنه وعشيرته وكل من يلوذ بهما!

ثم أيَّان يهرب من سخط مينرڤا كذلك!

أليست مينرڤا قد وعدته الحكمة التي لم يُؤتها أحد من قبل، إذا كان قد قضى لها بالتفاحة؟

إن مينرڤا هي الأخرى تتربَّص به السوء، وتود لو أظفرت به أعداءه فينكلون به، ويسقونه عذاب الهوان. لقضائه بالتفاحة إلى ڤينوس.

سمعت حيرا خطبة أجاممنون من علياء الأولمپ، فأفزعها أن ينقاد

الجنود له، وهالها أن يستعد الجميع للرحيل!

فاستدعت إليها مينرڤا، وخاطبتها بصدد ما قاله قائد الهيلانيين، ثم اتفقتا على أن تذهب مينرڤا إلى معسكر القوم فتلقى البطل المغوار أوليسيز، فما تنفكّ تحضّه وتحرِّضه حتى يقوم هو بإلهاب عاطفة الجند وتفتيح عيونهم على العار الأبدي الذي ينتظرهم في بلادهم، إذا عادوا إليها من غير أن يظفرهم أربابهم بأعدائها، قانعين من الغنيمة بالإياب! بعد تسعة أعوام في دار الغربة.

انطلقت مينرڤا إلى ساحة الحرب وكانت كالسحابة البيضاء في دجنة الليل بين جبل آيدا وشواطئ الهلسبنت، حتى إذا شارفت المعسكر أطلّت على القوم فوجدت رؤساءهم يتحاورون فيما قال أجاممنون، ورأت أوليسيز متجهّمًا منقبض النفس مثقل الروح، يكاد ينشَقّ من الغيظ، مما سمع من كلام القائد العام الدال على الخور واليأس، واستبشرت مينرڤا بما رأت من هياج أوليسيز، فهبطت عليه رحمة من السماء، وكلّمته قائلة، بحيث لا يراها أحد غيره.

«أوليسيز فتى إيثاكا وبطل هيلاس».

أسرعتُ إليك ـ إليك أنت ـ إليك يا أشجع جندي هنا، لأحذِّرك من أن تنخدع بكلام أجاممنون، إنها خدعة يا أوليسيز، إن القائد العام يحاول أن يسبر عزائمكم، ويَخبَرَ هممكم، فلا تنطلِ عليكم كلماته.

إنكم لم تنفروا إلى طروادة خفافًا وثقالًا لتغتربوا عن أوطانكم تسعة أعوام طوال ثم لتعودوا كما أتيتم بل أضلّ سبيلا.

أوليسيز: ما ذنب القتلى الأبرياء الذين خَضَّبت دماؤهم ثرى هذه الساحة، تتركونهم في حُمرتين من مقابرهم: حُمرة الدم.. وحُمرة الخجل، مما فرَّطتم في حقوقهم وتهاونتم في كرامتهم؟

وما خطب السنين التسع يا أوليسيز؟

أكنتم تلعبون يوم ضحَّيتم بإفيجنيا؟

أكنتم تلهون يوم أهدر بروتسيلوس دمه؟

واستهزاء الأمم بكم، وضحك القبائل عليكم؟!

لا يا أوليسيز! هلم فحرِّض القادة، وانفخ من روحك في قلوب الجند».

واستمع أوليسيز إلى ربَّة الحكمة، فخفق قلبه فيه، وثارت نَخْوَته، والتهبت مشاعره، وعاهدها على إضرام المعمعة، وتأجيج لظى الحرب.

وانطلق بين الصفوف، فلقي نسطور وأجاكس وبالاميديز، وغيرهم وغيرهم من زعماء الجيش ورؤوس فيالقه، فحذَّرهم «من الانخداع بكلمات أجاممنون، لأنها حيلة يريد بها سبر عزائمهم، واختبار هممهم»! كما تحدَّثت إليه مينرڤا.

وحضَّهم على التضحية والصبر، وحرَّضهم على الجَلَد والاستبسال وذكَّرهم بعهودهم ونظر الدنيا جميعًا إليهم، ثم حذَّرهم من العار السرمدي الذي يتربَّص بهم إذا عادوا من دون أن يفتحوا طروادة!

وتغيَّرت الحال!

وتجدَّدت روح الحرب، وفتح كل جندي عينيه على مجد الوطن! ونجح أوليسيز!

ونجحت مينرڤا.

ودهش أجاممنون لهذا التحوُّل المفاجئ في نفسية الجيش، تلك النفسية التي كانت منذ لحظة، مزيجًا من القنوط واليأس، وخليطًا من

السرور المخامر لمجرَّد الايذان بالعودة إلى الوطن، فصارت تضطرم تشوُّقًا إلى الحرب، وتتحرَّق شوقًا إلى امتشاق السمهريات الظوامي.

وما وسعه إلا أن يثني على شجاعة الجند، و.. عدم استسلامهم، و.. ترفّعهم عن الاستكانة والاستخذاء.

فكان تحوله أعجب.. وموقفه بين عشية أو ضحاها أغرب.

ونظر الطرواديون من كوى أبراجهم، فراعهم التفاف الهيلانيين بمدينتهم، وإحاطتهم بها من كل جانب، وسرى الرعب في قلوبهم ودعوا ثبورًا كثيرًا.

وكان يحنقهم أن باريس الذي جرَّ عليهم كل ذلك الكرب، وكان السبب العقيم لهذه الحرب، يقر في مخدعه الوثير يداعب هيلين المنحوسة ويلاعبها، ويساقيها كؤوس الهوى وتساقيه، غير آبه لما يغصُّ به قومه من كؤوس الردى والحِمام.

وخرج باريس لشأن من شؤون لهوه. وعبث باطل من أغراض غرامه الدنيء، فسمع الناس يلغطون ويلمزون، ويلوكون اسمه بألسنة الهوان والتحقير، فثار ثائره وفارت حماسته، وأقسم ليريَنَّ الجبناء من ضروب شجاعته مما تنخلع له قلوبهم، وتطير من حوله ألبابهم.

وذهب من فوره إلى أخيه هكتور، فطلب إليه أن يرفع الراية البيضاء، ويخترق الصفوف حتى يكون في وسط الميدان، وينادي قائد القوم ليتفق معه على أن يستريح الجيشان طيلة هذا اليوم، ثم لتكون مبارزة بين باريس، على أن يمثل الطرواديين، ومنلوس على أن يمثل الهيلانيين، فإذا فاز أحدهما بصاحبه، وأظهرته الآلهة عليه، عاد إلى قومه فرحًا مسرورًا.

وطرب منلوس لِمَا اقترحه غريمه الذي كان كالساعي إلى حتفه بظلفه. وصمتت الأفواه، وحملقت الأنظار، وتلمَّس كل جندي في الجيشين قلبه من شدة الخفق وثورة الوجيب، وبرز منلوس وبرز إليه پاريس، ومرَّت الأحداث سراعًا أمام عيني ملك أسبارطة، فذكر خُطَّاب هيلين وصدود هيلين، وذكر يوم الحيرة الكبرى، يوم رضيته من دون خُطَّابها الكثيرين بعلًا كريمًا لها، وذكر يوم احتفاله بپاريس واحتفال أسبارطة كلها به كضيف عظيم لملكها، وذكر أن هذا الفارس الذي تزلزل من تحته الأرض، إن هو إلا الغادر الختَّال الذي اعتدى كأحقر الجبناء على عرضه، ولطَّخ بوحل الفضيحة شرفه.. ثم ذكر كيف فرَّت زوجته معه تحت جنح الليل.. ذليلة للذتها، أسيرة هواها.. فثارت في قلبه زوبعة من الجنون، وتفجَّر في رأسه بركان من الغضب، واتَّقدت في عينيه جحيم بأكملها من النقمة، واندفق الدم يغلي في ساعديه، وانقضّ على خصمه فأوشك أن يحطمه.. لولا أن هاله هذا الطيف الغريب الذي كان يحمي پاريس منه، واقفًا إلى جانبه.. وخلفه.. وأمامه.. ومن فوقه ومن كل جهة جاءه منلوس منها، يذود عنه، ويتلقَّى الضربات الأسبرطية فوق درعه المسرودة، السابغة ذات الحلقات.

ماذا، إنها هي، هي بعينها، هي ڤينوس لقد أسرعت إلى پاريس تحميه من ذلك الرَّوْع الأكبر، فلما أوشك أن يستسلم عَزَّ عليها ألا تنقذ حياته، وهو الذي حكم لها بالتفاحة..

لقد رفعته إلى علٍ!

طفق منلوس يبحث عنه ههنا وههنا.. لكنه لم يعثر له على أثر!

لقد ذهبت به ربّة الهوى، إلى مخدع الهوى.

إلى هيلين.

ولكن ويل له من هيلين. لقد كانت تطلع على الساحة فترى مبارزة البطلين، فهالها أن يبطش ملك أسبارطة بپاريس، لولا هذه السحابة البيضاء التي كانت تحميه دائمًا من خصمه وتقيه..

وعذلته هيلين على هذا الفرار المشين، فكان عذلها له أشد عليه من ضربات منلوس.

معركة بين الآلهة

وقفت ندمانة الآلهة «هيب» اللعوب الهيفاء، تسقي أربابها خمرًا.

وكان الأولمپ يزخر بسادته.

فهذا زيوس العظيم مستويًا على عرشه الضخم المرصَّع بالجواهر والياقوت.

وهذا أپوللو سيد الشمس، وصاحب القوس، يوقِّع على قيثارته أشجى ألحانه.

وهذا ڤلكان، الحدَّاد القذر، قد بدا في حلة جديدة ذات ألوان صارخة.

وذاك مارس الجبَّار، إله الحرب، يلاعب الأسنَّة، ويداعب الصَّعْدة المرنة.

وذلك هرمز، قائد الأرواح إلى هيدز، ورسول الآلهة إلى سكان الأرض، يرسل في الملأ نظراته الساخرة، ونكاته المنكرة.

وهذه حيرا، مليكة الأولمپ، تودّ لو تضرم النار في قصور مولاها، إن لم يقضِ بانتصار الإغريق!

وهذه مينرڤا.. الحكيمة الراشدة.. تصمت صمتًا أبلغ من وحي

الأولمپ كله، ترى هل تستطيع تسخير هذه العصبة من الأرباب لسحق پاريس وقومه وأحلافه.

ثم طائفة كبيرة من الآلهة وأنصاف الآلهة.

هيب اللعوب تسقي الجميع خمرًا!

وللخمر الأولمپية، كما لخمر هذه الأرض، نشوة وسورة، ولها على رؤوس أربابها صولة وسلطان، وهي مثلها تروي حتى تبلغ المُشاش[1]، وتتغلغل حتى تمتزج بالدم!

هيب تروح وتجيء، حلوة بسَّامة.. كأنها مُدامة!

ورُويَ الجميع إلا حيرا!

وانتشى الجميع إلا مينرڤا!

فقد كانتا لا تفكران إلا في الساحة الحمراء، وما يقع فيها من بلاء!

أليس قد ذهب الهيلانيون ينتقمون لكبريائهما من پاريس ومن قوم پاريس؟

ألم تنصح عروس الماء، أيونونيه، لپاريس ألا يصيخ لڤينوس، وأن يعطي التفاحة لمينرڤا؟

ألم تحذِّره من التعرُّض لنقمة الربّتين العظيمتين؟

غير أنه أبى!

وآثر الجمال والحب، ثم الشقاء والحرب، مع ڤينوس، على القوة والصولة، والملك الكبير، والحكمة والنورانية، مع حيرا ومينرڤا.

وبذلك جلب على نفسه وقومه وبال هذه الحرب ونكالها.

---

(1) غضروف رأس العظم.

وليس اليوم أروح إلى قلب حيرا، وأرضى إلي نفس مينرڤا، من أن تنصرا جحافل الهيلانيين، وتثبّتا في ساحة الحرب أقدامهم.

ولكن أخيل منفرد في معسكره وهو مفؤود محزون.

وقد وعدته أمه بأخذ الثأر له، وكلّمت في ذلك زيوس سيد الأولمپ، ولم تزل به تسلط عليه ذكريات غرامها القديم حتى زلزلت أركانه، وسلبت جنانه، وانتزعت منه وعدًا قاسيًا بأن ينتقم من أجاممنون وجنوده لأخيلها العزيز.

تانكم حيرا ومينرڤا.

وذاكم زيوس كبير أرباب الأولمپ.

أما أپوللو، فهو لا ينسى ما فضحه أجاممنون به في بنت كاهنه، وهو ما يفتأ يتربَّص بالقوم، ويدبِّر لهم سوء المنقلب.

وأما ڤينوس؟

فتلك أبرّ بپاريس وبقوم پاريس، وهي أبدًا ستحمي پاريس وجند پاريس! لأنها ستذكر له أبدًا أنه نَصَرها على حيرا.. كما نَصَرها على مينرڤا.

وكذلك أوقدت هذه الحرب العداوة والبغضاء بين الآلهة، وأضرمت النيران في قصور الأولمپ.

فللآلهة في جبل «آيدا» معسكران، كما لبني الموتى حول طروادة معسكران.

**

أوشك منلوس أن يفتك بپاريس، لولا أن أنقذته ڤينوس ولقيته هيلين عاذلة مغضبة، ولكنه نسي نفسه وهو معها وطلب منها السَّمَاح أن تدع حديث الحرب إلى حديث الحب.. «على أن أعود فأثأر لنفسي

من منلوس العنيد، الذي لولا حماية مينرڤا وحيرا له لبطشت به وجعلته خبرًا في الذاهبين..».

وكان العهد بين پريام الملك، وأجاممنون قائد الهيلانيين، أن يلقيٍ المغلوب السلم[1]، فلمَّا فرَّ پاريس، تقدَّم أجاممنون، وطلب أن يسلِّم الطرواديون هيلين الأرجيفية، وأن يقدِّموا دروع پاريس، وسيفه، وفرسه، وجميع عدته الحربية، أثرًا خالدًا يحتفظ به الإغريق ويتوارثونه رمزًا لمجدهم الحربي، وتذكارًا لفوزهم وغلبهم.

بيد أن الطرواديين رفضوا هذا: «لأن أحدًا من المتبارزين لم يظفر بالآخر، ولأن قطرة من الدم لم تصبغ أديم الأرض فتكون شاهد النصر».

وكانت بين الفريقين مهادنة.

فخشيت حيرا ومينرڤا أن يطول أمدها، واتفقتا على أن تذهب مينرڤا هذه المرة أيضا فتضع حدًا لهذا السلام الذي يشمل الساحة، وأن تثير الحرب من جديد.

وذهبت مينرڤا فاندسّت بين صفوف الطرواديين، وسحرت نفسها فبدت في عدة «لاودوكوس» البطل الطروادي وهيئته، ثم وترت قوسها وأرسلت سهمًا مراشًا نفذ في جسم منلوس، إذا هو يبحث عبثًا عن پاريس.

وتجدَّدت الحرب بين الفريقين بسبب هذا السهم، فكانت حربًا زَبُونًا[2] طاشت من هولها الأحلام، وبلغت القلوب الحناجر، وزاغت الأبصار فما ترى إلا حميما.

---

(1) أي أن الغالب لن ينكِّل بفريق المغلوب ويقتلهم، بل سيتركهم في سلام.

(2) حرب زبون: صادمة، تصدم الناس.

وعزَّ على ڤينوس أن ينهزم جند طروادة، وهم أولياؤها وصنائعها فذكرت أن لها في أرباب الأولمپ إلهًا هيمانًا يترضَّاها ويلتمَّس كلمة منها تشفي قلبه الخفق، وتداوي هواه الثائر، وأعصابه التي مزَّقها الحب، وأذابها حَرّ الهوى، فانطلقت إليه تغريه بكل ابتسامة تليِّن الحديد، وكل نظرة ساجية تفجِّر الماء من الصخر، أن يقوم من فوره فينفخ من روحه في قلوب الطرواديين، ويؤيِّد بنصره صفوفهم.

ذلك هو مارس، مسعِّر الحروب ووري لظاها.

وطرب الطرواديون لوجود ربّ القتال في صفوفهم يناصب أعداءهم الحرب فيجعلها ضرامًا، ويصلصل دروعه فيوقع في قلوبهم الرعب، ويثير في نفوسهم الهلع، ويروعهم ترويعًا..

وكانت إلى جانبه ڤينوس تنفث فيه سحرها. فكان لا يلقى فارسًا إلا طعنة فيكبه على وجهه، ثم يشكّه فيجفوه[1] من الأرض، كأنما يتخذ منه هزوًا وسُخرا.

وهرع أپوللو فأمطر الهيلانيين وابلًا من سهامه التي ما مسَّت أحدًا إلا أردته، وما قصدت صدرًا إلا شقَّته.

وساء منقلب الهيلانيين.

وعزَّ على حيرا ومينرڤا أن ينهزم أصحابهما، وأن يصلوها من مارس وأپوللو نارًا حامية، وهزيمة منكرة، ثم لا يكون بحسبهم ضربات مارس القوية، وسهام أپوللو المفوقة، بل تطحنهم هذه الصواعق الجهنمية التي سلطها عليهم كبير الآلهة زيوس، سيد الأولمپ، الذي أصبح كل همه أن ينتقم لأخيل ابن الجميلة ذيتيس من هؤلاء الإغريق ناكري الجميل.

---

(1) جفاه من الأرض، أي رفعه.

وعبست حيرا عبوسًا ثقيلًا، ودعت إليها مينرڤا، وجلستا تفكران وبدا لهما أن يذهبا إلى الأولمپ فيستدعيا ربّ البحار العظيم، نپتون، فيضع حدًا لهذه القسوة التي يبديها مارس وزميله أپوللو.

ولكن كيف السبيل إلى غلٍّ يد زيوس، وردٍّ صواعقه التي تنهمر على الإغريق من عل، فلا تبقي عليهم ولا تذر؟

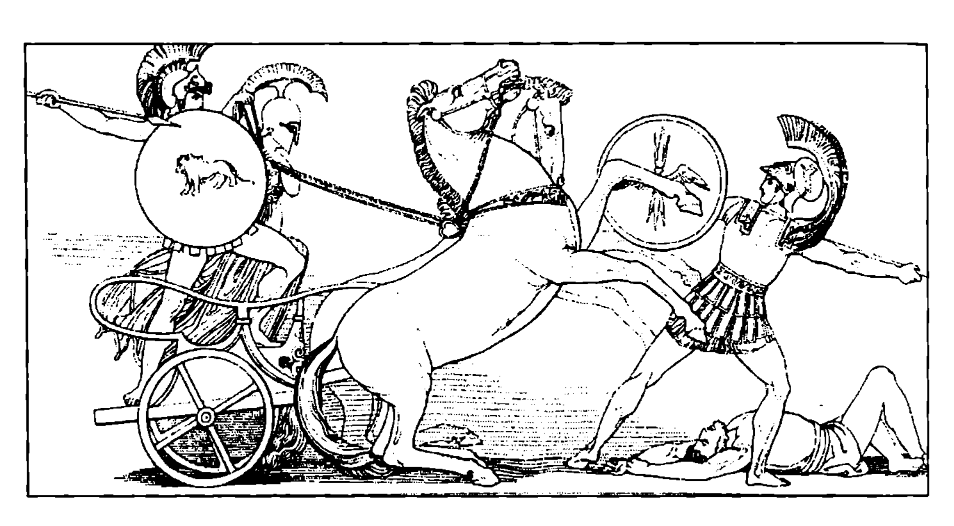
آه، لا سبيل إلى ذلك إلا بمِنطقة ڤينوس السحرية! ستوس! تلك المِنطقة العجيبة التي تغوي كل من نظر إليها، وتشعل في قلبه لظىً من الهوى وضرامًا من الحب.

لا بأس إذن ممن ممالقة ڤينوس حتى تنزل عن مِنطقتها أيامًا لمليكة الأولمپ وكبيرة رباته، ثم لتذهب مليكة الأولمپ بمِنطقة ڤينوس لتعبث كثيرًا ـ أو قليلًا ـ بقلب زيوس، الذي ما يفتأ يرسل صواعقه على الإغريق من جبل «آيدا»، وليس من شك في أنه سيصبو حين يرى منطقة ڤينوس تزيِّن خصر حيرا وتبرز مفاتن صدرها، فإذا عصفت به فورة قلبه، وحاول نظرة واحدة من آثر زوجاته إليه، فلا بأس من أن تمنحه إياها.. ولكن.. لتنتهز سكرته العميقة وتسلِّط عليه إله النوم الجبَّار ـ الذي هو دائمًا في خدمتها أينما سارت ـ فيغرقه في سبات عميق، ويظل به يداعب أجفانه، ويغسل أحلامه، حتى يكون نپتون قد انكشف لمارس وصاحبه، وأجنادهما، فيقذف الرعب في قلوبهم، ويزلزل أركانهم، ويوهي عزائمهم، ويختلط حابلهم بنابلهم فيولّوا مدبرين لا يلوي أحد على أحد.

وقد أفلحت خطة حيرا.

فهذا مارس لا يكاد يلمح نپتون حتى يذكر هذه الأيام السود التي

صبَّ عليه فيها ربُّ البحار عذابه[1]، فيخفق قلبه وترتعد فرائصه.. ويكبو زنده، وتذهب ريحه وتتحطم شوكته.. ثم يقذفه نپتون بسهم، وقلَّ أن تطيش سهام نپتون، فيصرخ إله الكريهة صرخة كريهة، وينفتل من الحلبة الحمراء موليًا عقبه، ساخطًا على ڤينوس، وما يجرُّ عليه غرام ڤينوس.



مارس يقاتل اليونانيين. (فلاكسمان).

وولّى في أثره أتباعه الطغاة، آلهة الشرور، إيريس ربّة الشغب، وفوبوس ربّ الرعب، وميتوس ربّ الخوف، وديميوس ربّ الفزع، وباللو ربّ الهلع.. عصبة الإجرام وشرذمة الآثام، والطغمة الباغية من أوشاب الأرباب.

---

(1) إشارة إلى الأسطورة القديمة التي وقع فيها مارس أسيراً للماردين الجبارين بتدبير نپتون.

وأفاق الإغريق مما حل بهم من روع.

ونظروا فرأوا مارس ومَلَأه مولين الأدبار، والدم يتدفَّق من جراحهم جميعا، فأفرخ روعهم، وأمن سربهم، ثم لمُّوا شعثهم وهجموا على أعدائهم هجمة رجل واحد، فأدالوا لأنفسهم، وثأروا لكبريائهم، وانصرفوا يتفقدون جرحاهم، ويحرقون جثث قتلاهم الشهداء.

ياللهول!

لقد قُتل أمبريوس البطل، قتله تيوسيز، غير راحم شبابه، ولا مبقٍ على عوده الفينان!

وامفيماخوس! لقد صرعه هكتور بن پريام، غير راثٍ لأمه العجوز الهرمة. ولا آبهٍ للباكين حوله والمعولين.

وديوميد! زين شباب هيلاس، وآثر فتيانها إلى قلوب الآلهة! لقد جرحه پاريس بسهم أوشك أن يكون قاتلًا! لولا أن أدركه جنوده فأسعفوه وضمَّدوا جرحه وإلى المعسكر حملوه!

وأجاممنون! لقد برز في المعمعة، ودلَّ على الفروسية التي بهرت الطرواديين، بيد أنه أصيب بسهم نفذ فيه، فارتد على عقبه يصرخ ويتلوى!

وأوليسيز! أوليسيز العظيم! لقد أرسل إليه سوكوس، أمهر رماة طروادة، بسهم مفوق، فجعله ينتفض كما ينتفض المحموم ويخرّ إلى الأرض فيتلوى كمن لدغته أفعى، ولولا أن أدركه أجاكس ومنلوس فأسعفاه لكن من الغاربين!

وأجاكس كذلك! لقد أتاه سهم كاد يذهب به لولا بقية من حياة!

ومخاون! لقد روَّعه پاريس هو الآخر فشكا وبكى!

أرأيت!

لقد نال الطرواديون وأحلافهم من جموع الهيلانيين ولو لا أن أغاث هؤلاء نبتون القاهر، لكانت ملحمة فاصلة في هذه الحرب الشعواء!

وكأن السماء قد أيقظت ضمائر اليونانيين، وبرهنت لهم على أنهم ما لم يخض معهم المعركة أخيل، فلا نصر لهم ولا غَلَبة ولا محيص من هذه الهزائم المتتالية، والجروح التي لم تكن قصاصًا لولا أن أدركهم نبتون!

عرف اليونانيون هذا، وآمنوا بعد الفزع الأكبر أن لو كان أخيل بينهم يوم من هذه الكريهة لما حفلوا بمارس وأتباعه، ولأظفرتهم آلهتهم بأعدائهم، ومارس ومَلَأَه، وأبوللو وجنوده جميعًا.

وانطلق نسطور فعرض على أجاممنون مصالحة أخيل وإرضاءه، وبعد لأيٍ رضي القائد العام أن ينطلق نسطور وأوليسيز وأجاكس وفونيكس إلى معسكر أخيل مندوبين عن القائد، ليعرضوا عليه صلحًا شريفًا، وموثقًا كريمًا يرضاه، الطرفان، ولكن أخيل يثور لكرامته، ويأبى إلا.. بريسيز.. ثم لا يشترك في حرب ضد الطرواديين.

ويلح أوليسيز على صديقه القديم.. ولكن صديقه القديم لا يزداد إلا شماسًا، ولا يزداد إلا أنفة.

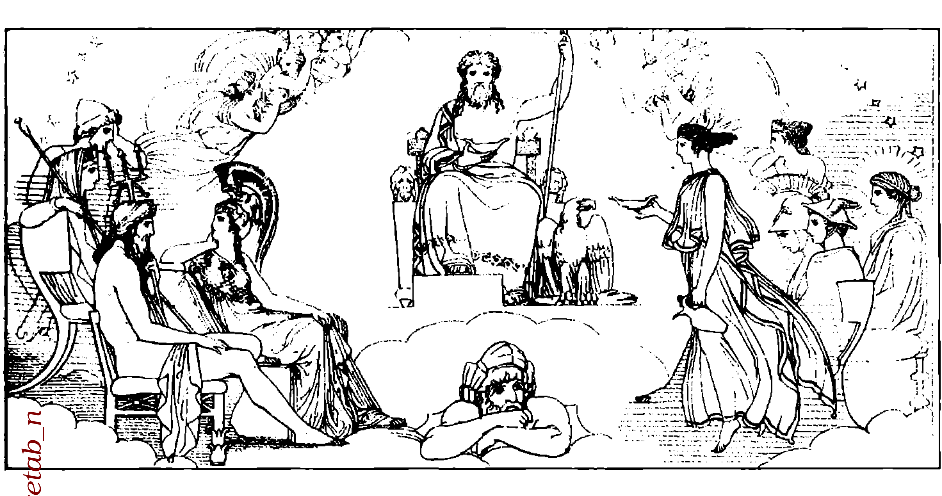
ويكون فونيكس قد نالت منه حجج أخيل، ويكون قد خلبه بيانه، وبهره حسن منطقه، وطلاقة لسانه، وعظيم شجاعته، فيؤثر البقاء معه، مخاصمًا الهيلانيين جميعًا حتى يرضى أخيل فيتركه أوليسيز وصاحباه، ويعودون إلى أجاممنون.. بخُفَّي أخيل!

**

وهكذا تتم كل هذه الأحداث الجسام..

وزيوس يغط في نومه الهادئ الناعم يومًا بأكمله.. حتى يبطل السحر، وتذهب الرقية، فيهب الإله الأكبر من سباته حيران آسفًا.. لأنه ينظر من ذروة جبل آيدا، فيرى نپتون الجَبَّار يصول في ساحة طروادة، ويجول، ويصرع الأبطال، يجندل الأقـران.. ويرى مارس العتيد، وجنوده الأقوياء، يفرون من وجه سيد البحار، لا يلوون على شيء.

وينظر أيضا إلى أخيل لا يزال منفردًا في فسطاطه، قريبًا من سفائنه والحزن يمضّه، ويوهي جلده، فيحزن الإله الأكبر وينفذ إيريس إلى نپتون لتزجره، وتأمره أن يغادر المعمعان في الحال، وإلا أرسل عليه سيد الأولمپ صواعقه، وهناك لا يكون له حولٌ ولا تكون له قوة.. ويغادر نپتون الموقعة، ولكن بعد أن دمَّر الطرواديين تدميرًا!



الآلهة في الأولمپ. (فلاكسمان).

أندروماك

استطاع نبتون أن يزلزل قلوب الطرواديين.

وحسبه أن يفر من ميدانهم مارس الجبار، وأن يفر في أثره أتباعه آلهة الروع، وڤينوس، أصل البلية التي حاقت بإليوم لينتقل النصر طفرة من جانبهم إلى جانب الهيلانيين.

وبرزت شمس اليوم التالي على الساحة الملطَّخة بآثام الإنسانية، المضرَّجة بأوزار الآلهة، المصطبغة بدماء الموتى.. لتشهد من جديد صراع الضغائن وتصاول الأحقاد، وأخذ السخائم بعضها برقاب بعض، وهذه الكتل البشرية يفني بعضها بعضًا.

واشتد الهيلانيون في طلب الطرواديين، واستبسل هؤلاء، فكانت أمواج الغزاة تتكسَّر على صخور شجاعتهم.. ولكنها لا تتلاشى.

وعظم الخطب، ومادت الأرض، وانعقد وهج الحرب، مما تثير الخيل من هبوات، واشتجرت الهيجاء، حتى لكأنها قطع من الليل، وصلصلت الدروع حتى لكأنها عواء ذئاب الجن، واستشرى الشر حتى لا تُرى إلا منايا وآجالا، في قتال ونزال. وأحسَّ جنود طروادة بلغوب

الوغى[1]، وشعروا بالرجفة تأخذهم من كل جانب، وكان هكتور العظيم يخطف كالبرق بين صفوفهم يحضّهم ويحرِّضهم، بيد أن الشجاعة لا تغني في موقف الموت شيئًا، فقد شرعت فيالقهم تتقهقر ببطء نحو الأسوار، حتى إذا بلغوها لبثوا ثمّة يَصْلون أعداءهم وابلًا من السهام، والرماة يساعدونهم من فوق الأبراج.

لكن الهيلانيين ما تفتر لهم هِمّة، ولا يصل إلى حماسهم كلال، فقد صمدوا في مواقفهم، وثبتوا وصابروا، وأبدوا من ضروب البسالة والبأس ما حيَّر ألباب أعدائهم، وجعلهم إلبًا[2] عليهم واحدا!

وفي عنفوان المعمعة لقي هيلانوس بن بريام الملك، أخاه المغوار هكتور يقصف بين الصفوف ويرعد، ويرغي بين المحاربين الصناديد ويزبد، وكان هيلانوس خير كاشفي الغيب، وعرّافي الطرواديين، وكان حبيبًا إلى الآلهة، جميل الطلعة، بسَّام الثغر، حتى في الحرب، وكان إلى ذلك حازمًا موفور الحزم، صارمًا شديد الصرامة يقهر الغير على احترامه ولو كانوا يكبرونه سنًا، فلما رأى هكتور يعبس تلك العبوسة القمطرية لما يحيق بجنوده من أذى، ذهب إليه قدمًا وقال:

«أي أخي! أي هكتور العظيم!».

وما كاد هكتور يسمع النداء الحبيب حتى هرع إلى أخيه يلتمَّس في صدره الحنون بردًا لحَرّ ذلك الجحيم التي لفحت شجعان طرواده بزفيرها، وصاح به:

ـ «هيلانوس! أنت هنا؟ ادع لنا آلهتك يا أيها العزيز! لقد عزَّ النصر

---

(1) تعب وإرهاق القتال.

(2) الإلب: القوم يجتمعون على عداوة إنسان.

بعد إذ حسبناه في أيدينا أمس.. ادع لنا آلهتك فقد عيينا بهؤلاء الهيلانيين الأبالسة!».

- «هكتور! أصغ إليّ! لن تظفروا بهؤلاء ما دامت مينرفا معهم تؤيدهم، وتشد أزرهَم، وتردّ عنهم سهامكم، فتجعلها في نحوركم!.

هكتور! هلم إلى القصر يا أخي، فألق والدتك المُرزَّأة ثمَّة، فتوسَّل إليها أن تذهب من فورها، مرتدية أبهى ملابسها إلى هيكل مينرفا، فلتبكِ عند قدمي تمثالها، ولتقدم الضحايا، ولتقرِّب القرابين، ولتحرق البخور المقدس، الممزوج بالأفاويه والصّندل وطيوب الهند، ولتنذر أن تذبح اثنتى عشرة بقرة من أبقار إليوم، تتصدَّق بلحومها، وتهب الكهنة شحومها، إذا وعدت ربّة الحكمة أن ترفع مقتها وغضبها عن طروادة!».

وألحَّ هيلانوس على هكتور، فألقى نظرة على المعركة، وكاد قلبه ينفطر على هذه الأشبال التي تسقط هنا وهناك، وفي كل صوب وحدب، لاقية حتوفها في سبيل إليوم، وذرف عبرات تذوب حنانًا ورحمة، ثم لوى عنان حصانه إلى البوابة الكبرى، فدخلها وقلبه يتصدَّع من الهَمّ ووقف مرَّة أخرى يلقي على الساحة المضطربة نظرة قائد لجنوده، رؤوف رحيم.

وانطلق إلى القصر الملكي المنيف ذي الشرفات.

وهناك.. عند بوابة القصر، وتحت السنديانة الكبرى الوارفة، اجتمع حول هكتور نسوة كثيرات، هن أزواج المحاربين البواسل وأخواتهم وبناتهم، وأمهاتهم كذلك، ازدحمن حوله يسائلن عن رجالهن، هل أودى بهم حتف القضاء، وأرووا ثرى الوطن العزيز من دمائهم، أو لا يزالون يناضلون الأعداء، ويردُّون عن طروادة حمى البلاء؟

ولكن هكتور يوشك ألا يسمع لهن لأنه ينطلق من فوره إلى داخل القصر.. وها هو ذا يهرع في أبّهته العظيمة، مارًا بتلك الغرف الخمسين التي تضم أزواج أبيه وأطفالهن، ثم بالبهو الأكبر ذي العماد الشامخة، ثم بالجواسق المذهَّبة ذوات الدمى والتماثيل، حتى يكون عند ردهة الملكة، فتلمحه أخته الجميلة ذات المفاتن، لاووديس فتجري إليه، وتلف ذراعيها حول ساقيه، فيتخلَّص منها برفق.. وتكون والدته قد أحسَّت وجوده فتهرع إليه، وتهتف به:

«هكتور! بني ماذا جاء بك؟ لم تركت الساحة يا ولدي! أهكذا تدع أبناء طروادة للموت الأحمر وتجيء إلى الحرم تنشد الراحة يا هكتور؟ لا.. لا.. لا أحسبك تتخلّى عن جنودك لحظة، ولكن هلم إليَّ! إليك هذه الكأس من أشهر ما عصر باخوس! ارْوِ ظمأك منها وعد إلى الميدان».

بيد أن هكتور يتجهَّم تجهيمة مغضبة، ويهتف بها:

«أمَّاه! حاشا يا أمَّاه! حاشاي يا أعزَّ الأمهات! لن تُهرق الخمر باسمي، وتلك دماء إخواني تُهرق باسم الوطن وتُراق! حاشاي يا أمَّاه أن أتذوَّق قطرة واحدة من تلك الكأس وهناك، في سعير المعمعة، يجرع أبناء طروادة الأعزاء كؤوس المنايا وذوب الحمام! أريقيها على مذبح مينرڤا إذن! هلمي.. ولتكن معكِ أزواج القادة والمحاربين جميعًا، فالبسن أبهى ثيابكن الحريرية المفتَّلة وحِبَرَكن المُفوَّفة[1] وانطلقن إلى هيكل مينرڤا، فصلّين لها، وأحرقن البخور الغالي من الأفاويه والصندل وأفخر طيوب الهند، ثم أركعن عند قدَمَيْ تمثالها المعبود.

وابكين بكاءً طويلًا.. وسبِّحن باسم آلهة الحكمة، واغسلن الأرض

(1) مفوَّف: رقيق.

عندها بدموعكن، ثم توسَّلن إليها أن ترفع عن الطرواديين مقتها وغضبها، وأنذرن أن تقرِّبن، لو فعلتِ، اثنتى عشرة بقرة من خيرة أبقار إليوم، وتتصدقن على الفقراء وأبناء السبيل والمساكين بلحومها، وعلى كهنة الهيكل بشحومها.

أمَّاه! إن لم تفعلن كما أخبرتك فلا نصر لنا، بل لنا الهوان والهزيمة المؤكدة.. وعليك وعلى نساء طروادة السلام من أربابها الكرماء!».

وصمت هكتور! واربدّ وجه هكيوبا!

وانطلق البطل إلى قصر أخيه.. إلى قصر باريس، فوجده يلهو ويلعب، ولا يأبه بهذه الأرواح الغالية التي تصطرع في الميدان، فثار ثائره، وصبّ عليه شواظ غضبه.. «أنت! أنت باريس بن بريام! عجبًا وزيوس الأكبر! أنت هنا تلهو وتلعب. وتدع ضحاياك تنافح عن آثامك تحت أسوار إليوم. وتذوق الردى بجريرتك؟!».

وأطلق العنان للخيل، فذهبت عربته الحربية المطهَّمة تطوي الطريق إلى الميدان.

أما أمه فقد جمعت نساء طروادة وجماعة المتوسِّلات[1].

وذهبن جميعًا إلى هيكل مينرڤا.. وصلَّيْنَ وبَكَيْنَ.. وغَسَلن بدموعهنّ قدمَيْ التمثال المعبود.. ونذرْنَ لآلهة الحكمة ما أمر به هكتور أن ينذر.

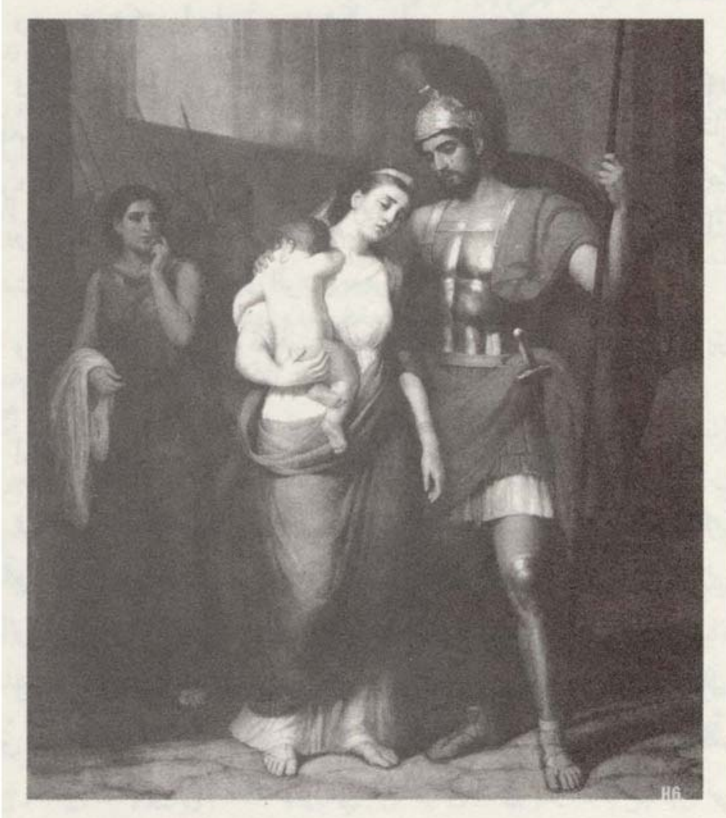
ولكن!

لقد أصمَّت مينرڤا أذنيها! ولم تصغ لهذه التوسُّلات المكلومة. ولم ترقّ لتلك العبرات المسفوحة، ولم تطَمع أبدًا في ضحايا وقرابين تكفِّر عن خطيئات باريس، ذلك الراعي المفتون الذي آثر الجمال الفاني

---

(1) suppliants وقد نظم فيهن كل من اسخيلوس ويوربيديز إحدى مسرحياتهما الخالدة.

على الحكمة الخالدة، فقضى بالتفاحة لڤينوس، ربّة الحسن والحب تلك الحية الرقطاء التي لدغت طروادة بأسرها فهي إلى اليوم تصرخ من سمّها الزعاف يسري في أرواح أبنائها، فيُنكّل بهم ـ ويكاد يُقضى عليهم.. ولا ذنب لهم ولا جريرة، إلا لبانات الهوى الآثم، والغرام الشائن والحب المحرَّم المهين!



أندروماك تودع هيكتور. سيرجي بيتروفيتش بوستنيكوف
(1880-1826)

وأحسَّ هكتور وهو منطلق إلى الميدان كأن منيته تنوشه من مكان بعيد، وأحسَّ في صميمه بشوق حار إلى لقاء أندروماك زوجته العزيزة عليه، الأثيرة إلى قلبه، شوقًا يشبه وداع الحياة في حرارته وأسره، وشوقًا يشبه الاستمتاعة الأخيرة من مباهج هذه الدنيا.. في حزنه الصامت ومعناه العميق!

وأحسَّ كذلك بلوعة إلى التزوّد بنظرات من سكمندريوس طفله الحبيب، هذه الهبة السماوية التي توشك أن تصبح نقمة من نقمات اليتم، إذا كان صحيحًا لهذا الهاجس الذي وَقَرَ في قلب هكتور، والذي صوَّر له أنه مقتول لا محالة..

وألحَّ الشوق على قلب البطل، فثنى عنان الخيل إلى الطريق المؤدية.

وذهب من توه إلى مخدع أندورماك! ولكنه لم يجدها هناك، فبحث عنها في الغرف والردهات والأبهاء، ولكنه عبثًا حاول الوقوف لها على أثر!

وسأل عنها حشم القصر، وكان صدره يعلو ويهبط حين كنَّ يتحدثن إليه عن أندروماك العزيزة وما تلقاه دائمًا من القلق، وما تتفزَّع به روحها من الهواجس ما دام زوجها يخوض غمار هذه الحرب!

فهل هي من الأرض الثقيلة المخضبة بالدماء هذه العواصف المشتركة، أو هي من السماء الصافية التي لا يرتفع إليها غِلّ، ولا يُرى فيها زند عداء ولا تشبّ فيها سخيمة؟

وأخبرنه أنها يمَّمت شطر برج طروادة الرفيع، تشهد منه ما يحدث في المعركة من أهوال، وذلك عندما ترامت الأخبار أن الإغريق قد ضيَّقوا الحصار على جنود طروادة، وأنهم خَضَدوا شوكتهم، وفلجوا عليهم ونخبوا قلوبهم، وضعضعوا أركانهم... فريعت أندروماك وذهبت من

فورها إلى البرج لتطمئن على رجلها وذُخر حياتها، وسَنَدها في هذه الحياة السوداء..

ونهد هكتور إلى البرج، فلقيته أندروماك بعينين مغروقتين ووجه شاحب وجبين مغضَّن، وصدر ينوء بما فيه من الهموم.

وكانت تقف ابنة ايتيون، الجميلة البارعة، وعلى ذراعها المرمري الفاتن طفلها الرضيع الشاحب، الذي حلَّ بهذه الدنيا الهازلة ليكون عَبرة سخينة من عبرات الحزن القهر، ثم ليكون مأساة وحدة حين تضع هذه الحرب الضروس أوزارها، وحين يشب فلا يرى حوله إلا الباكين والمحزونين، وإلا هذه المدينة الكاسفة التي تعصف بها آلة الحرب من غير ما شفقة ولا مرحمة!

وتعلَّقت أندروماك بذراعي زوجها، وشرعت تنظر في عينيه المبللتين، وتقول له:

«هكتور! رجلي وذخري من هذه الحياة! إلى أين أيها الحبيب؟ أما لهذه الحرب الطاحنة من نهاية؟ أهكذا قضت الآلِهة على طروادة الخالدة بالحزن الأبدي والأسى السقيم؟ هكتور ألا تفكِّر في سلم يرفرف على ربوع الوطن، وُيبْقي على هذا الشباب الذي تعصف به ريح الحرب؟

رجلي..

إن آلافًا من الهواجس السوداء تضغط على قلبي تحدثه بالعقبى الوخيمة، والأيام البالية القريبة.

هكتور..

هذه أشباح القتلى الأعزاء من بني وطني تحدثني عن مأساة أبي، واخوتي السبعة، والمئين من أهلي، قتلهم أخيل الجبار بيده السفاحة، وجعل من جثثهم كومة عالية تقص على القرون تاريخنا الحزين!

لقد هرعوا إلى هذه الساحة من قبليقية، ملبين نداء الملك، الملك التاعس، أبي، الذي سعى إلى طروادة لينام أبد الدهر في ظل أسوارها نومة لا قريرة ولا هانئة.

هكتور!

لقد نام أعز الآباء في تراب ساحتكم دفاعًا عن مدينتكم، ولكن المأساة لم تتم بقتله وقتل أبنائه والمئين الأعزاء من بني جلدته، ولكن المأساة أبت ألا أن تكون أمي.. آه يا أمي العزيزة. أن تكون هذه الأم صفحة من صفحاتها التي تفجِّر الدم في القلب، وتضرم النار في الحشا.

لقد ساقها أخيل يا هكتور في جملة السبي، ولولا القود الكبير، والفدية الغالية التي بذلناها من أجلها، لكانت إلى اليوم، لو مُد في أجلها، إحدى خادمات الأعداء الذليلات، اللاتي لا تقوم لهن في هذا الأسار عزة، ولا يقدر لهن أحد شأنًا، لكنها سقطت هناك، في هامش هذه الساحة الظالمة، ضحية سهم مراش من قوس الربّة ديانا، فكأنَّما رفضت أن ترفع كأس هذه الحياة إلى فمها التقيّ الطاهر. بعد إذ لوَّثته أحداث الدهر بذل الأسار!

هكتور!

كل هذه النوازل هدَّت نفسي، وحطَّمت قلبي، وأخمدت مشاعري، وجعلتني يائسة تعيسة موهونة لا حول لي.. لولا أنك إلى جانبي تأسو جراحي وتؤنس وحشتي، وتشيع نورًا متلألئا في ظلمات حياتي! فأنت لي اليوم أب نعم الأب، وأنت لي في وحدتي بقلبك الحنون أمٌّ نِعْمَ الأم، وأنت لي أخ، بل أنت لي كل شيء في هذه الدنيا.

هكتور!

ابقَ إلى جانبي فأنا لا أُستغني عنك بأبٍ أو أمٍّ أو أخ، أو بمملكة يزين

مفرقي تاجها المشرق، ويشد يميني صولجانها الرنان!

ابقَ إلى جانبي وارعَ هذا الطفل، ولا تسلمه وتسلمني لليتم والشقاء.

هكتور!

إن المستقبل يعبس من اليوم لولدك سكمندريوس، فَرُدّه عنه، وادفع عاديات الزمان من الآن عن فلذة كبدك، وحَبّة قلبك، واستشعر نحوه حنان الأب الرحيم، ولوعة الأم المفؤودة!»

وخنقتها عبرة حجبت عن ناظريها نور الحياة، وحبس منطقها كمد ممض، وحزن أليم، ووقف هكتور مبهوتًا لا يحير، ينظر إليها مرة وإلى ولده مَرّة أخرى، ثم يلقي على طروادة نظرات.

واستيقظ بطل إليوم من غفوته الصاخبة، وانطلق لسانه من عقاله يقول: «أندروماك! أيتها الحبيب! اسمعى إليَّ.

لا تخالي يا أعز الناس أن قلبي قد تحجَّر فلم يخفق لكل ما ذكرته من قبل! لقد خفق كثيرًا بمثل هذه الهواجس! بل هو قد ذكرك، وقد تصوَّر أن هكتور مقتول، وكأنك كما ذكرت عن أمك في جملة السبي، وأنك تؤوبين مع أحد القادة الهيلانيين إلى هيلاس! وأن القائد الغليظ قد ضمَّك إلى حريمه، أو بالغ في الايذاء فجعلك إحدى سراريه أو خدمه، كلما مرَّ بك أحد أشار إليك بالبنان: «مسكينة! هذه زوجة هكتور فتى طروادة، وابن ملكها المقدام، البطل الذي سفك الدماء وسعّر الهيجاء، تعمل هنا اليوم خادمة ذليلة، كسيرة القلب، مهيضة الجناح، بأمر السفلة والأخسَّاء!

لا يا أندروماك! لقد ذكرتِ ذلك جميعًا، ومن أجل هذا فأنا لهذه الحرب، وأنا لهؤلاء الأعداء! سأحاطمهم، سأدك الأرض من تحتهم! سأسقط السماء عليهم كِسفًا.. من أجلكِ! ومن أجلكِ يا أندروماك! لا.

لا.. بل من أجلك طروادة! يا وطني.. يا بلادي..»

وسكت فتى طروادة قليلًا، ثم ذكر المعركة وما يدور فيها، فتقدَّم إلى زوجه فطبع على جبينها قبلة كلها هموم: ومد يده يريد أن يأخذ سكمندريوس فيداعبه أو يودعه، ولكن الطفل صرخ مروعًا من هذه الخوذة النحاسية المذهَّبة التي تحمي مفرق أبيه وابتسم والداه برغم حزنهما، ورفع هكتور الخوذة وألقاها على الأرض المعشوشبة، وتناول الطفل فأرقصه قليلًا حتى انفرجت شفتاه عن ضحكة عالية. فلثمه كما تلثم العاصفة فننًا وارفًا فتلقحه، ودفع به إلى حضن أمه.

وانطلق يطوي الطريق إلى المعمعة!

بتروكلوس

إن يكن قد أصاب الطرواديين قرح، فقد أصاب الهيلانيين قرحٌ مثله.

ذلك أنه ما كاد نپتون يغادر حومة الوغى، صادعًا بأمر الإله الأكبر، حتى أفاق الطرواديون وأحلافهم، كما أفاق الهيلانيون من قبل حين غادر الحومة مارس وزبانيته.

أفاق الطرواديون إذن، وصحا زيوس من رقية حيرا، فأقسم إلا أن تدور الدائرة على جنودها من شانئي أخيل، وإلا أن يحيق بهم مكر هذا السحر الذي ملأ جفنيه، وأغلق سمعيه، وأطلق أيديهم في أبناء طروادة يضربون منهم كل عنق كريم وكل بنان!

وما هي إلا أن لَمَّ الطرواديون شعثهم، ورتقوا فتقهم، حتى استطاعوا أن يعيدوا الزحف، ويأخذوا أعداءهم المزهوّين بنشوة النِصر، على غرَّة منهم، ويطلع سِيد الأولمپ من ذروة جبل آيدا فيمكِّن لهم من أبناء هيلاس، ثم يسلِّط عليهم صواعقه، ويفتح عليهم السماء فتمطرهم بعذاب واقع، ليس له من دونه دافع، إلا أن يثأر لابن ذيتيس، حبيبة القلب.. ومنية النفس!

وفزع أوليسيز إلى رمحه..

وأجاممنون إلى سيفه..

وديوميد إلى صعدته..

وأجاكس إلى جرازه..

وفزع الجنود إلى أسلحتهم يشحذونها، وإلى دروعهم يلبسونها، وإلى الجياد الصافنات يمتطون صهواتها.. إلى الواقعة فيخوضون خبارها، ويثيرون غبارها.

ولكن.. بلا جدوى!

فلقد طوردوا حتى بلغوا سيف البحر، وضيق عليهم حتى نظروا إلى الهزيمة تأخذهم من هنا وهنا، ورأوا إلى هكتور كالأسد الهصور يزلزل الساحة بزئيره، ويثير في قلوب جنوده الحمية بإقدامه، وأينما توجَّه كشَّر الموت في ركابه، وقطَّرت المنية في سنان سيفه، وانقدح الشرر في حوافر خيله، وتناثر الزبد من أشداقه، فيكون سمًا في قلوب الهيلانيين.

وطرب الطرواديون لهذا النصر المفاجئ، وشاعت الخيلاء في أعطافهم حتى أبصروا فرأوا أوليسيز يغادر الميدان متأثرًا بجراحه، وأجاممنون يفرُّ بنفسه كأحقر الأجناد، وديوميد محمولًا إلى سفينته كمن يجود بروحه، وأجاكس العظيم يولي دبره غير متحرِّف لقتال.. فأوقدوا مشاعلهم، وأجَّجوا نيرانهم، واعتزموا إضرامها في أساطيل الأعداء، ليكفّوا طروادة شرورهم، وليأمنوا آخر الدهر مكرهم، وليتم نصرهم.

وهنا؟!

انتفض بتروكلوس الكبير، صديق أخيل، وأعز الناس عليه، وجذوة الحماسة المتأجِّجة في ضلوع الميرميدون!

لقد نظر بتروكلوس فرأى جموع الهيلانيين تنهزم إلى البحر فتلقي بعتادها فيه، ثم يسبح منهم من يسبح إلى الأسطول الحزين الذي بدا عليه كأنه يرثي لرجاله، ويبكي على أبطاله، ثم يغرق منهم خلق كثير، فيبتلعهم اليم.. إلى غير عود.. ونظر فرأى الطرواديين وأحلافهم وعلى رأسهم هكتور الهائل كأنه زوبعة، يأخذون أبناء هيلاس غير راحمين.. ثم نظر أخيرًا فرأى إلى حَمَلة المشاعل والنيران يزحفون إلبًا فيكونون غير بعيد من السفائن اليونانية، لو أعملوا منجنيقهم في قذفها لأصبح الأمر غير الأمر، ولأتوا على آخر قوة لبني قومه، ولباء بنو قومه بالفشل العظيم! ولعاد الميرميدون كاسفي البال يحملون إلى هيلاس أنباء مصارع إخوانهم، الذين تخلّى عنهم أخيل وجنوده وهم أشد ما يكونون حاجة إليهم، ولكن أخيل لا يرضى أن ينسى الضغينة التي بينه وبين أجاممنون حتى في هذه الساعة العصيبة، فينهض لنصرة إخوانه اليونانيين، وليدفع عنهم هذا البلاء الذي حاق بهم، وليردّ عنهم عادية هذه الكلاب التي تنوشهم وتمزّق صفوفهم..

ورأى بتروكلوس أنه لا سبيل لعودة الميرميدون إلى وطنهم بفرض نجاتهم من نيران الطرواديين، يجرّون أذيال الخيبة، ويلملمون أكفان الفشل، فثارت في قبله نخوة الجندي الباسل، واشتعلت في أضالعه نيران الغيرة من مفاخرات هكتور ومنابذاته التي ملأ بها السهل والجبل، ثم تفطّر قلبه أسى وحسرة على هذه الجموع الهيلانية التي تتدافع إلى البحر.. فكأنها تفرّ من موت إلى موت، وتنجو من حِمام إلى حِمام.. فذهب من فوره إلى أخيل، واقتحم بابه غير مستأذن، ثم قال:

«أخيل!.

فتى هيلاس وغوثها في كل روع!.

يا سليل الآلهة، المترفِّع عن الدنايا!.

أرأيت؟!.

ماذا تتحدَّث القرون إذا قيل إن الهيلانيين باؤوا بالهزيمة، فلم ينهض أخيل لنصرتهم؟ وماذا تحمل إلى هيلاس من أنباء في الغد غير أنباء السوء ووقائع تلك النهاية المحزنة؟ وكيف نلقى الأمهات المعولات على أبنائهن؟ وماذا نقول للوطن إذا طالبنا بصحيفة الحساب عن هذا اليوم الأسود الذي بدت بوادره، وأخيل العظيم لا يحرِّك ساكنًا؟ وكيف نتّقي نقمة الشعب الذي ندبنا لهذا الأمر إذا خنّا أمانته، وبدَّدنا ثقته. وحطمنا آماله؟ وأين تذهب الشهرة الطويلة التي أحسب أننا خُدعنا بها عن طروادة، والعيش فيها والأحاديث المعسولة عنها؟.

أخيل!.

بل فكِّر معي إذا تم النصر لهذه الذئاب الوالغة في دمائنا، هل يكون بحسبها أن تستأصل شأفة هذا الجيش المنهزم، وتحرق سفنه، أم تعتزم غزو هيلاس العزيزة، لتثأر لهذه السنين السود التي أذقناهم طوالها رهق الحياة وخباثة العيش!

ثم أين لوطننا قوة بعد هذه القوى المبعثرة، وأنَّى له جيش بعد هذا الجيش المُراع، ومن لنا بأسطول يعنو له الموج، وتذلّ لعزَّته البحار!.

أخيل!.

انظر إلى الميرميدون يكاد يقتلهم الغيظ على هذه البلاد التي أخمدت سورة الحرب في نفوسهم، وأطفأت جذوة البطولة في قلوبهم، انظر إليهم يكادون يقذفون بجموعهم من سفائنك لنصرة إخوانهم، وليلقوا على هكتور درسًا في النزال لا ينساه آخر الحياة!.

ما لك لا يحرّكك هذا اللَّظى يا أخيل؟ إن هذا يوم ينسى فيه أمثالك

أحقادهم، ويدفنون سخائمهم، ولا يبالون ألف متعسف أفَّاك مثل أجاممنون! إن هذا يوم كله للوطن من دون أيام الدهر جميعًا، فإذا أفلتت فرصته من أيدينا، أفلتت عزة الحياة وكرامة العيش من أيدي الهيلانيين جميعًا، ولن يُقال من سبب إلا أن أخيل العظيم قد تقاعس بجنوده عن نصره الوطن، وفي سبيل إشباع شهوة الخصومة قامر بالوطن وأبناء الوطن ومستقبل الوطن!.

إيه يا فتى هيلاس، وحامي ذمارها إذا اشتدّ بها الكرب.

مالك تصمت هكذا كأنك لا تسمع إلى ألف قرن تناديك، وتضع ثقتها فيك؟.

أنا زعيم لك يا فتى هيلاسِ، إن هذه الجحافل الطروادية سترتد على أعقابها فتكون للهيلانيين الكرّة عليهم إذا رأوا خوذتك التي تكسف بلألآتها شمس الضحى، وشاهدوا هذه الشعرات البيض التي تزين ذؤابتها!.

أخيل!.

رد على أعز الناس عليك، فالظروف أحوج من المِطْل[1]، وأقصر من هذا الصمت، والساعة مفزعة مروِّعة، وإخواننا في الوطن والآلهة يصرخون ويموتون.

أخيل.

إن كان يعز عليك أن تحنث في عزيمتك التي عَزَمت، فا إذن لي أن ألبس خوذتك، وأمتشق سيفك، وأحل في دروعك السوابغ، ثم أقود الميرميدون باسمك فأرد عادية القوم، وأجير إخواننا الهيلانيين!».

---

(1) المِطْل: التسويف والمد والمدافعة.

وكان بتروكلوس يكلِّم أخيل وكأنما كان وحي السماء يتنزّل على قلب البطل، بلاغة وحرارة وقوة إيمان وثبات يقين. ونفسًا تجيش بالحب وأقداس المنى لوطن مصاب في أبطاله، منقوص في عزائم بنيه، يتلفَّت من خلف البحار، يرى ماذا يصنع أخيل في هذا الرَّوْع، هو وجنوده الميرميدون.

وهبَّ أخيل من جلسته الخاملة، وأخذ يدَيّ بتروكلوس في كلتا يديه. وطبع على جبينه المرتجف قبلة مَهَرَ بها صَكّ التضحية في سبيل الوطن الشقي. وقال لصديقه:

«بتروكلوس! أخي! يا أعزّ جنودي عليَّ!.

أمَّا أن أذهب أنا فأرد هذه الذئاب، فلا. ولكن آذنُ لك بكل ما أردتَ من قوة وعتاد، ما دمتَ تؤثر صالح الوطن، وتحرص على حقن دماء الهيلانيين.

بتروكلوس! لا يدر بخَلَدك يا صدِيقي الكريم أننى انتويت أن أغضب غضبة لا انتهاء لها، ولكنني أُمرت أن أنتظر حكم السماء بيني وبين خصمي الذي لم يتورَّع أن يهتك أمر السماء. فيسلبني ثمرة خلعها رمحي عليَّ، وقدَّمها لي جيشٌ بأسره.. هلم يا بتروكلوس فالبس دروعي وأسبغ عليك لأْمَتي، وشرِّف خوذتي بجبينك، ولأذهب أنا فأعد لك الميرميدون، ولتبرهنوا لناكر الجميل أننا سبب مجده وخير جنده، وذخيرته كلما حَزَبَهُ كرب، أو ألَمَّ به خطب.

هلم.. هلم».

**

وانطلق أخيل فصاح بجنوده، فهرعوا إليه في سفنه الخمسين، الراسية بمعزل عن سائر الأسطول الهيلاني.. وكم كان رائعًا أن يتحرَّك

أسطول أخيل، في أحرج ساعة مرَّت بهذا الجيش المُغير، الذي وقع كلّه فريسة في قبضة الطروادين! لقد كان أجاممنون وجنوده ينظرون إلى سفن أخيل، وكأنها الخلاص من الموت الذي يلاحقه. والمنايا التي ترقص فوق هاماتهم وهيٍ مع ذاك فيما خيل لهم تزوَرُّ عنهم وتشيح عن نجدتهم، لأنهم كانوا لئاماً مع زعيمها، وأنكروا عليه ما اعترفت به السماء أنه حقه خالصًا له.

أقلع أسطول أخيل، ولكنه لم يقلع ليفرَّ من واجبه، بل أقلع نحو الشمال ليكون جنده بمأمن حين يهبطون إلى الشاطئ من كبسة الصفوف الظافرة، المشغولة باستئصال شأفة الهيلانيين.

وما هي إلا ساعة حتى رسا شمال طـروادة، وحتى أخذ سيل الميرميدون ينهمر على شاطئها الشاحب فيملؤه، وكأنهم كسف من العذاب أرسله نپتون ربّ البحار، من أعماق اليم ليقذف بها في قلوب الطرواديين!

وطفق أخيل يجيشهم، فجعل منهم خمسة جحافل كقطع الليل البهيم، فكان على رأس الجحفل الأول البطل الحلاحل، والقائد المناضل، منسيتوس بن سبرخيوس، ابن السماء وصاحب العزة القعساء[1].. وعقد لواء الجحفل الثاني لابن هرمز المقدم، الفتى يودوروس، الذي طالما كان جزعًا في فؤاد الردى، ووجلًا في قلوب المنايا! ووضع على رأس الجيش الثالث القائد بيزاندر بن ميمالوس، صفي الآلهة وهبة الأولمپ. وأقام على الجيش الرابع صديقه فونيكس، الذي آثر البقاء إلى جانب أخيل حين أقبل مع أوليسيز وأجاكس، يفاوضون في الصلح من قبل أجاممنون، أما الجيش الخامس فقد عقدت رأيته لابن ليرسيز،

(1) القعس: نقيض الحدَب، وهو خروج الصدر ودخول الظهر.

الكميدون العظيم، شقيق الغمرات وصاحب الثارات.

أما بتروكلوس! فقد أقدم يتخايل فوق عربة أخيل، يجرها جواداه الأشهبان اكسانوس وبليوس أعز خيل زفيروس وأحب دوابه إليه، ولقد كان مظهره الوقور يبعث الروع في النفوس: فهذه خوذة أخيل تتألّق فوق هامته، والريح العاصف تداعب شعراتها فتجعل منها بركانًا يقذف الحمَّ. وهذي دروع أخيل سابغة فوق الصدر والفخذين والذراعين، كأنها لبد نبتت فوق حيد جبل شامخ ينطح السماء بروقيه[1].

وتقدم أخيل فصافحه. ومنحه شرف القيادة العامة، وخطب الجنود فقال:

«إيه أيها الميرميدون! هذا يومكم.

لقد كنتم تنظرون إلى الساحة، وبكم من الظمأ إلى اقتحامها ما لو أن بعضه بكم الآن لزلزلتم الجبال وخرقتم الأرض، ولقد كنتم تعذلونني فتقسون عليَّ في أنِّي احتجزتكم هنا ووقفت في سبيلكم دون نصرة إخوانكم، فها هو الميدان أمامكم فاشفوا صدوركم وانقذوا أجاممنون مما حاق به، ولا يجرمنكم شنآنه[2] إلا تغيثوه، أغيثوه فنصره عزٌّ لكم، شد الإله أزركم، وباركت الأرباب أسيافكم، وأحيت مجد الوطن بما أنتم قادمون عليه، سيروا على بركة زيوس، وفي حمى حيرا، وعين مينرڤا تكلؤكم».

وانطلق الميرميدون فانطوت الأرض من تحتهم، ورجف الوادي رجفة أجفل منها السهل والجبل، إذ كانوا ينسابون فلا يربعون على

---

(1) الروق: القرن. يُقال: نطح الثور بروقيه.

(2) الشناءة والشنآن: البُغض.

شيء، ويتدفَّقون فما تحجزهم لابة[1] ولا يعوقهم جرف. وتسجد من دونهم حزون الأرض وآكامها.

وانتظم خميسهم. فبرز القلب تتبعه الميمنة، تلقاءها الميسرة، وهرول الجناحان فأخذا السبيل على جحافل الطرواديين.

ونفخ في البوق فانقضّ الميرميدون على مؤخرة الأعداء الظافرين. فبدَّلوا نشوة ظفرهم بأنكر من سكرة الموت.. وانطفأ في أبصارهم بريق النصر فكان أغطش[2] من ظلام الهزيمة، ونظروا فرأوا تلك الخوذة المذهَّبة التي طالِ عهدهم بها، وحسبوا أنهم أصبحوا بنجوة منها. خوذة أخيل التي كانت تكفي وحدها لإلقاء الرعب في قلوب الطرواديين. وقذف الوجل في نفس كل منازل أو مناجز.

وتصايح بعضهم ببعض: «يااللهول يا صاحٍ! لقد أقبل أخيل! النجاء النجاء! أين كان الطاغية؟..» ثم تنادوا يحذِّر بعضهم بعضًا: «أيها الطرواديون. خذوا حذركم، الفرار الفرار من الداهية الجبار! لقد قطع الميرميدون رجعتنا؟ دعووا الهيلانيين وانشدوا خلاصكم، إلى البوابة العظمى. أيها المقاتلون! لا تزحموا الجسر، القهقرى القهقرى».

إلى آخر هذه النداءات المنزعجة الواجفة..

ولكن أين يهرب الطرواديون من بتروكلوس؟

لقد كان اكسانوس ويليوس ـ الجوادان الكريمان ـ زوبعتين مغضبتين، تثيران الدهج وتعقدان العجاجة[3]، في جميع أنحاء الميدان:

---

(1) أرض لابة أي كثيرة الحجارة والنؤى.

(2) غطش الليل: ظلامه. يُقال: أغطشه الله أي أظلمه.

(3) الغبار الكثيف.

في القلب، في الميسرة، في الميمنة، في الجناح الأيسر، في الجناح الأيمن. بل.. في السماء!

وكانت الشمس، شمس طروادة الملتهبة، تعكس أضواءها على خوذة أخيل، فتذيب أفئدة الطرواديين!

واختلط نظام القوم، وتدافعت جموعهم مذعورة مولية نحو الجسر الكبير، الذي نصبوه فوق الخندق حول إليوم. ولم يحتملهم، فهوى بالألوف منهم في جوف الخندق، ولكن المؤخرة، وكانت غالبيه الجيش، لم تنتبه لما حلَّ بأكثر المقدمة، وكذلك تدافعت لا تلوي على شيء، فجعلت من جثث الموتى قنطرة تعبر فوقها إلى طروادة.

وأخذ الميرميدون السبيل على كتائب كثيفة فأبادوها، ثم جال بتروكلوس جولة هنا وجولة هناك، يبحث عن أصحاب النداءات المتكرِّرة التي كانت تملأ الساحة شماتة بالهيلانيين، منذ لحظات، فلقي منهم برتوس فصرعه، ثم نستور فجندله، ثم اريالوس فأرسل به إلى الجحيم، وعشرات غيرهم من بني طروادة النُجُب.

وكانت أعز أمانيه أن يلقى هكتور، فسعى إليه وضيَّق الحصار عليه، وأرسل إليه طعنة لو أصابت جانب الجبل لصدعته، ولكن، يا لهكتور! لقد ريع من هول ما رأى من مقاحمة بتروكلوس، فألهب جياده الضاريات فعدت به وانقذته من قتلة محقَّقة وموت مبين.

ولشدة ما شُده بتروكلوس إذ رأى إلى جانبه فتى هيلاس، ومحاربه الصنديد أجاكس، يذود فلول الهيلانيين ويقتحم بهم الحلبة مرَّة أخرى؟ غير مبالٍ بجروحه التي يتدفَّق من أفواهها الدم صببًا.

وكم كان سرور الهيلانيين عظيمًا حين استيقظوا من سكرة هزيمتهم

فرأوا جنود أخيل الأنجاد يذودون عنهم، ويردُّون عادية الموت والقتل والغرق عن جموعهم!

ونشبت ملاحاة بين بتروكلوس قائد الميرميدون، وساربيدون[1] البطل الطروادي الكبير، أدت إلى مبارزة دامية، وانتهت إلى فجيعة طروادة في أشجع فتيانها بعد هكتور! إذ شكَّه بتروكلوس شكّة جرَّعته غصّة الردى، وأوردته موارد الحِمام!

وانكشفت غمة الهيلانيين.

ولكن الميرميدون هم الذين دفعوا ثمن هذا النصر، ودفعوه غاليًا وعزيزًا. يا للهول!

لقد قُتل بتروكلوس!

فمن لك بعده يا أخيل؟

(1) نأسف أشد الأسف لعدم اتساع هذه السطور لإيراد ملاحاة ساربيدون وبتروكلوس وهي من أروع صور ألإلياذة! (الكتاب السادس عشر).

مقتل بتروكلوس

قُتل ساربيدون ملك ليسيا وقائد فرسانها، وأشجع مقاتل في جيش طروادة بعد هكتور، ووقف بتروكلوس على جثته يصليها سخرية وهزوا، ناسيا أنه يهزأ بابن زيوس سيد الآلهة، من آثر زوجاته إليه، أوروبا الجميلة المفتان، التي وقفت من ذروة جبل آيدا تنتظر المعركة الحمراء، وتشهد مقتل ابنها.. وتبكي!

وتثور ثائرة الأم التعِسة، وتهيب بالإله الأكبر أن يحمي جثة ولدها بعد إذ عجز عن حمايته حيًا وبعد إذ عجز عن دفع ما قضت به رَبّات القدر.

وينظر زيوس فيرى إلى بتروكلوس واطئًا بقدمه صِدر ساربيدون عادة الجاهلية، ويسمع إليه ويقذفه بأشنع عبارات التهكم والاستهزاء، غير راثٍ لهذه الروح التي تفيض، أو معتبر جلال الموت الذي تخشع أمامه القلوب، فيثور الإله، ويحنق على بتروكلوس، ويأمر ولده من لاتونا.. أپوللو العظيم.. فينطلق من فوره إلى معمعان الحرب، ويرسل إلاهَيْ النوم والموت فيحميان جثمان القتيل، ويدفعان عنه سباع الميرميدون التي تكاثرت حوله تريد لو تسبي سلاحه، وتستنقذ دروعه.

أما الجثة، فيحملها الإلاهان الكريمان إلى ليسيا، وهناك، يخلطان

بها حنوط الخلود، ويلفانها في ثوب سماوي من ثياب الرحمة، ويجمعان حولها عرائس الفنون تبكيها وتنشد لها أوجع ألحانها، وأشجى موسيقاها.

ويبدو لبتروكلوس أن طروادة، بعد ساربيدون، لقمة سائغة، وغنيمة بادرة، فيهتف بالإغريق مرة، وبالميرميدون مرة أخرى، أن يقاحموا نحو أسوارها، وأن ينتهزوا فرصة تفتح عليهم فيها المدينة الخالدة.

ولا تدري كيف يستيقظ الطرواديون وأحلافهم من سكرة الروع التي غشيتهم فينكشف لهم أن البطل الذي قتل ساربيدون وعشرات غيره من صناديدهم، ليس هو أخيل العظيم، وإن يكن يحمل خوذته. ويتقنع في دروعه، ويذرع الساحة بعربته.. فتهدأ أعصابهم، ويثبت جأشهم، لمناهضة الميرميدون والإغريق جميعًا.

ولكن بتروكلوس يهجم غير هيَّاب، ويجندل من حوله الأبطال المذاويد، ويقود جنده إلى البوابة الكبرى حيث وقف هكتور ينظر إلى المعركة بعينين مشدوهتين، ونفس مذهوب بها، وقلب حيران متصدع.

ووقفت الآلهة دون البوابة تحمي طروادة الخالدة.

ذلك أن بتروكلوس كان كلَّما بلغها.. وجد أنه وجنده ينسحبون إلى وراء بقوة خافية لا يدرون سرها ولا يعرفون من أين تأتيهم فتخطفهم، وترد جحافلهم، وهي قاب قوسين من داخل المدينة.. أو أدنى!

وفي الهجمة الثالثة، سمع بتروكلوس إلى صوت يقول:

بتروكلوس! ليس على يديك تُفتح هذه المدينة الخالدة! بل هي لن تفتح على أخيل العظيم الذي هو أقوى منك، ومن عشرة من أمثالك! عد من حيث جئت، واحذر، أن تكون آخرتك اليوم، في هذا الميدان المضرَّج بدماء ضحاياك.

وتلفَّت بتروكلوس فرأى الهاتف هو إله الشمس، أپوللو، أپوللو بعينه، ربّ طروادة العظيم، واقفًا فوق برجها الباذج يقلب قوسه في يديه الجَبّارتين، مرسلًا في عساكر الميرميدون والجنود الهيلانيين. نظرات تقدح الشرر، وتوري نيران الكيد والجبروت!

واقشعر جسم بتروكلوس، وأيقن أن أپوللو هو الذي رفع جثمان ساربيدون من مكانه من المعمعة، وأنه أقبل ليلعب دوره ضد الميرميدون وضد الإغريق، وضد بتروكلوس قبل كل شيء!

ولكن بتروكلوس محارب، وقلب المحارب العظيم لا يعرف الجبن، ولا يتلجلج لقصف المنايا في المعركة، فكيف به يخفق فرقًا إذا رأى الآلهة نفسها تحارب في صفوف الأعداء.

أقبل يا بتروكلوس وأقدم، ولا يهولنَّكَ أپوللو، وألف أپوللو، ما دام أن العمر واحد، والساعة آتية، ولن يفلت أحد مما قُدِّر له!

وبهت الجمعان المقتتلان حول جثمان ساربيدون حين رأوه يرتفع في الهواء، ثم يتهادى إلى جهة ليسيا، موطنه الذي يبكي عليه، فعلموا أن السماء تعمل!

وأحس الليسيون هذا الفراغ المفزع الذي خلَّفه ملكهم المقتول فيهم، فذهب رئيسهم المغوار «جلوكوز» نائب الملك وخير وجوه ليسيا، إلى حيث وقف هتكور ينظر إلى المعمعة قريبًا من البوابة الكبرى، فوقف تلقاءه محطم القلب، دامع العين، موهون القوى، وقال: يقف هنا بطل طروادة العظيم، ويدع أحلافه البواسل يجودون بأرواحهم من أجل إليوم، ويسيلون نفوسهم على ظُبَى[1] الرقاق البيض

(1) الظُّبَة: حد السيف والجمع ظُبَى.

التي يرهفها في وجوههم أعداؤكم! ولأي شيء؟ لأنكم استجرتم بنا فأجرناكم وأسرعنا إليكم نفتديكم بالمهج الغالية والدماء الذكية؟ هكتور، لقد قُتل ساربيدون فهل علمت! هل علمت هذه النفوس التي يمضُّها الأسى، والعيون التي تقرِّحها الدموع، ويعصف بها الدم؟ فيم وقوفك هكذا ترمق الساحة وقد رأيت من فتك المرميدون بنا ما رأيت. هل فكرت في حماية مولانا الملك، أو على الأقل صيانة جثمانه العزيز؟ لقد سبوا دروعه وسلاحه، فأي عار يصمنا في طويل الأحقاب والآباد؟ يا لثأرنا.. يالثأرنا!».

ولم ينبس هكتور!

ولكنه شاهد الميرميدون يعيدون الكرة بعد الكرة على الطرواديين، فينالون منهم ويمزِّقون صفوفهم، وشاهد البطل الإغريقي المشهور إيجيوس، يصول بين الجيشين ويجول، ويجندل الأبطال ويبيد لهاميم الرجال فأخذ هكتور حجرًا كبيرًا وانتهز غرة من إيجيوس، وقذف بالحجر فوق رأسه، فشجه، وبرز المخ، وتدفق الدم، وتردَّى البطل فوق الحدود حتى استقر في بسيط الساحة!

واستشاط بتروكلوس غضبًا ووَدَّ لو كان قريبًا من هكتور فيضغط على عنقه ضغطة تذهب به إلى الجحيم! ولكنه لم يستطع إلا أن يثأر للقتيل بمثل ما صنع هكتور، فقد تناول جلمودًا كبيرًا، وقذف به ستينلاس الهائل، أشجع شجعان طروادة الأحياء، فأطاح جمجمته، وهوى الجلمود على مفرش جواده فقتله، بين عجب الطرواديين وشدة تحيّرهم.

ولكن جلوكوز ـ رئيس الليسيين ـ يرى ذلك فيتسخط، وينقض على

البطل الهيلاني الكبير باثيسليز، فيشكه برمحه شكة تذهب به وتتركه يتشحط في دمه. وتستمر المعركة.

**

أما أپوللو، فيغيظه من هكتور هذا الجمود الذي استولى عليه، وذلك الموقف الجبان الذي يحول بينه وبين الميدان، وفي الحق، لقد كان هكتور ينظر إلى شياطين الميرميدون ولا يصدق أنهم مُقاتِلة من البشر، بل وَقَرَ في قلبه أنهم زبانية من جحيم بلوتو سلَّطتهم المَقادير على الطرواديين يسومونهم الخسف وسوء العذاب.

وتذكَّر أپوللو، فبدا في زي محارب في عنفوان الشباب، ثم أجرى في عروقه من دماء بني الموتى، وغضَّن قليلًا من جبينه، وسوّى من ساعديه، ونثر فوق عدنه من ثرى المعمعة، ولوح وجهه بملامح (أسيوس) العظيم، أخ هكيوبا، وخال هكتور، وسار قدمًا إلى حيث وقف فتى طروادة المسحور بروع الساحة الهوجاء.

«هكتور! فيم إحجامك عن لقاء الأعداء يا بني؟ هلم. هلم! فوأرباب الأولمپ لو كان لي شبابك وعنفوانك، لصاولتُ هؤلاء الميرميدون الألدَّاء، ولأخليت منهم تلك الحومة التي ملأتك هلعًا. أقدم يا هكتور ولاَ تحجم هكذا. القَ بتروكلوس فقد تصرعه، وإنك لصارِعه، وإنك لعاقد أكليلًا من المجد فوق رأسك لا يذبل أبد الدهر، وحسبك أنَّ أپوللو صاحبك وحاميك ومسدِّد خطاك. ومضاعف بتأييده ضرباتك! هلم، هلم، وعش عزيزًا يا هكتور، أو مت كريمًا يا بني، بين طعن القنا وخفق البنود[1]!».

وانفتل أپوللو فانخرط في صفوف المقاتلين، وطفق يصرع أبطال

(1) خفق البنود: خفق الرايات.

الهيلانيين ليضرب المثل لهكتور، وليشحذ من همته الخابية، وليوقظ شبابه النائم.

فلما رأى هكتور جلائل هذه الفِعال التي أبداها خاله - وما هو بخاله - انكشفت عنه هذه الغمة التي غمرَته. وأمر سبريونيس، سائق عربته أن ينطلق به إلى الحومة. فانطلق السائق المسكين نحو بتروكلوس. حتى إذا كان على مقربة من شَباةِ رمحه، ترك صاحبه وجهًا لوجه معه. وكان السائق من مغاوير أبطال طَروادة، فأخذ يناوش بتروكلوس، هو الآخر فما كان من قائد الميرميدون العظيم إلا أن قذفه بحجر هشَّم رأسه، وصدع فقاره، وطار بروحه إلى هيدز.

واقشعرَّ هكتور من هول الضربة، وعزَّ عليه أن يُـودَى بسائقه سبريونيس وهو بين يدي مولاه، فلا يجد له حاميًا، ولكن الطرواديين تكبكبوا حول القتيل، يذودون الهيلانيين الذين كان كل همهم أن يفوزوا بعدته، ليحتفظوا بها أثرًا حربيًا خالدًا.

واشتد صيال القوم حول جثمان السائق، وصخبت زوبعة القتال فوقه واشترك هكتور وبتروكلوس مع أجنادهما، فكان جماعة يشدون القتيل من قدميه، بينما جماعة أخرى تشده من الرأس، وهم يعفرونه بين هذا وذاك بالتراب، ويلطخونه بالدم!

ووجد أبولو، فرصته!

أبوللو الخائن، أبوللو سيد الشمس الذي لا يستحي! أبوللو الإله الذي يفرق أن يلقي بتروكلوس وجهًا لوجه. فيأتيه من الظهر. كأجبن الجبناء!

ياللآلهة! ومسكين يا بتروكلوس!

لقد تقدَّم أبوللو. مستجمعًا كل قوته في قبضة يمينه الجبَّارة فأهوى

على قفا بتروكلوس بضربة خائنة كضربات اللصوص.. حين ينسلون تحت أستار الليل. فأطار صواب البطل. وأوقع الخوذة الأخيلية الهائلة. وغودر الرأس العظيم مكشوفًا في متناول كل ظبة وكل سنان.

ولم يدع هكتور فرصته تمضي، بل سرعان ما أبصر بتروكلوس يتلفت ليرى صافعه. حتى أرسل رمحه الرعديد الخائر إلى الرأس العاري فأقصده.

وسقط بتروكلوس المسكين.. مضرجًا بدمه.

ووقف هكتور يتشدَّق، ويفاخر تلك المفاخرة الكاذبة:

«بتروكلوس. أرأيت؟ لقد انتهيت. ولقد طاحت آمالك وذهبت أمانيك فوق هذه الساحة أباديد! بتروكلوس. أكنت تحلم بأن تُفتح طروادة عليك. فتسوق بيض خدورها إماءً بين يديك إلى بلادك. وتقرن في الأصفاد أبطالها البهاليل؟ أيها التعس. لقد تردَّيت من عربة أخيل التي لم تكن يومًا أهلًا لها. وبعد قليل تنوشك سباع الطير وتغادرك فوق ثرى طروادة جيفة منتنة تنوشها السباع.

بتروكلوس، يا أتعس قتيل في هذه الساحة الحمراء.

كم كنت تمنِّي نفسك بقتل هكتور.

وكم كنت تمنِّي نفسك لو كان هكتور قاتلك وسافح دمك، هو الذي ينام تلك النومة الساعة بين يديك!

وكم كنت تمنِّي نفسك أن لو عدت بعدة هكتور وعتاده إلى مولاك أخيل الذي أرسلكَ إلى الحومة، ولم يجازف بنفسه فيها، وهو يعلم أن أسَدَها الهصور لا بد قاتله، فافتدى نفسه بك، وضحَّاك في سبيل خلاصه، من هذه الصرعة التي زلزلتك!

بتروكلوس!

أهكذا قد غرَّر بك أخيل، فأطلقك إلى حيث تلقى حتفك، وتسبح في دمك، وتغص بآلامك، وإنه ليسبح الآن في شهواته ويقارف لذاته، ولا يدري مصيرك المحزن، ولا يعرف ما حل بك من موت زؤام!»

وكان بتروكلوس العظيم يجود بروحه، ويسمع إلى هذا الهذر، ويبكي! فلما انتهى هكتور تأوّه القتيل آهة عميقة، ثم قال:

«هكتور!

حَقَّ لك أن تفتخر الآن!

أمَّا قبل هذه اللحظة فقد كنت تبحث عن قلبك الرعديد فلا تجده، لأنه طاش من شدة ضربات الميرميدون!

على أنك لو كنت رجلًا، لآثرت أن تدفن وجهك في الرغام، دون أن تفخر بنصر ليس لك في أقله يدان!

لست أنت الذي رميت يا هكتور، بل هو سيد الأولمپ، وولده أپوللو، هما اللذان رميا، وهما اللذان كتبا هذا القضاء. وأبرما هذا القدر.

وإلا، فوأرباب هيلاس، لو صاولت عشرين كلبًا مثلك، لمَّا أفلت منهم أحد أبدًا، ولأرسلت أرواحهم الخبيثة تتردَّى في نار جهنم!

أجلي هو الذي أعجلني يا هكتور، أپوللو هو الذي فتك بي تلك الفتكة البكر، أما أنت، فلم تصنع شيئًا، أكثر من أن رميت رمية الجبان!

على أني أقولها لك قولة غير كاذبة.

ستشرب بالكأس التي شرب بها بتروكلوس، ولن تبسم لك الدنيا أكثر مما فعلت، فانتظر، فسيأتيك عذابٌ يشقيك، سينتفض أخيل العظيم حين ينتهي إليه نبأ مصرعي، فيهرع إلى هذه الساحة، والويل

لك من رمحه الظامىء إلى دمك!»

وكانت هذه المقالة قد أجهدته، فسكت قليلًا، ثم أغمض عينه إغماضة متعبة، وفتحهما فجأة، ونظر إلى جنوده، وقال:

ميرميدون!

وداعًا.. سلامي.. إلى أخيل!

وفاض الروح الكبير، وسكنت الساحة الحزينة كلها، كأنها تبكي!

وكأنَّما هزَّت كلمات بتروكلوسٍ فؤاد هكتور، وكأنما خشع بطل طروادة لجلال الموت، فصمت طويلًا.. وقال مخاطبًا القتيل:

«بتروكلوس!

ومن يدري إذا كان أخيل هو الذي يقتلني، أو كنت أنا الذي أقتل أخيل!».

ولم يتورَّع هكتور أن ينزع حربته من رأس البطل، ولم يتورَّع كذلك أن يأمر فينزع رجاله عدة أخيل.

تذكارًا حربيًا!

وعتادًا مؤقتًا!

أخيل يبكي بتروكلوس

قُتل بتروكلوس

وانقلب هذا النصر المؤزَّر إلى ذهول استولى على أفئدة الميرميدون، صيَّرته الصدمة الهائلة أشبه بالهزيمة!

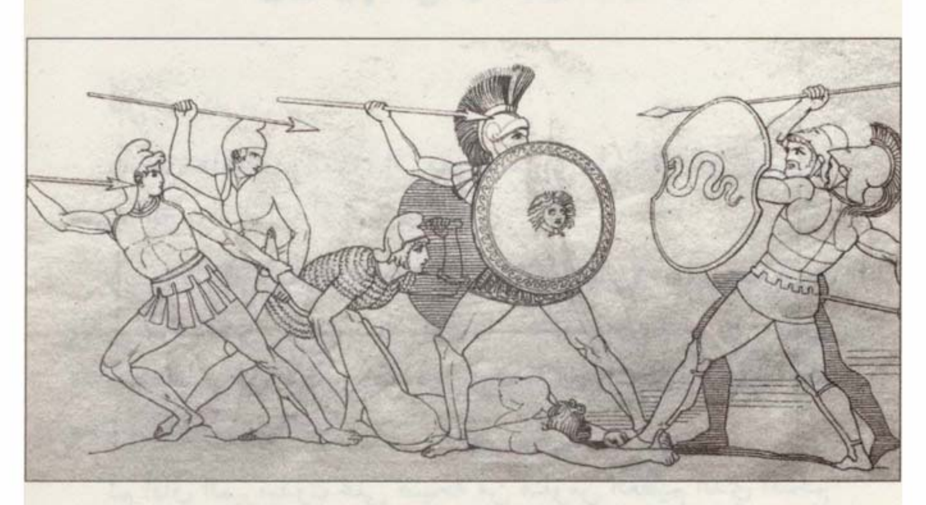
وبينما كانت أبصارهم زائغة تنظر إلى ما حَلّ بمولاهم، وبينما كانوا ينظرون إلى أشباح المنايا ترفُّ فوق الساحة، وتدوِّم على رؤوسهم، تكاد تخطفهم، كان هكتور ومَلَؤه ينزعون عدَّة أخيل، دون أن يلقوا أقل معارضة!

ثم أفاق الميرميدون على صيحة من منلوس العظيم الذي اقتحم الحلبة نحو زعيمهم قدمًا. وناضل وحده عن الجثمان العزيز، الذي كان هكتور يمنِّي نفسه بحمله إلى طروادة ليجعله معرضًا هنالك، يشهد له بالشجاعة المغتصبة، والجرأة المزوَّرة، والبطولة التي لم يكن لها بأهل، ثم ينبذه بعدها بالعراء فتنوشه الطير، وتغتذي بلحمه المر سباع طروادة وكلابها!

وانقضّ الميرميدون يذودون عن الجثة مع منلوس، ولكنه انقضاض المهموم المحزون، وهجمة المُرزَّأ المكدود، فلم تكن ضرباتهم الواهية تخيف الطرواديين بعد أن أنقذوا من بتروكلوس الداهية، ولم

تكن صيحاتهم الواهية تهز بضعة في قلوب أعدائهم الذين أصبحت لهم الكَرّة عليهم.

واستطاع منلوس، بعد لأي شديد وجهد، أن يحمل الجثة، يساعده مريونيس الكبير، وأن يقتحماً بها المعترك المصطخب إلى الصفوف الخلفية، يحمي ظهورهما أجاكس وجنوده.



الصراع على جثمان بتروكلوس. (فلاكسمان).

وذكر قادة الهيلانيين حين رأوا شدة هجمات الطرواديين بعد مقتل بتروكلوس، وحين نظروا فوجدوا الميرميدون ينشغلون عن المعركة بالبكاء على مولاهم، والرثاء لما حل بهم من بعده، والفزع الأكبر للقاء أخيل.. لا يتقدمهم إليه قائدهم.

ولجأ منلوس إلى الحيلة، وفكّرَ من فوره في إثارة النخوة في قلب أخيل، عسى أن يقدم فيقود أجناده، ويتم النصر للهيلينيين، فأرسل إليه

انتيلوخوس يحمل النبأ العظيم، ويزلزل من تحته الأرض حين يقص عليه ما لغط به هكتور.

ولو علم انتيلوخوس ما يثيره هذا النعي في قلب أخيل ما آثر أن ينفذ إليه به! فلقد صرخ ابن ذيتيس صرخة اضطرب لها البحر، وماد الشاطئ، وتجاوبت لها جنبات الجبال، ثم بكى فأربدّ أديم السماء واعتكر واحتلك الضحى وبسر، وشاعت في العالم ظلمة أشد من ظلمة القبور!

«بتروكلوس!.

أفي الحق يا أعز الأصدقاء أنك أوديت! واحربًا! أإذا لقيتك الآن فأنت ما تحرِّك شفتيك لتكلمني، وما تفتح عينيك لترى أخيل؟! ألا ينبض قلبك بعد اليوم يا بتروكلوس، حتى ولا بحبي؟!

إلى حتفك كنت تستأذنني..

ويلي عليك يا أعز الأحباب.

ويلي عليك يا بتروكلوس! ويلي عليك يا أعز الأحباب».

ولم ينطق، فطفق يحثو التراب على رأسه، ويشد شعره.. فيكاد ينزعه، ويرسل في السماء وفي الأرض والبحر صرخاته المدوِّيات.

وانتفض الموج، وفار الماء وكأنما اتصل أخيل باليَمّ فاضطرب بما فيه من وجد، واصطخب بما يؤوده من كَمَد، شاعت فيه أشجانه وأحزانه، حتى وصلت إلى الأعماق.. حيث تأوي ذيتيس إلى زوجها، ربّ البحار السفلية، فشعرت الأم المحزونة بما ينتاب ولدها في أسطوله الراسي على هامش طروادة، وأحس بما يأخذه من ألم، ويمزِّق حشاه من عناء، فصرخت صرخة اجتمع لها كل عرائس البحر، وعذارى الماء،

من حوريات ذريوس[1] وأخذن يلطمن خدودهن الوردية تحت الشبج، ويذرين من نرجس عيونهن فيضًا من الدمع الدرِّي، ثم انتظمن صفوفًا صفوفًا، ورحن يتهادين وراء ذيتيس، مرسلات في الأعماق أناشيد الحزن، طاويات ذلك الرحب الذي يفصل بين مملكة مولاهن، وبين شطآن إليوم، حتى إذا كنَّ عند الأسطول الهيلاني طفون فوق الماء، فانقلبت اللجَّة بجمعهن جنة، وارتدّ البحر بسربهن فردوس نعيم!

وبرزت ذيتيس فرَقَتْ سفينة ابنها أخيل الباكي الآن الحزين، وتقدَّمت فضمَّته إلى صدرها الحنون، وجعلت تهوِّن عليه أمر صاحبه وتصرفه عن هذه الحرب التي يفرق من هولها قلبها الخفَّاق أشد الفرق، لما تعلمه منذ قديم من القتلةِ التي تخْتَرم ولدها تحت أسوار طروادة كما أنبأتها بها ساحرات الماء. وأنَّ أخيلَ أنَّةً شديدة، وقال لأمه:

«أمَّاه! هكذا قُدِّر لنا أن نلقى ما حتَّمه القضاء علينا، وهكذا شاء سيد الأولمب الكبير المتعالي، ولكن خبِّريني بربِّك ما قيمة هذه الحياة ما لم يعد بتروكلوس ينظرها ويزيِّن حواشيها، وما دام أعز أحبائي وأودَّائي[2] ملقى فوق هذه الساحة النكراء. ذبيحًا بين أشقى الخصوم الألِدَّاء!

آه يا بتروكلوس! لقد شفى هكتور غلَّة قلبه حين سفك دمك غادرًا وحين انتزع عدَّتك غادرًا، وحين يفخر بكل أولئك غادرًا!

وهذه العدة يا أماه! أيلبسها هذا الشقي وهي هدية الإله إلى بليوس، أبي، ربّ الأعماق، وهدية من أبي إليَّ!! أبدا لن أعود معك إلى حيث العار الأبدي ينتظرني، ما لم أثأر لأوفى أحبائي بتروكلوس، من هذا النذل، هكتور، وما لم أروِ هذه الصعدة الصامتة من دمه النجس،

---

(1) النيربيد من بنات نريوس أحد أرباب الماء ومنهن طائفة كبيرة.

(2) أوِدَّاء: جمع وديد وهو المحب.

وأقذف في وجهه بمفاخرته الكاذبة وإهاناته للقتيل الكريم.

لا. لا. لا تتحدثي إليَّ عن أوبة تَصِمُنا بالذل إلى الأبد يا أماه، وإني لأقسم بالسماء ومن فوقها، لن أبرح الأرض حتى ينفذ هذا السنان في صدر هكتور!»

وصمتت ذيتيس قليلًا، ثم لم تطق أن تخفي ما تخشاه على ولدها من ذلك القضاء المحتوم. فأخبرته بما تحدَّثت به العرافات يوم وُلد، وما تخافه من أمر هذه النهاية المحزنة، والفجيعة التي لا تكون مثلها فجيعة.

ولكن أخيل يبتسم ابتسامة محزونة، ويتحدَّث إلى أمه عن المجيد الخالد الذي سيحمله اسمه آخر الدهر: «واستبشار الهيلانيين بعودتي لمناصرتهم، ووضوح الحق وجلائه لأجاممنون. إنني روح الجيش وحماسة الجند، والقوة المذخورة لدحر الطرواديين! صه يا أماه! فلن تزعجني مخاوفك، ولن تلقي في روعي أقل الجزع.. لأنه إن كان حقًا ما تحدثن إليك به، فأين يهرب أحدنا من القضاء؟!».

وبُهتت الأم مما صمَّم عليه ولدها، ولمَّا أيقنت ألّا سبيل لها إلى قلبه الجريء، بدا لها أن تعاهده على ألّا يخوض الكريهة حتى تعود إليه من عند ڤلكان، الإله الحداد، الذي ستذهب هي إليه تكلفه بعمل دروع وخوذة تحملها إليه، ليحمياه في يوم الروع! وعاهدها أخيل.

وأمر ذيتيس عذارى الماء فانثنين إلى مملكة بليوس، يحملن إليه أنباء ولده. أما هي، فانطلقت إلى ڤلكان.. هناك.. هناك فوق ذروة جبل أطنة، حيث وجدته ينفخ في لظى كيره الضخم يصنع الدروع.

ولقيها الإله الحداد بالترحاب، وشرع من فوره يصنع عدة لم تر العين مثلها، ولم يفكر أن يصنع مثلها حتى للآلهة! وكيف لا، وأخيل

الحبيب سيدَّرع بها فتحميه من أوشاب الطرواديين، وأوغاد هذا الأخ اللئيم مارس، الذي تعلمين مما كان من أمره مع ڤينوس ما تعلمين.. لقد فضحني السافل ففضحته المقادير..[1]».

ولكن الساحة كانت تضطرب وجموع الطرواديين تأخذ الهيلانيين من كل فجّ، وكانت حيرا، مليكة الأولمپ، تطلع من عليائها فتأخذها الرهبة لما يحيق بعبادها من تصريع وتقتيل، وكانت مينرڤا كذلك تهلع عليهم هلعًا شديدًا.

وتشاورت الربتان، واتفقتا على أن تنفذا ايرليس إلى أخيل، تأمرانه بخوض الكريهة في جانب الهيلانيين، ولكنه قصَّ على الرسول ما عاهد أمه عليه فعاد الرسول إلى الأولمپ يحمل نبأ هذه المعاهدة.

بيد أن حيرا أشارت على مينرڤا أن تنفذ الرسول إلى أخيل يحمل إليه درعها، وكان لمينرڤا درع اسمها ايجيس لم يصنع مثلها لأحد من قبل ڤلكان، وأن ينهي إليه أنهما تأمرانه بالتوجه إلى الساحة فيطلع عليها ليراه الطرواديون، فإنه بحسبهم أن يروه فيولوا الأدبار!

وانطلق ايرليس برسالته إلى أخيل، فاهتز البطل من نشوة الطرب، وشاعت الكبرياء في أعطافه لأنه سينال شرفًا لم ينله أحد من قبل، وذلك بأنه سيدَّرع بقميص مينرڤا، المسرودة من حديد!

وعندما نهض ليلبس الدرع رأى مينرڤا نفسها تساعده بيديها الطاهرتين النقيتين كالبلور وتضع فوق جبينه إكليلًا وضَّاءً من الذهب ثم تقوده إلى الساحة!

وهناك وقف أخيل العظيم فوق ربوة عالية تشرف على الساحة كلها،

---

(1) نشرنا هذه الأسطورة التي يقصدها هوميروس في كتاب أساطير الحب والجمال عند الإغريق فليرجع إليها القارئ. منشورات دار التنوير.

ثم أرسل إلى الآفاق صيحة مدوية، كانت تنفخ فيها مينرڤا فتزيدها قوة وعنفوانًا، فزلزلت قلوب الطرواديين وجعلتها تدق في الصدور كالنواقيس!

وما كاد الأعداء يستيقنون أن الصيحة صيحة أخيل، وما كادوا ينظرون إلى هذه الآراد المنتشرة فوق رأسه، والأضواء المتلألئة من إكليله، حتى أسقط في أيديهم، وارتعدت فرائصهم، وولوا على أعقابهم مدبرين! وكانت خيولهم المذعورة تولي هي الأخرى فتطأ الفرسان هنا وهناك، وتسقط في الخنادق المحيطة بطروادة، فتلقى فيها حتفها بمن عليها!

وتوارت الشمس بالحجاب..

فتحاجز الجمعان وذهب كل فريق ليستريح من هذا اليوم العصيب.

وكانت صيحة أخيل أكبر عون لمنلوس وزميله في الإسراع بجثة بتروكلوس إلى مؤخرة الجيش، حيث الأمان والاطمئنان، فلما عاد أخيل كانت جثة صديقه أول ما وقع بصره عليه.. فبكى.. وبكى.. واجتمع الميرميدون يبكون.

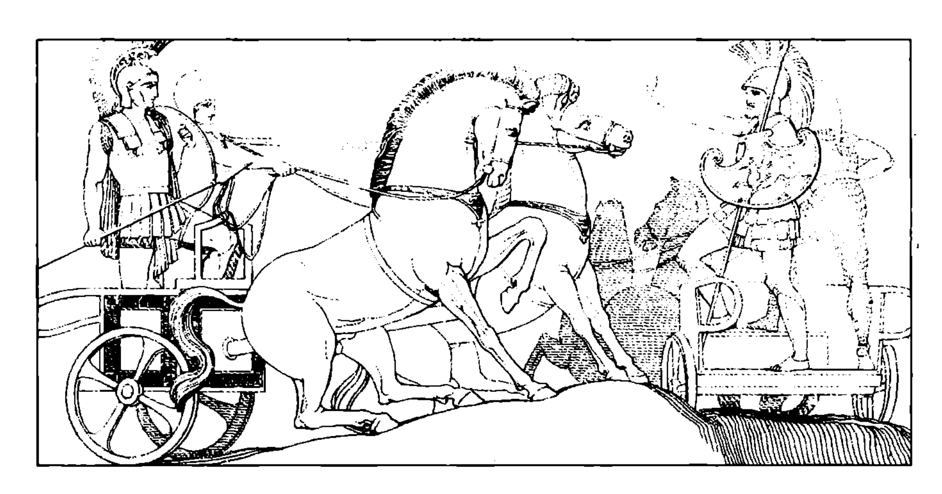
ثم رثاه بكلمة دامعة، ترجمت عن نفس مكلومة، وأمر فأوقدت نار كبيرة وضع عليها دست ماء كبير، وأخذوا جميعًا في غسل الجثة المعفَّرة بالتراب، ودهنها بالطيوب ثم تحنيطها بالأفاويه والبهار والقرنفل، ولفوا في مدارج طويلة من الحبر الغاليات البيض.

**

واجتمع قادة الطرواديين يتشاورون في هدأة الليل فخطب بعضهم[1] ناصحًا بوجوب التحرُّز داخل الأسوار في غد، مخافة أن يبطش بهم

(1) بوليداماس.

أخيل وشياطينه، لا سيما وهم سيخوضون الوغى بقلوب جرحها مصرع بتروكلوس وهم لا بد ثائرون له، مهما كلَّفهم الثأر له من أرواح ودماء!



بوليداماس يحاول منع هكتور من الهجوم. (فلاكسمان)

ولكن هكتور أبى إلا أن يخرج للقوم، كأن قتله بتروكلوس غيلة قد خدعه عن شجاعة أخيل، وما قُدِّر له مما سيلقاه من بطش أخيل.. وهل الغد بعيد؟

وفي هذه اللحظة أيضًا، كان زيوس يتحدَّث إلى حيرا حديث الذي أظفر بأعدائه وكأنما أطرب الإله أن أخيل يعود إلى المعركة بعد أن أديل له من الهيلانيين ومن الطرواديين على السواء.

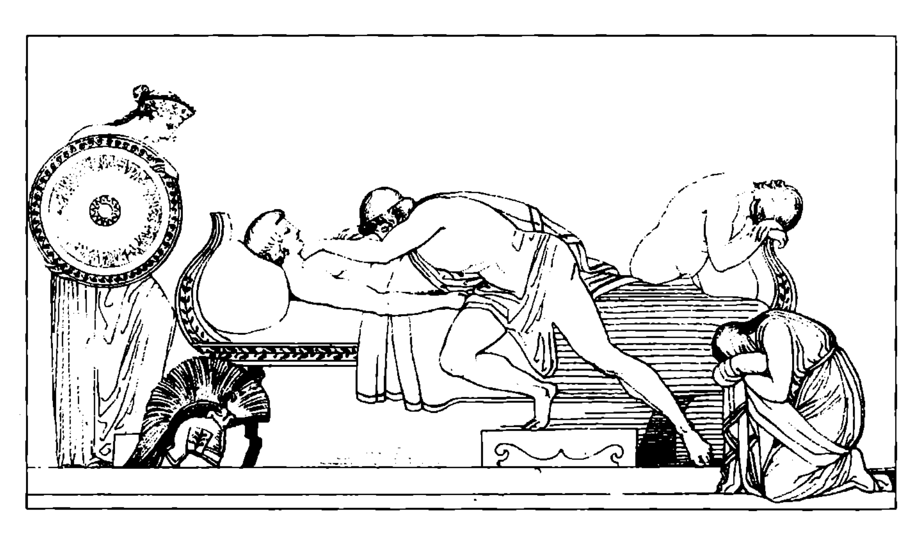
وكانت حيرا تسمع إليه وهي تطفر فرحًا! كيف لا؟ وهذا أخيل يعود إلى أعدائها في الغد، فيصليهم عذابًا، ويجرعهم غصصًا ما ذاقوا

مذ ترك الحلبة أمثالها؟! ولتحزن ڤينوس! وليحل غضب السماء على پاريس، ولتذهب التفاحة المشؤومة إلى الجحيم.

وأشرقت شمس الغد.

ولاحت ذيتيس تتهادى فوق الزبد في الأفق الغربي، تحمل الدرع التي لم يصنع مثلها ڤلكان.

حتى ولا للآلهة أنفسهم! والويل لك يا هكتور!



أخيل يبكي بتروكلوس. (فلاكسمان).

صلح

أشرقت الشمس أو كادت، وبدت ذيتيس تتهادى في الأفق الغربي فوق الثبج، وهرعت عرائس الماء وعذارى البحر تحييها وتنشد لها ألحان الفجر، طلها الندى..

وكانت تتأوَّد تحت حملها الثقيل، فما إن بلغت سفينة أخيل حتى القت بالدرع المسرودة، وحتى هب ولدها يحييها بعين شكرى، ومهجة حرى، وقلب موجَعٍ حزين.

وكان لا يزال جالسًا أمام جثة بتروكلوس يبكيها، ويكلِّم فيها الإخاء والوفاء، ويناجي في لفائفها الود والولاء، وكان ما يزداد إلا لوعة، وكان ما يزداد إلا أنينا!

وحنَّت عليه أمه تواسيه، ثم لفتته إلى الدرع والخوذة، فحدَجهما بنظرة قانعة.. وشكر لها هدية ڤلكان، ثم أوصاها بالجثة خير ما يُوصى به الصديق.. «ذودي الذباب فلا يمسّها يا أمَّاه، وادفعي عنها أسرابه، واسقيها من المعتَّقة الصفراء، حتى تأذن الآلهة فأعود إلى بتروكلوس بثأره..».

وانطلق في غبشة الصبح يطوف بمعسكر الهيلانيين، داعيًا إلى مجلس حربي.

وكان يهتف بالجند النائم هتافًا عاليًا، فينتفض المقاتلون وقد خفقت قلوبهم، واهتزت جوانحهم، وفاضت عبراتهم من الفرح للقاء أخيل!

وكان أجمل ذلك جميعًا أن ينهض أوليسيز متهالكًا على نفسه وديوميد مترنحًا في عطفه، ونسطور مرتجفًا كأنه في يوم حشر.. و.. أجاممنون كأن الحياء والخجل يصبغانه حمرة الجحيم!

لقد كانت جروح القادة أنطق برهان على ما جرَّت تلك الخصومة الوضيعة بين أجاممنون وأخيل من هزيمة للجيش، وضياع للجهود وعبث بآمال أمَّة ترقب أبناءها من وراء البحار!

وانتظم عقد القادة، ووقف أخيل يتكلَّم، فأرهفت الآذان، وأصغت القلوب، وتحرَّكت الألسن تبحث عن بلل من الريق تبتلعه:

«ابن أتريوس العظيم!

أخي في الوطن!

يا أمير هذه الجيوش الغازية!

أرأيت؟! أي جدوى عادت عليَّ أو عليك هذه القطيعة التي أجَّجت نارها، واندلع بيني وبينك أوراها، وأي غنم أفدت من شحناء لم تكن تخلق بعظيم ابن عظيم، بل سليل آلهة عظماء؟!

ألا ليتها أودت تلك الفتاة التي أثارت كل تلك العداوة، وأوغرت تلك البغضاء بيننا! أي وأرباب الأولمپ، ليتها أودت يوم غنمناها من مدينة ليرناسوس، حتى لا تفرح طروادة بما تم لها من نصر، وما حاق بجحافلنا من خذلان، لم يكن شيء منه يقع لولا ما أثارته بريسيز بيننا!

ولكن لا! فالفتاة نقية وطاهرة وبريئة، ولا تزر وازِرة وزر أخرى، ولكننا معشر الهيلانيين، ينبغي أن نذكر أبدًا أن لنا الكرّة عليهم حين

يظفرنا اتحادنا بهم..

لنكبح جماح أنفسنا إذن! وليطفئ كل منا غيظه في سبيل هيلاس، ولتندمل تلك الجراح التي تنكأ قلوبنا فتكاد تقضي على آمال أمَّة، وتطيح بأماني وطن!

أجاممنون! ابن أتريوس العظيم!

تلك يدي أضعها في يدك، عهدًا مخفورًا وذمة وفية، ألّا ندع أهواءنا تهدم ما صبت إليه نفوسنا من قبل، وأن نكون من الساعة يدًا على عدوّنا، وإلبًا واحدًا.

والويل بعدها لمن يجرؤ من جند طروادة أن يتصدى لنا، أو يجازف بنفسه أمامنا.. هذا رمحي وتلك قناتي! ويا طالما قد ظمئت إلى الدماء!»

وتدفَّقت الدماء في عروق القادة، وشعروا كأن السماء ترفّهم إليها فتطهِّرهم وتزكِّيهم، وتعود بهم لترى قوما آخرين!

ونهض أجاممنون من مكانه، ولم يستطع أن يتقدَّم إلى مكان الخطابة، فقال: «أيها الأصدقاء! يا أبطال هيلاس! يا وزراء مارس!

لست أدري ما أقول ردًا على أخيل العظيم، بيد أنني سأفتح له قلبي، وأكشف لكم أمامه عن سريرتي، وسيد الأولمپ على ما أقول وكيل!

أبدًا والله ما كنت سبب هذه المأساة التي أوغرت بيننا العداوة، وأجَّجت نيران هذه البغضاء! وأبدًا والله ما آثرت أن يكون بيننا، ونحن في هذا الأمر ما نحن عليه، شيء من تلك القطيعة التي دفعنا ثمنها غاليًا: أرواحًا مطهرة، ودمًا زكيًا، وشبابًا أنضر الشباب!

أبدًا والله ما آثرت من ذلك شيء قط، ولكنها المقادير، ومشيئة سيد

الأولمپ، وهذه الربّات الغالبات، «أرينيس[1]» اللاتي تحالفن عليَّ فغشين بصيرتي، فأذهلنني عن نفسي، فأتيت على غير وعي مني، ولا هدى ولا برهان مبين!

ولقد ثاب إليَّ رشدي، وارتفع الحجاب عن بصيرتي، ساعة إذ أبصرت هكتور يأخذ جموعنا فيحصرهم بينه وبين البحر، كأشد ما يكون حصار بين موتين! عندها، ذكرت أخيل، وذكرت أنني آثم في حقِّ أخيل، وأن أخيل لو كان في هذه الحلبة لما ملك هكتور رشده، وما ملكت رجلاه أن تحملاه! فزاغت عيناي، واستبنت ضلالتي، واستغفرت الآلهة من أجل آثامي!

أخيل:

ما أعظمك حين نسيت غضبتك، وسعيت إلى خصمك، ومددت إليَّ يمينك من أجل الوطن! مرحبًا بك يا أخي؟ ومرحبًا بصلح يغسل الضغن، ويذهب بالجفوة، ويرأب ما انصدع من شملنا جميعًا!

على أني أرى أن أمهر صلحي وأؤكد محبتي، باللُّهَى الغالية، والهدايا العالية، وبكل مذخور ثمين، فهلم يا ابن بليوس هلم، هيئ الصفوف وجيِّش الفرق، حتى أعود إليك بتذكاراتي».

وأبى أخيل أن يلهو أحد في تلك الساعة، أو يشتغل إلا بالحرب والاستعداد ليوم الفصل، فشكر أجاممنون، ورجاه أن يلبث معه حتى يأخذ كل عدته، ولكن أوليسيز الجريح يتدخَّل، ويرجو أن ينطلق أجاممنون ويأتي بالعطايا واللُّهَى.. وبالغادة المفتان، بريسيز فتنة الفن،

(1) ربّات ثلاث من زبانية بلوتو ربّ الدار الآخرة (هيدز) في هيئة السعلاة، ولهن مكان الشعر ثعابين تتلوى فوق رؤوسهن يمزقن أجسام المجرمين من الموتى ويذقنهم سوء العذاب.

ونادرة الجمال، نقية كما هي، أخيلية كما فصلت من خدر مولاها يوم الخصام الأكبر، «وأنا أقسم لأخي على ذلك ويقسم عليه ويؤكده أجاممنون».

ويقسم عليه ويؤكده أجاممنون، ويغسل أقسامه بالدمع السخين ثم يأمر خادمه «تلثبيوس» فينطلق إلى حيث يأتي بخنزير سمين يذبحه ويطعم القادة منه.. ويحلف أخيل لا يذوقن من طعام حتى يعود بثأر صديقه وأعز الناس عليه بتروكلوس!.

ويلح عليه أوليسيز في أن يأكل: «لأن الحرب شاقة، ويومها دهر بأكمله، ومقارعة الأقران مجهدة للأبدان»، فما يزيد أخيل إلا إباءً.

وعاد أجاممنون.

وكان أوليسيز نفسه يتقدَّم الركب الذي أقبل من سفينة القائد العام يحمل هداياه لأخيل.. ونهض أجاممنون فأشهد الآلهة على نقاء القلب وصفاء النفس، ورضاء الضمير، ثم قدَّم الهدايا إلى ابن بليوس الذي كان يشهدها ويبكي!

وفي الحق، لقد كانت لُهَى أحسن اللُّهَى، وهدايا على قدر مهديها.

فهذه صناديق سبعة مقفلة، مُلئت بالدر واليواقيت والزبرجد وبكل ما علت قيمته من كتَّان مصر، وخزّ الهند، وحبر الشام.

وهذه اثنا عشر من صافنات الجياد كأنما ولدت في ليلة واحدة، ولوَّنتها الآلهة بألوان واحدة، وأضفت عليها عرائس الفنون من سحرها، فكانت كخيل يوربا!

وهذه عشرون دستًا من النحاس المزركش، حليت سطوحها بالميناء والفسيفساء، وتبارت في حفرها كل يد صناع وفكر عتيد، وفيها من أصناف الجوهر ما يبهر اللب ويشده القلب، ويذهب سنا برقه بالأبصار!

وهذه بدور[1] عشر من الذهب الخالص يحملها أوليسيز، ويتقدَّم بها أبكارًا سبعًا من جملة اللُّهَى كل منهن كأنها ڤينوس حقيقية، تميس كأنها بانة، وتبتسم كأنها أقحوانة، وتبدي عن الدر النضيد!

ثم...

هذه بريسيز! بريسيز الهيفاء، وأصل هذا البلاء، الدمية التي أُترعت بالمفاتن، وضافت عيناها بسحر الهوى!

هذه بريسيز تبرز فتخطف الأبصار، وتتقدَّم فتثب القلوب، تود لو تغمرها لمحة من جمالها النضر، وشبابها الفينان!

فهل رأيت العاصفة تقتلع الدوح، وتطيح بالأيك، وتهبّ على اليم النائم فيصطخب، والبحر الوادع فيضطرب، وعلى الغدير ذي الخرير فيرقص من رعشة، وكأن به مسًا من الخدر!!

تلك هي بريسيز حين تبدَّت للقوم!

لقد هتف أوليسيز هتفة ضاعت في انذهال الملأ بما يرى، على ما يُعرف من جبروت أوليسيز، وشدَّة أيْدِه.. ثم هتف فتلفَّت الناس وراح الرجل يكرِّر ما قيل من نقاء بريسيز وتمام طهرها، وأخيل مطرق ساهم، لا يكاد يعي ممَّا قال شيئًا!

واستل اتريديس خنجره، وهوى به على عنق الخنزير يذبحه، وهو في ذلك كله يصلّي لأربابه، ويسبِّح بحمد السماء، ويشكر لسيد الأولمپ ما أتمَّ من صلح شريف بين سليلَيْ الآلهة.

ونهض أجاممنون فقدَّم بريسيز إلى سيدها، وعقَّب بكلمة طيبة ثم أشار أخيل إلى الميرميدون فحملوا الهدايا، وانطلقوا بها إلى أسطولهم،

---

(1) البدور جمع بدرة وهي كيس المال.

ومعهم فتاة مولاهم في صفوف موسيقية، وفي موكب رهيب.

وانصرف القادة إلى زادهم، والجنود إلى ميرتهم، ولا حديث لهم إلا أخيل وفتاة أخيل، والصلح الذي باركته السماء، وكسبوا منه أن يكون فيهم أخيل!

أما بريسيز فقد وصلت سفينة مولاها، فشدهها أن ترى جثة بتروكلوس في لفائفها وأكفانها، وإلى هذه الأم البارة، ذيتيس، جالسة عندها تبكي، وتدافع أسراب الذباب، وتسقي القتيل خمرًا!

لقد كانت بريسيز تعجب بالبطل منذ قريب، ولقد تركته ممتلئًا صحة، موفورًا شبابًا، نضير الصبا ريّان الأهاب! ثم عادت فكان أشقّ شيء عليها أن تراه مسجى هكذا! لا نأمة ولا حركة ولا نفس! قتيلًا كأدنى من كان يقتل كل يوم روع، طعينا كأقل من كان يطعن كل يوم نزال!

دارت الدنيا بالفتاة، فراحت تملؤها ندبًا وبكاءً!.. واجتمع لديها الفتيات الأخريات يندبن ويبكين.

فما كان أروعه منظرًا، وما كان أشجاه إخلاصًا!

**

وأقبل فونيكس على أخيه يواسيه.

ولكن أخيل ما يرقأ له دمع، وما ينقطع له نحيب.

واطلع أرباب الأولمپ، فشهدوا ما يأخذ البطل من رُحْضَاء[1] الحزن، وبُرَحَاء[2] الأسى، فأشار زيوس إلى مينرڤا، فهبَّت إلى أخيل ترعاه، وتخفف عنه بلواه، فلمَّا كانت قاب قوسين من ابن بليوس، هالها

---

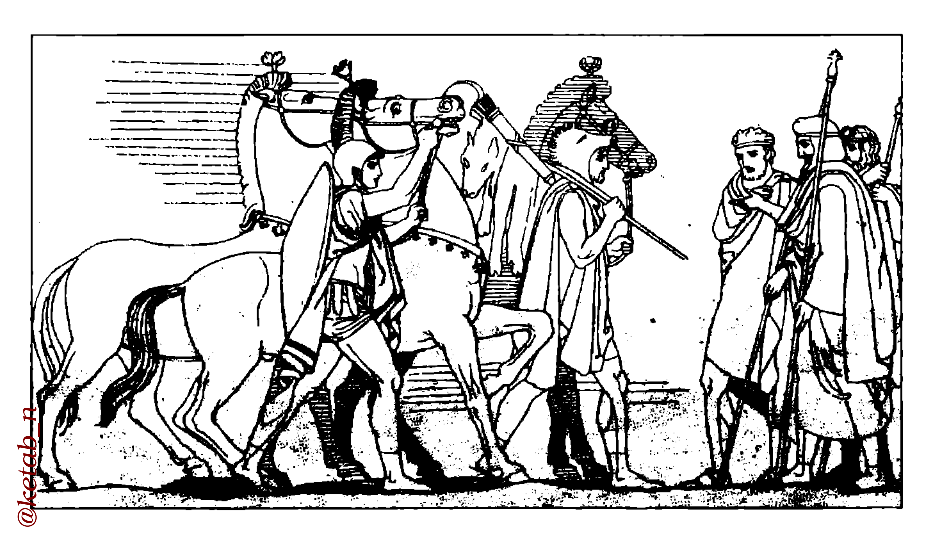
(1) الرحضاء: العرق الكثير يأتي بعد الحُمَّى.

(2) البرحاء: شدة الحُمَّى.

أن تراه يعصف به الحزن، ويوهنه الجزع، والجند مع ذاك قد اتخذوا مواقع للقتال! فما هي إلا أن أمرت فونيكس بأن يصب الخمر المعتَّقة على صدر صديقه لينقذه من ضيقه، وليخفف عنه وطأة الجوع. ويصدع فونيكس فيتقدَّم إلى أخيل كاشفًا عن صدره، ويصب السلافة الأولمپية فيشربها الجسم الضاوي، ويسترجع بها ما فقد من قوة، وما يفتأ يصب الخمر، وما يفتأ أخيل ينظر إليه مشدوها، حتى يكون في كل قوته من أثر المدامة، فيصيح صيحة الحرب. التي تهتز لها أبراج طروادة!

فانظر إليه مقنعًا في حديد ڤلكان، وانظر إليه تحت تلك الخوذة التي لم تصنع مثلها يد الإله الحداد، وانظر إليه يداعب حِرب شيرون، أستاذه السنتور العظيم، ثم انظر إليه كالبركان المضطرب يقذف النار من عينيه المغضبتين، ومن حوله الميرميدون يملأون الرحب ويسدون الشعب.

ويل لك يا هكتور!!



نسطور وأوليسيز وديوميد. (فلاكسمان).

فزع الآلهة

قلق زيوس من اعتزام أخيل اقتحام الحرب.

وكيف لا يقلق سيد الأولمپ وكل من الفريقين يصلي له، ويطلب منه العون، ويتوسَّل إليه أن يظفر بعدوه، فتنجاب هذه الغاشية التي صرعت الرجال، وضرَّجت أديم الثرى بدماء الأبطال!

ودعا إليه أربابه فعقد منهم مجلسًا للمشورة، فانتظم ديوان الأولمپ، وحفلت بهم ذروة جبل آيدا، وطفق الإله الأكبر يقلِّب الرأي على جميع وجوهه، ويبحث المسألة من شتى أطرافها، والأرباب فيما بين ذلك يحملق بعضهم في وجوه بعض، وتضَّطرم في أفئدتهم نيران العداوة والبغضاء، لأنهم كانوا جميعًا وقلوبهم شتى فهذا فريق منهم يعطف على طروادة، ويشيد بذكر طروادة بل منهم من اشترك في بناء طروادة، واقامة أسوارها وتمكين صَيَاصِيهَا، والطرواديون من أجل هذا قد أخلصوا العبادة لهؤلاء فأقاموا لهم الهياكل المشيَّدة، والمعابد المنيفة، وهم في طويل الأحقاب والآباد ما يفترون عن عبادتهم والإخبات[1] لهم، وتقديم القرابين والضحايا بأسمائهم.

---

(1) الإخبات: الخضوع والخشوع.

وفريق آخر من الآلهة يعتبر الشعب الهيلاني شعبه المخلص، فهو لذلك يحدب عليه، ويرجو له الخير، وهو أبدًا يستأذن سيد الأولمپ فيحارب في صفوفهم، ويشد أزرهم، ثم الهيلانيون يخلصون العبادة لهذا الفريق وهم أبدًا يتعلّقون بهم، ويقيمون المعابد لهم في كل حنية من جبالهم وبكل منعرج من شعابهم، ومنهم كل مثّال صناع اليد، مرهف الحس، رفيع الذوق، وهم لذلك ملأوا المعابد والهياكل بتماثيل الآلهة، حتى ما تقع العين على أجمل منها!

وفريق ثالث لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ينقم على هذه الحرب الشعواء التي سُعِّرت لغير ما سبب يستأهل كل تلك الضحايا ويستحلّ كل هذه المُهَج، وهذا الفريق يحنق على طروادة ويحنق على هيلاس على السواء ويَوَدّ لو يأذن سيد الأولمپ فيزلزل بهما الأرض، ويرسل عليهم كِسْفًا[1] من السماء، فلا يبقي على أحد منهم أبدًا!

واتفق الآلهة على أن يذهب فريق منهم فيكون في صفوف الطرواديين يرشدهم، ويدفع عنهم عادية أخيل، ثم يذهب فريق آخر فيكون في صفوف الهيلانيين يفلّ من نشاطهم، ويكسر من سورتهم، حتى تكون الحرب بين الجمعين سجالًا، وإلى أن يرى الآلهة في شؤون خلقهم رأيا آخر.

وانطلقت حيرا مليكة الأولمپ، ومينرڤا ربّة الحكمة، ثم هرمز رسول الآلهة وقائد الأرواح إلى هيدز، وڤلكان الحداد إله النيران، الذي فضحه «مارس» في زوجه، ونپتون ربّ البحار العتيد الذي روَّع الطرواديين في هذه الحرب أيَّما ترويع.

وانطلقت ڤينوس إلى صفوف الطرواديين، وراح في أثرها أپوللو

(1) كسفًا من السماء: قطعًا ساقطة من السماء.

وأمه لاتونا وديانا ومارس واكسانثوس، وفئة غير هؤلاء من عشّاق ڤينوس.

وأنبثَّ الآلهة ينفخون في أبواق الحرب.

وصاح أخيل في شياطين الميرميدون صيحة مدوية. زادتها مينرڤا قوة، فما تركت فؤادًا إلا زلزلته، وما غادرت نفسًا إلا تركتها ترجف من خوف وفزع.

وكان أپوللو ينظر إلى أخيل فيتميَّز من الغيظ، ويودّ لو يبطش به في غدرة من غدراته التي أودت ببتروكلوس من قبل، ولكنه أحسَّ بفرائصه ترتعد، وفقاره يندك من الرعب، لما رأى حول أخيل من هذه الأرباب المتعطشة للدماء، لا سِيَّما هذا الإله الوحش نپتون الذي كان يرسل من عينيه بركانين من الغضب يضطرمان اضطرامًا.

وآثر أپوللو أن يستخفي في زي ليكاون بن پريام وصوره، وأن يذهب من فوره إلى اينياس العظيم مستشار طروادة وأبسل شجعانها بعد هكتور، فيثيره على أخيل ويلهب فيه نخوة الجاهلية التي سداها التفاخر بالأنساب، ولُحْمتها التباهل بالأحساب، والتبجّح بأنا ابن من سَمَكَ[1] السماء، ودحا الأرض، وأنبت فيها من كل زوج بهيج!

واستطاع أپوللو أن يهوِّن على اينياس من شأن أخيل، وأن يحقِّر في ناظريه خطبة، واستطاع ببيانه الموسيقي، وطلاقته السحرية أن يدفعه إلى ناحية أخيل، الذي وقف مكانه يقذف الرعب في قلوب الطرواديين وأحلامهم، باحثًا عن غريمه البغيض، هكتور بن پريام، يود لو يُخلى بينه فيبطش به ويشفي هذا اللظى الذي يتأجَّج في جوانحه، لقتله أعز أصدقائه، وأحبّ الناس إليه.

---

(1) سَمَكَ السماء: رفعها.

ووقف اينياس تلقاء أخيل، فتبسَّم زعيم الميرميدون، ووعظ المحارب أن ينثني فلا يلقى حتفه، وذكَّر بما حدث بينهما قديمًا، حين ساق أخيل قطعان اينياس السائمة في سفح جبل آيدا، وما كان من فرار اينياس، هذا الفرار المضحك، الذي أشمت به الأعداء، وأثار عليه سخرية الأصدقاء والأوداء!

ولكن اينياس، الذي كان لا يزال مأخوذًا بسحر أپوللو وموسيقاه أبى واستكبر، وهزَّ أعطافه، ثم أخذته العزة بالإثم، وانطلق يقذف في وجه أخيل بهذا التفاخر الذميم الذي لا يجدي في حلبة الحرب نفعًا. ولا يجرّ على صاحبه مغنمًا، يوم لا حكم إلا للمرهف البتَّار، ولا قول إلا ما يقول الفيلق الجرَّار.

والتحم المحاربان العظيمان!

وارتطم الصخر بالصخر، وثار النقع في الميدان وأظلم حتى تهاوت كواكبه، ونظر الجمعان نظرة القلق الحيران، وأخذ الذهول يضرب أطنابه على الساحة الحمراء، ونظروا فرأوا اينياس يستجمع كل قوته، ويقذف برمحه العظيم فتردُّه درع ڤلكان، وإن تكن الطعنة قد شقت منها طبقتين، ثم فترت، فلم تصل إلى فؤاد أخيل.

وهنا! اشتعلت نيران الدنيا في عيني زعيم الميرميدون، وذاب في أعصابه حميم من الغضب، وأرسل بدوره رمحه الهائل يرن على درع اينياس فلا يصيبه بأذى، ولكنه لعظم الطعنة، يصرعه ويطرحه فوق أديم الثرى فريسة رخيصة لغوائل الردى، وضربات الرقاق البيض.

وينحني أخيل من عربته الفخمة، فيتناول حجرًا عظيمًا، ينوء به العصبة من صناديد الرجال، ثم يرفع الحجر ليقِدّ به جمجمة اينياس..

ولكن!

لا! ينبغي ألا يُقتل اينياس، لأنه ابن زيوس سيد الأولمپ، وهو لو قُتل لم يرضَ به أبوه ألف ألف أخيل، وألف ألف جيش من ميرميدون أخيل!

هكذا قدّر نپتون، وقُتِل نپتون كيف قدَّر!

لقد أرسلها إلى حيرا، مليكة الأولمپ، التي كانت قريبة تشهد الحدث الأعظم، قولة غير صادقة إلا في زعم نپتون!

وعارضت حيرا في تدخل نپتون، ولكنه، لشدة حبه لأخيل لم يسعه إلا أن يسرع فينشر أمام ناظريه ضبابة كثيفة حجبت عنهما هدف اينياس، ثم انكفأ يحمله بعيدًا عن أخيل، حتى انتهى إلى صفوف الطرواديين الخلفية، فسجَّاه على العشب الأخضر، وأخذ في نصحه ألا يجازف بنفسه أمام أخيل كرَّة أخرى!

وكان الجمعان ينظران إلى اينياس محمولًا في الهواء.. فيأخذ العجب منهما كل مأخذ!

**

وامَّحت الضبابة، وبطَلَ السحر، ونظر أخيل فلم يعثر لاينياس على أثر، وشدهه أن ينجو خصمه من قتلة محقَّقة، فيلقى في روعه أن اينياس سليل الآلهة، كما ادعى منذ لحظة، ثم يشدهه أكثر، تجابن الميرميدون والهيلانيين على السواء بعد إذ رأوا اينياس محمولًا في الهواء!

ويحضّهم أخيل على خوض المعمعة، ويستطيع بحماسته أن يلهب في صدورهم روح الإقدام.

ويكون هكتور في هذه اللحظة قائمًا في جنوده يحضُّهم هو الآخر ويطمئنهم أن الآلهة معهم فلا يخافون ولا يحزنون، ويراه أخيل فيخفق قلبه، ويعلو صدره ويهبط كأنه الخصمّ الغاضب. ويدفع عربته نحوه،

فتندفع الخيل، وكأن النيران تندلع من عيونها وأنوفها.

وكان أپوللو إلى جانب هكتور، فلم يرضَ له أن يلقى أخيل الذي ما خاض المعمعة إلا ليثأر لصديقه بتروكلوس.

وكاد هكتور ألا يأبه بكلام أپوللو، وتقدَّم فعلًا ليلقى أخيل، ولكن الإله الكبير زجره زجرًا شديدًا، ثم أمره بالتقهقر في الحال.. فانسحب بطل طروادة، وترك أخيل يحرق الأرم مكانه، إذ أفلته هذا الصيد الثمين!

وانقضَّ أخيل يشفي غيظه بقتل عشرات وعشرات من أبطال طروادة فصرع ايفتيون العظيم ابن عذراء البحر، ثم ثنى بالكميِّ الكبير ديموليون فشجَّ رأسه فانبثق الدم يتفجَّر منه، وبرز المخ، وذهبت روحه إلى هيدز! ثم ثلث ببطل الأبطال هبوداماس، شكّه شكّة فتركه يخور كخوار الثور، مسوقًا إلى مذبح الآلهة.. ثم انقضّ على بوليدور بن پريام، ملك طروادة فطعنه في ظهره طعنة صرعته. ونشرت ظلام الموت في عينيه. فهوى إلى الأرض يئن أنينًا مؤلمًا، أبكى الجند وأحزن أخيل نفسه.

لقد كان بوليدور أحبَّ صغار پريام إليه، وكان يجري فيسابق الريح وينازل القروم الصيد، فيصرعهم عشرات ووحدانًا، فيا حزن أبيه الملك عليه بعد اليوم!

وكأن ظلام الموت الذي خيَّم على عيني بوليدور امتد حتى ظلَّ عيني هكتور! ولم تكن الحياة رخيصة في نظر بطل طروادة مثلها اليوم. فقد فجعه أخيل في بوليدور، فلا بد أن يفجع ذيتيس وبليوس والدي أخيل في أخيل نفسه.

وألهب جياده فاندفعت بعربته ناحية أخيل..

واستبشر زعيم الميرميدون حين رأى هكتور يسرع ناحيته قُدُمًا، وذكر أنه قاتل بتروكلوس فدارت به الأرض، وذكر أن بتروكلوس ينتظر

ثأره ميتًا، ولا بد أن يعود أخيل إليه به، فتقدَّم نحو هكتور وقال له:

«هلم يا ابن پريام فتعجَّل قَتْلَتك، وودِّع الحياة الحلوة التي لن تهنأ بها بعد اليوم!»

وتهجَّم هكتور وكلَّم أخيل فاعترف أنه أقوى منه وأطول في مواقف الحرب باعًا، ولكنه حذَّره من الغرور: «ومن يدري؟! هل أوحت إليك السماء أنك تقتل هكتور؟ وهل أخذتَ على المقادير عهدًا ألا يصرعك هكتور..» ثم انقضّ ابن پريام فأرسل حربته الظامئة إلى صدر أخيل، ولولا أن مينرڤا كانت إلى جانبه تحرسه، ولولا أنها زحزحته قليلًا فتفادته الطعنة.. لكان أخيل حديثًا من الأحاديث.

وبُهت أخيل، ثم صاح صيحة رجف لها جانب الجبل، وجاوبتها أسوار طروادة، وردَّدت أصداءها أحواز السماء، وانقضّ على هكتور يود لو يقتلعه من عربته فيضرب به الأرض، وتذهب روحه بعدها إلى الجحيم!

وكان أپوللو إلى جانب هكتور هذه المرة، كما كان إلى جانبه دائمًا.

وراع الإله الأكبر أن يهجم أخيل تلك الهجمة التي يعجز عن مثلها مارس الجبَّار نفسه..

وذُهل أپوللو ماذا يصنع، ليقي بطله من رمح أخيل؟!

ثم ذكر ما صنعه نپتون مع اينياس، فنشر ضبابة كثيفة أمام عيني أخيل، وتقدَّم إلى هكتور فحمله، وذهب به إلى حيث يكون بنجوة من مصير محزن، كان يوشك أن ينتهي إليه..

وظلَّ أخيل يطعن الضبابة، مشدوه اللب حيران!

طعنها مرَّة، ثم مرَّة ثانية، ثم ثالثة، ثم ما كاد يطعنها الرابعة حتى

امَّحت وبطل السحر، وانكشف له الميدان يضجُّ بالجند، ويعجُّ بعدَّة الحرب، ولكنه مع ذلك، وغير ذاك.. خلوّ من هكتور!

«جميل يا هكتور! صلِّ للإله الذي أنقذك اليوم مني! صلِّ لربك أپوللو! لقد أنجاك من قتلة بيِّنة، وموتة محقَّقة.. صلِّ له يا هكتور! ولكن ثق أننا سنلتقي بعدها، ولا أدري هل ينقذك إلهك عندها؟! إن لي أربابي التي تحميني، والتي إن فوجئت بغادر مثلك فهي تنجيني.. سنلتقي يا هكتور.. فصلِّ الآن لأپوللو...».

وثار أخيل فكان زوبعة!

وطفق يصرع أبطال طروادة، فطعن دريوس طعنة اخترمت حياته، ثم جندل ديماخوس وأسرعت روحه إلى أمواج ستيكس المنصهرة، وتقدَّم فأطاح رأس داردانوس العتيد، وجال جولة هنا وجولة هناك، فكانت المنايا تتعثَّر أنى ذهب، وإيَّان سار، فهذا «تروس» البطل ملقى على الأرض والدم ينبثق من كبده، ومولیوس الصنديد زائغ العينين يتوجَّع مما ألمَّ به، وأخكلوس بن أجينور تساقط نفسه حشاشات، ثم ديكاليون الذي دوَّخ الجيوش وروَّع الأبطال، وبثَّ اليتم في كل دار.. ها هو ذا فوق الثرى جسدًا مثخنًا، وجثمانًا يتدفَّق الدم من جراحه.. نهاية حمراء لحياة حمراء.. كلُّها حرب وتقتيل!

ورجموس!

رجموس بن بريوس! الذي شدَّ رحله من تراقية لينصر الطرواديين على بني وطنه.. فقاد جموعه التي لا حصر لها، مؤلِّبًا القبائل والأفخاذ على الأرض التي أنجبته، والآلهة التي أنشأته.. لماذا؟ لا سبب معقول ولكنه طيش المُلك وغروره وكبرياؤه.. ولأن الهيلانيين لم يختاروه قائدًا لهم في هذه الحرب الزَّبون.

لقد امتشق أخيل سيفه، وأصلته على رأس رجموس ثم أهوى به، فخر الخائن يتشحَّط في دمه.. وانتهت بموته حياة ذميمة.

وزلزل قلب أزيثود.. حارس رجموس وسائسه. فودَّ لو فرَّ بعربة سيده، لولا أن عاجله أخيل بضربة قدَّت أضالعه، وذهبت بروحه إلى حيث ذهبت روح مولاه..



الآلهة تحارب إلى جانب الطرواديين. (فلاكسمان).

طوفان

تَفَزَّع الطرواديون مما أخذهم به أخيل، وزادهم خبالًا هذا الظلام الذي راحوا يضربون فيه على غير هدى، والذي كانت حيرا تمُدّ في دياجيره فيتدجَّى فوق الساحة الصاخبة، ويمكّن لابن بليوس من أعدائه فيضرب في أقفيتهم، ويهوي على أعناقهم، ويمسح بسوقهم ويضرب كل بَنان.

وضاق الجسر بجموع الفارّين، فاضطروا إلى خوض عباب النهر الزاخر، وخوَّضوا بخيلهم وأرجلهم.. وتطامن لهم سكمندر[1] فسكنت أواذيُّه، ونامت جراجره، وانكشف قاعه عن حصباء كالدر النضيد وتبعهم أخيل فخاض مياه النهر، ثم أعمل سيفه ورمحه. فكانت شآبيب الماء تختلط وشآبيب الدماء، وأنين القتلى يمتزج بأصداء المنهزمين والجماجم المتناثرة تصطدم بالأشلاء الطافية هنا وهناك، والسماء الكاسفة ترسل عقبانها تتغذّى بالجَزَر المتساقط في رحب المعركة، من بطون مبقورة، وهامٌ[2] مفلّقة، ولحم مفروم.

---

(1) النهر المحيط بطروادة.

(2) هامٌ جمع هامة وهي الرأس.

واستطاع أخيل أن يحصر اثني عشر شابًا فيأخذ عليهم سبيل الفرار، وفضَّل أن يرسلهم إلى سفائنه أسرى حتى لا يثخن في الأرض، وحتى يشهدوا هناك ذلك القتيل المسجّى، تسقيه ذيتيس الحزينة خمرًا، فكبَّل أرجلهم وأيديهم من خلاف، وأوكَّل أمرهم إلى جماعة من رجاله فقادوهم إلى الأسطول، بعدما وقفوا هُنيهة أمام جثَّة بتروكلوس، يؤدون لها تحية المعركة التي دارت رحاها عليهم واصطلوا من بعده بنارها. وطفق أخيل يأخذ الجموع من كل حدب، ويلقاهم في كل صوب، حتى كان وجهًا لوجه أمام «ليكاون بن بريام»، الذي كانت له معه قصة قديمة مشجية، زمان إذ أسره أخيل واستاق قطعانه، وحبسه في جزيرة لمنوس، حتى افتداه أهله من الحرس الموكل به، ورشوهم بمائة ثور جسد ذي خوار ليطلقوا سراحه!

مسكين «ليكاون بن بريام». لقد فرَّ من جزيرة لمنوس منذ اثني عشر يومًا فقط، وسعى إلى هذه الساحة النكراء ليلقي فوق أديمها حتفه، كما لقيه أخوه بوليدور من قبل.

ودُهش أخيل إذا رأى ابن بريام يذرع الميدان أمامه، وعجب كيف أفلت من منفاه السحيق في عرض البحر. ثم أيقن أن في الأمر مكيدة فانقضَّ على الفتى المسكين انقضاض الباشق، وأرسل إليه طعنة نجلاء كادت تخترق أجله، لولا هذه الفتلة الرشيقة التي انفتلها الشاب فأنقذت حياته.. ولو إلى حين!

وفتح الفتى عينيه فنظر إلى شبح الموت تنتشر سماديره من ظبة سيف أخيل، وأحسَّ كأن هذا الشبح يلاحقه في كل مكان فيقبض على عنقه ويضغطه، ثم ينشب فيه أظفاره فيسري السم في هيكله الخاوي فلا يكاد يبين!

وحاول أن ينجو من روع هذا الموقف.. ولكنه كان أبطأ من حتفه الذي يسابقه، فلما أيقن أن لا سبيل إلى الفرار، ألقى سلاحه وتقدَّم إلى أخيل فقبَّل ثرى الساحة عند قدميه، ثم لفَّ ذراعيه المرتجفتين حول ساقَي زعيم الميرميدون، وطفق يضرع إليه يقتله.. «فإن لي أمًّا محزونة ما تفتأ ترسل دموعها على أخي بوليدور الذي قتلته منذ لحظة، والذي أذويت شبابه النضر ولم تبقِ على عوده الفينان، ولم ترحم فيه قلوبًا تعطف عليه، وأبًا شيخًا أصبتَه في ولده بقاصمة الظهر.. أرسلني يا أخيل تباركك الآلهة وترعاك أرباب الأولمپ، ولا تفجع في ذينك القلبين الحنين عليّ، الحفيين بي..».

وكان الفتى يغسل توسلاته بعبرات شبابه، ويصهرها بآهات صباه.. ولكن أخيل الذي يضطرم حزنًا على بتروكلوس، لم تأخذه رحمة في ابن پريام المسكين، وأخ هكتور الذميم..! بل استلَّ جُرازه البتَّار وأهوى به على عنق الفتى.. فطاح الرأس الطروادي الكريم..

وكان البطل الطروادي العظيم، سترابيوس بن بلجون، ربّ البركات الذي يدين له بحياته اكسيوس ربّ النهر الشرقي الكبير..

كان سترابيوس على مقربة من أخيل وهو يصرع ليكاون بن پريام، فجزع ـ شهدت الآلهة ـ على ابن الملك، وأحزنه ألا يرقّ أخيل لتوسّلاته، ووَقَرَ في نفسه أن يقتصَّ له من هذا الشيطان، ويخلص الطرواديين منه، فيطير ذكره في الخافقين ويقترن اسمه بما لم يقترن به اسم أحد في العالمين. فيمَّم شطر أخيل والكبرياء تنفخ أوداجه والغرور يشيع في أعطافه، ثم هزَّ رمحه هزَّة المتحدّي الخصيم وزجره أخيل فلم يزدجر، فانقضّ عليه انقضاض الحتف، وأخذه أخذ المنية، لا تجدي فيها إذا أنشبت أظفارها التمائم، ولا تدفعها الرقى، ولا تُفلت مَنْ قصدته ولو كان في برج مشيد!

وأرسل أخيل رمحه كالصاعقة، ولو لقي الصخر لقدَّه، أو الجبل لنفذ فيه، ولكن سترابيوس كان أرشق من أن يتلقّى الطعنة، فانزلق انزلاقة خفيفة أذهبت الرمح في الهواء، ثم هوى إلى الأرض فغاص فيها، ثمّ راح يداعب أخيل حتى أحنقه وحتى بلغ الغيظ منه، فامتشق ابن بليوس سيفه وصرخ صرخة رجفت لها السماء، وانصدع من هولها جانب الجبل، وهجم على سترابيوس هجمة رابية فلم يفلته، بل أرسل السيف في بطنه فخرج سنانه يلمع من ظهره، وبرزت الأمعاء فاجتمعت حولها طيور الماء، تنوشها وتتغذى بها.

وريع سكمندر، ربّ النهر العظيم، إذ نظر فرأى ابن ضيفه المقدام، يلفظ أنفاسه، ويساقط نفسه، فدارت الأرض به، وضاقت عليه بما رحبت، وتجهَّم من توه لأخيل وودَّ لو انشق فابتلع ابن بليوس آخر الدهر، أو لو يأخذ هو سيفًا فيقد به أضلاعه، ويطيح به رأسه. ويريح العالم من بأسه. ولكنه آثر، كإله له وقاره، أن ينذر أخيل ويأخذه بالحيلة، فخاطبه من القرار، فقال: «أخيل يا ابن بليوس العظيم! أنا لا يهمني أن تصطلم الطرواديين جميعًا، ما دام زيوس قد سلَّطك عليهم ورماهم بك.. أنا لا يهمني من ذلك شيئًا.. ولكنّ الذي يحزنني ويضيق بي صدري هذه الجثث الكثيرة التي يعج بها عبابي، وينتشر منها الخبث في أرجائي.. لقد انتنتُ يا أخيل، وخالطت عذوبة مائي، ولم يعد لي بها طاقة، ولا عليها جَلَد.. وهي إلى ذلك كادت تقف تياري، وتشل حركتي.. فهلم ارفعها عني، وتوقّف عن التصريع والتقتيل حتى تطهر مجراي من أدرانها وحتى ألفظ أنا إلى البحر ديدانها».

وتبسَّم أخيل قائلًا: «أمَّا أن أوقف هذه الحرب فلا سبيل إلى ذلك حتى آخذ بثأر بتروكلوس، وحتى أدكّ طروادة على رأس هكتور، فأمَّا أن ألقاه فأقتله وأمَّا أن يلقاني فيقتلني، وأمَّا أن أطهِّر مجراك من هذه

الجثث الطافية فوقه فليس لي الآن بذلك يدان.. أو تضع هذه الحرب أوزارها..».

وحنق سكمندر العظيم، وانطلق إلى أپوللو يكلِّمه في أمر أخيل، ولم يدعه أپوللو حتى أغراه بابن پليوس أعدى أعدائه، وأشد شانئيه وحتى أثاره عليه، وهاج فيه كل حقد دفين. وعاد سكمندر فأشار إلى الماء فعلا وفاض، وإلى الموج فتلاطم وجرجر، وإلى الأَوَاذِيِّ فدوَّمت وهوَّمت، ولاحقت أخيل من ههنا وههنا، وفطن ابن بليوس إلى الخطر الذي أوشك أن يحيق به فهرع يحاول الفرار.. ولات حين فرار.. فقد أربدّ الموج، وانساب العباب، وتشقَّقت الأرض عيونًا ومسايل، وعمقت اللجَّة، وبعد ما بين سطحها وبين قدمي أخيل، أو ما بينه وبين قرارها، فأطلق المسكين ذراعيه يسبح في أغوارها، ويتعلَّق بالجثث الطافية فوقها.

واشتدَّ الخطب، وعظم الكرب، وصرخ أخيل يستنجد أربابه، فما كادت حيرا تسمعه حتى فزعت إليه، وأمرت ڤلكان ابنها فانطلق يجفِّف الأمواه بنيرانه ويرسل على الطوفان بدخانه، ويستعين في كل ذلك بآلهة الريح التي هرعت إليه من كل صوب تساعده، وكان زفيروس[1] الكريم يهب على النهر اللجِّي سجسجًا[2]، ويذهب منه بكل مزنة مثقَّلة، وديمة محمَّلة، فلم يمضِ غير بعيد حتى صفا الجو، وغاض الماء، وبرز أخيل يحمل عدته، فطربَت الآلهة لنجاته، وانقضَّ ڤلكان على سكمندر يحاول أن يثأر لأخيل منه.. ولكن سكمندر يعاهد حيرا ـ إذا هي صدَّت عنه ولدها ڤلكان ـ أن يحصر الطرواديين بموجه، فلا يمكنهم من

(1) زيفروس: إله الرياح الغربية عند الإغريق.

(2) السجسج: الهواء المعتدل بين الحر والبرد.

الدخول إلى مدينتهم، ويجعلهم بذلك هدفًا لأخيل يصنع بهم ما يشاء!

**

وتُثار الخصومة بين الآلهة لموقف ڤلكان من سكمندر.. ويغيظ مارس من مينرڤا أنها تؤيِّد ڤلكان وتحرِّضه على ربّ النهر المسكين الذي أفزعته النيران تأخذه من كل حدب.. فتقدَّم إليها وطفق يقرّعها وتقرّعه، ويرميها بالمثالب وترميه بها.. ثم تناول رمحه العظيم واستجمع كل قوته، وأرسله يودّ لو يقضي به على ربّة الحكمة الحازمة، ولكن، ويل لك يا مارس لقد ارتدّ الرمح، لم يستطع إلى درع مينرڤا من سبيل، وانحنت الآلهة المغيظة فأخذت حجرًا من أكبر حجارة الجبل وقذفت به مارس فدقَّت عنقه وقصمت ظهره وتركته على السفح الشاحب لقىً من ألقاء هذه الحرب!

وظل مارس ممدَّدًا على السفح يخور ويئن، ويتلوَّى بجثته العظيمة[1] التي كانت ترتطم بالجبل فتميد به وتهزه هزًا شديدًا.

وأقبلت ڤينوس فوقفت تواسي مارس وتهوِّن عليه ما فعلت به مينرڤا، ثم أنهضته وانصرفت به، ولكن حيرا أرسلت في أثرهما مينرڤا ترى ما يكون من أمرهما.. بعد كل تلك الفضائح التي لوَّثت شرفهما، وجعلت اسميهما مضغة في جميع الأفواه.

وأقبلت ڤينوس على مارس تشفي حرقة في قلبه، وتنيله من ألطافها ما تنسيه به بعض الذي لقيه من أذى.. ولكن مينرڤا أهابت بهما..! وطفقت تنصح لهما أن يدعا طـروادة فلا ينصراها على شعبهما المختار.. هيلاس العزيزة! ولكن..! لقد أسمعت لو ناديت حيًا! لقد أعطت ڤينوس پاريس موثقًا، وإن ڤينوس لصادقة!.

---

(1) جاء في الميثولوجيا أن طول مارس سبعمائة قدم.

وانطلق نپتون يعظ أپوللو، ويصرفه هو الآخـر عن مـؤازرة الطرواديين، فذكر له يوم أن نفاهما زيوس إلى أقصى الأرض، فأتيا إلى طروادة، وعملا في خدمة أميدون الجبار ملك طروادة، الذي لم يتورَّع أن يرسل أپوللو فيرعى له قطعانه، ويسمن نعمه وشاءه، كأن لم يكن أپوللو ابن إله عظيم، وكأن لم يكن هو نفسه إلها عظيما!!

«أتذكر هذه الأيام يا أخي أپوللو!!.. أتذكر أيام أن كان هذا العاتية العنيد يسومنا الذل، ويقهرنا غاية القهر، وينزل بنا أشد ألوان الخسف، متذرِّعًا بغضب سيد الأولمپ علينا، لا تأخذه بنا رحمة، ولا يهمه أن نتبرَّم ونتسخَّط، ما دام ـ فيما كان يزعم ـ يؤدي ما أمره به أبوك زيوس!!».

فيم هذه المناصرة كلها لطروادة يا أپوللو «.. ماذا تذكر من حسنات لملكها اللعين أميدون؟! أنسيت يوم أسخطناه بالتراخي قليلًا في عملنا، فأمر بنا فقطعت آذاننا وشد وثاقنا وأصبحنا ضحكة كل راءٍ؟! لا لا يا أپوللو.. أنا لا أرتضي لك أن تكون غبيًا إلى هذا الحد..».

وعملت فيه كلمات العم نپتون عملها، فعاهده ألا يخوض غمار هذه الحرب كرَّة أخرى، وقاسمه ألا يسدِّد فيها بعد اليوم سهمًا.. ولو عيَّرته أخته ديانا ألف تعيير.

وماذا لو عيَّرته ديانا، ورمته بالجبن أمام نپتون؟! ها هي ذي حيرا تسمع إلى ربّة القمر، فتقذفها أشنع القذف وأمرَّه[1]، ثم تهجم عليها فتكبِّلها، وتنثر كنانة سهامها، وتمضي بعد ذلك لشأنها.. وتأتي لاتونا ـ أم ديانا الباكية ـ فتواسيها وتذهب وإياها إلى زيوس، المتربِّع فوق سَدّة الأولمپ فتشكو إليه ما لحق ابنتها من زوجه.. ويغضب الإله.. لأنه ليس له على حيرا يدان...

---

(1) لم يتورَّع هوميروس أن يتقاذف الآلهة بأخس ألوان الفحش، فأثار بين حيرا وديانا سبابًا ليس مثله سباب لا نستطيع إيراده هنا.

ويتم الظفر لأخيل وجنده بعد أن ينسحب أپوللو من المعركة، فيأخذ الطرواديين أخذ عزيز مقتدر، ويقف پريام الملك في برج شاهق، يطّلع على الساحة، ويشهد هزائم جنده، فتدمع عيناه.. ويأمر بالبوابة الكبرى فتفتح، ويهرع الجنود ناحيتها فرارًا من أخيل وشياطين أخيل، ولكن أخيل وشياطين أخيل تشطر الجنود الفارّين شطرين، بل يستطيع أخيل وكوكبة قوية من الميرميدون أن ينفذوا إلى البوابة الكبرى، ويدخلوا طروادة فاتحين..!!

وهناك! يظهر لهم أجينور البطل الطروادي الحلاحل، ويأخذ مع أخيل في ملامحاة عنيفة، ثم يتقارعان برهة، ويصاول أحدهما الآخر. ويكون.. أپوللو إلى جانب أجينور يحضّه ويحرِّضه، ويثبِّت قدميه.. ناسيًا مواثيقه التي قطعها على نفسه أمام نپتون..

ويهم أخيل أن يبطش بفتى طروادة.

لولا أن يعزّ على أپوللو أن يلحق أجينور بصاحبه استرابيوس من قبل، وبعشرات الأبطال من مثل استرابيوس، فيتقدَّم إلى أجينور يحميه، ويرسل عليه سحابة بيضاء فيحمله فيها.. مضللا أخيل عن خصمه ومبعده خارج البوابة التي يقفلها الطرواديون من دونه.

مصرع هكتور

اختلط حابل الطرواديين بنابلهم، وظلوا يهرعون إلى الأبواب حذر الموت الذي يتلقفهم عن شمائلهم وعن أيمانهم، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم، كأنما جثمت المنايا في كل خطوة فهي لهم بالمرصاد.. طالما يكرُّ أخيل هنا ويفرُّ هناك، وتكرُّ من خلفه وتفرُّ شياطين الميرميدون، صائحين متهدجين «يا لثارات بتروكلوس!».

ووقف أپوللو وهو يتميَّز من الغيظ يشهد المعركة، ويرى أخيل يحصد تلك الرؤوس اليانعة التي لم يحن بعد قطافها، فلم يملك أن دنا منه وقال:

«على رسلك يا ابن بليوس، فكأني بك ما كفاك مَن صرعت حتى لتحدثك نفسك بقتال الآلهة، ومحاربتي أنا من دون أرباب الأولمپ خاصة! ولكن هيهات! فإنك لا بد يومًا ذائق الموت الذي لن يذوقه إله في الأرض ولا في السموات.. فاقصد في تقتيل هؤلاء الأبرياء، ولا يغرنَّك نصر قد تكون في آثاره هزائم..».

وعبس أخيل عبوسة قاتمة، ثم نظر إلى أپوللو مغضبًا وقال: «حسبك يا سيد الشمس ما ضيَّعت من جهود، وما فوتَّ عليَّ من ثارات، اعرج في سمائك الشاسعة، ودع بني الموتى يصطرعون من أجل المجد

والشرف.. لقد انقذت خصمي من قتلة محقَّقة، فهل يا ترى تظل يا سيد الشمس تعترض طريق الأقدار، ليمرح في كنفك الفجَّار الأشرار؟».

وانطلق أخيل يعدو في أثر هكتور، وكان هكتور قد أخذته العزة أن ينجو بنفسه فيدخل المدينة مع الداخلين.

وكان پريام، الملك الشيخ، يشرف على الساحة الحمراء من أحد أبراج مدينته، فرأى ابنه واقفًا في إحدى حنيات الأسوار يستجمّ ويرسل في رهج الميدان عينين سادرتين محزونتين، تشفّان عن قلق عميق، واضطراب دويّ، فريع الأب المفؤود، وزلزل زلزالًا شديدًا وطفق يئن أنينًا عاليًا، ويضرب صدره الموهون بيديه الواهيتين، ثم يصيح بابنه أن يسارع إلى البوابة الاسكائية قبل أن يلحق به أخيل، عسى أن ينجو ممَّا يتربَّص به من منون.

«أي بُني! هكتور! فيمَ تقف في هذا الميدان وحدك تنتظر الطاغية أخيل عليه لعنة السماء والآلهة، جزاء قتله بني، وإهداره دماء مواطني!

هلم يا بني فحسبي ما جزعت على بوليدور، وحزنت أمضّ الحزن وأوجعه على ليكاون، وما حطَّم قلبي من الأسى على أبناء إليوم!

هلم يا بُني فأنت أمل طروادة ومعقد رجائها، وليس لها بعدك من وليّ ولا شفيع!

هلم فأبوك الشيخ قد صدَّعه الحزن، وأوقرت ظهره ويلات الحرب وأغطشت عينيه إزاء هذا البلاء، فلا تكن أنت محنة المحن التي تحِلّ به، واستبقِ شبابك له يتسل بك، ولأمك المفجعة تستلهم بقربك الصبر، علىَ ما كرثها الزمن الصارم من نكبات يلاحق بعضها البعض، وتأخذ أولاها بتلابيب آخرها، كل مشرق شمس وكل مغيب شمس.

هلم يا هكتور إليَّ! إلى والدتك! إلى زوجتك! إلى طفلك الذي

تسلمه لليتم، وتدعه خلفك للشقاء!

هلم وحسبنا أرامل شجعاننا اللائي يحلن أشراق أيامنا ظلمة، ويصيرن لألاء الحياة قتامًا، ويرسفن في أغلال الاستعباد حيث يقمن في خدمة الإغريق اللؤماء!

هلم إليَّ يا بني فوأرباب أرباب الأولمپ أني لأرتعد فرقًا كلما خلتك ملقى بالعراء تنوشك سباع الطير، منبوذًا لضواري هذه البرية التي طالما أطعمتها وأكرمت مثواها..».

وصمت الملك، وراعه أن ابنه لم يتحرَّك لتوسلاته، بل لبث مكانه يرمق الميدان، فراح يضرب يدًا بيد، ثم انحنى فجعل يحثو التراب على رأسه المجلَّل بثلج المشيب وندف الأيام، وبهذه الشعلة البيضاء التي زادتها أحداث الزمان اضطرامًا..

وكانت هكيوبا إلى جانبه، هكيوبا مليكة إليوم.. هكيوبا الأم.. التي فجعها أخيل في عدد من أعز أبنائها، ويحاول اليوم أن يفجعها في هكتور، ابنها البكر، وتاج الأمومة الوضاح، الذي تفخر به كل أم، وتدل به كل والدة!

وقالت الأم الباكية تخاطب هكتور: «هلم يا ولدي فإنك وحدك لا تستطيع أن تكبح جماح هذا البحر الزاخر من الجند، بل لو أن معك ألفًا من شجعان طروادة ما وسعهم أن يردوا عادية هؤلاء الميرميدون المقنَّعين في حديدهم، المفاخرين بعديدهم.

هلم يا هكتور واستبقِ شبابك وعنفوانك لأمّك المحزونة التي لم يبقَ لها من ولد غيرك، ولَا عزّ إلا في جوارك، ولا حمى إلا في كنفك، ولا مِجَنّ يردّ عنها عوادي الأيام إلا في ظلك، ولا فخر لها بين النساء إلا فخرك وما تمدّ الآلهة في أيدك، وتشدّ به أزرك..

هلم يا بني فلقد أزعجتني الرؤى، وروَّعتني الأحلام، وجثمت فوق صدري أشباح هذه الساحة التي لا تفتأ تلبس الحداد وتخلعه، وتغري بالنصر ثم تنزعه، وإن سَرَّت بطلًا بفوزٍ تنكصُ فتفجعِه، فتَقِدُ أضلعه وتمزج بدمِه أدمعَه..».

وكانت الملكة، كما كان الملك، تمزِج توسلاتها إلى ولدها بأغلى الدموع، وأحرِّ الآهات، بيد أن هكتور ظلَّ مسمَّرًا مكانه كالحية الرقطاء التي تتحوَّى وتتكوَّم في انتظار عابر تنقضُّ عليه، وكأنه يمنِي نفسه أن يأخذ أخيل على غرَّة، فيريح طروادة منه، ويضفر لنفسه بنفسه أكليلًا من المجد لم يزِن مَفرَق بطلٍ من قبل.

وكانت توسلات أبويه تتناثر حول أذنيه، ولا يصغي لها قلبه، بل ظلَّ يحلم في يقظته أحلامًا معسولة، كانت تطن في خلده هكذا: «ضُلَّة لي إذا ثنيت عناني إلى المدينة ألوذ بها من أخيل، فأرسفُ أبد الدهر في حضيض العار! وأطأطئ حياءً كلَّما لقيت طرواديًا يهمس في أذن أخيه إن هذا هكتور الذي ولَّى دبره، ونكص على عقبيه، ولم يجرؤ أن يلقى أخيل بمفرده في الميدان، وأين أذهب من غادات إليوم وحرائرها إذا أنا وليتُ الأدبار، وها هن مشرفات على الساحة يرين ماذا يكون من أمري مع ابن بليوس الذي تفزع الآلهة من ضرباته! وتمور الأرض تحت عجلاته، وتنعقد عَجَاجة الوغى فوق رأسه، في حين يبرز منها كالكوكب الدرّي! حاشاي أن أعود أجرّ أذيال الخيبة، فإمَّا أن ألقاه فأريح الدنيا قاطبة من شرِّه، وإمَّا أن يريحني هو من هذا الهم المقيم فأقضي في سبيل بلادي ومن أجل مملكتي.

ثم فيم صراخ أبي وعويل أمي! أيرجوان أن أدخل إلى المدينة فأكون بنجوة من الموت الشريف فوق أديم الميدان ساعة، ثم يفتحها أخيلُ عليّ، فيذبحني كما يذبح شاة لا حول لها ولا طول، أو يضع

الأغلال في عنقي ويجرّني في شوارع إليوم كما تكون إذن الجارية في يد النخَّاس بسوق الرقيق؟!

حاشا.. بل خير لي ألف مرة من أن أخوض خبار المعمعة، ما دام لن يضيرني إلا ما قضت المقادير عليَّ..».

وما كاد يفيق من أحلامه حتى كان أخيل أمامه وجهًا لوجه، وعلى كتفه الرحب الهيكلي رمحه الظامئ العتيد، وفوق صدره العريض الممرَّد سوابغ دروعه التي سردها الإله الحداد ڤلكان، تنعكس عليها آلاف وآلاف من آراد الشمس فتبهر الأبصار وتخلع الأفئدة، وترسل في الجوارح قشعريرة الرعب، وتشعل في الرؤوس ضرام المشيب!!

وزاغ بصر هكتور، واضطربت مفاصله، ونخب[1] قلبه، واستُطير لبّه وأحسَّ كأنه جبل ينحط على روحه فلا يكاد يفلتها، وذاب الثلج في عروقه فجمدت من الروْع والفزع، وهزَّته قشعريرة طفقت تعصف بكيانه الضخم، وتلعب بفؤاده المفزَع..

ثم بدا له أن يلهب جياده فتفرّ به من وجه أخيل، ولكن إلى أين؟ إنه حيثما ولى فثَمَّ وجه أخيل! إن أخيل غدا آلافًا لا حصر لها من الأشباح المفزِعة تملأ الساحة وتكظ الهواء، وتأخذ على الطروادیين أنفاسهم!

وانطلق ابن بليوس في أثر هكتور، وأشرف عذارى إليوم يطللن من أبراج المدينة الخالدة ويمسكن حبات قلوبهن أن تثب إلى الميدان فتطأها سنابك تلك الجياد الجوامح.. وكان كلما أغذَّ هكتور، خفَّ أخيل في أثره، فكانا كالأبردين[2]: لا الليل يدرك النهار ولا النهار يستأني فيدركه الليل، حتى نال منهما الجهد، وتفزَّعت الآلهة في علياء

---

(1) النخب: الجبن.

(2) الليل والنهار.

الأولمپ إشفاقًا على ابن پريام العظيم، ورثاءً لابن بليوس المتهدِّج الوجه ورحمةً لهذه الأرض المضرَّجة بدماء الشهداء.

وهمَّ سيد الأولمپ أن ينقذ هكتور، لولا أن أقنعته ابنته، مينرڤا ربَّة الحكمة والموعظة الحسنة، فنحَّته عن طريق الأقدار، وأخلت بين أخيل وخصمه.

وطافا حول طروادة ثلاثًا، وما كادا يبدآن طوافهما الرابع، حتى قبض زيوس إليه ميزان القدر، فهوت كفة الحق بقتل هكتور، وأربدّ وجه أپوللو وأُسقط في يده، وانطلق يضرب أخماسًا بأسداس..!

وأسرعت مينرڤا إلى أخيل تزف إليه بشرى السماء، وأسرّت له أن يتلبث مكانه يستجم نشاطه، ويتنفس الصعداء حتى تذهب هي إلى هكتور فتغريه بلقاء خصمه، وتنفِّره من هذا الفرار الذي أضحك منه قيان إليوم وحسانها.

واستخفَّت مينرڤا، وبدت لهكتور في هيئة أخيه الأصغر ديفوبوس، ثم راحت تحضُّه على الحرب، وتحرِّضه على أخيل، وتهوِّن له من شأن زعيم الميرميدون، وتعاهده أنها ستقدِّم له كل عون حتى يظفر به وتنصره السماء عليه نصرًا عزيزًا.

ولم يشكّ هكتور في أن الذي يخاطبه هو شقيقه وحبيبه ديفوبوس، فوقف قليلًا يفرِّج عن قلبه بعض ما كربه من روْع، وراح يمزج شكرانه لأخيه بدموع الفزع، وذلّة العبارات المتقطعة الحزينة، وخفقان القلب المضطرب ذي الوجيب!

وانثنى هكتور للقاء أخيل.

فما كاد ابن بليوس يشهده مقبلًا، بعد إذ كان مدبرًا، حتى طرب قلبه، وشاعت بشاشة اللقاء في زنده القوي وسواعده المفتولة، ثم

انقلبت هذه البشاشة إلى جهنّم من الغيظ، تستعرّ بالتشوُّف إلى الانتقام في فؤاده، وتضطرم بلظى البطش في سويدائه، وتطل من عينيه تود لو تنقدح في أضلع هكتور؟

وقال هكتور: «تخدع نفسك يا أخيل إذا ظننت أني كنت ألوذ بأذيال الهرب منك، حين أجريتك هذه الأشواط الثلاثة حول إليوم..؟! لا.. فإنني ما حاولت إلا إجهادك، حتى ينال الأعياء منك.. والآن، هأنذا قد انقلبت للقائك فإمَّا أن أقتلك، وإمَّا أن تروي رمحك الظامئ من دمي.. ومن يدري؟ أليست الأقدار مطوية عنَّا في صحائف الغيب، لا يعلمها إلا سيد الأولمپ وكبير الآلهة: زيوس جُلَّ شأنه!

بيد أنني أطمئنك من الآن يا أخيل، إن أظفرتني السماء بك، فلن أفضحك في هذه العدَّة السابغة من فوقك، ولن أنزع عنك تلك الدروع الضافية التي لن تنفعك من المقادير في شيء.. ثم أعدك أيضًا ألا أفضحك بعد موتك في هذا الجسم العزيز الذي سيكون بعد قليل جثة لا نأمة فيها ولا حياة.. لن أرسل بك إلى عراء طروادة فأنبذكِ فتأكل الطير منك، وتنوشك سباع البريةِ الموحشة التي تعج بالضواري والكلاب.. لا.. لن أفعل من ذلك قليلًا ولا كثيرًا. بل سأترك لجنودك البواسل أن يحملوك إلى سفائنك عزيزًا في قتلتك، كما كنت عزيزًا في معاشك.

والآن يا ابن بليوس! هل تعدني الوعد الذي وعدتك، وهل تعاملني بمثل ما أنا معتزم أن أعاملك، إن أظفرتك السماء عليَّ؟»

وتزلزل الأرض تحت عربة أخيل مما سمع من مهاترة ابن پريام، ويقذفه بشواظ من الكلم المحنق والقول المضطرم، ثم يقذفه بصعدته الظامئة التي تمرق إلى هكتور كالبرق الخاطف، لو أصابت منه عضوًا لذهبت به إلى الجحيم..

ولكن هكتور العظيم ينفتل كالبرق الخاطف، فيهوي رمح أخيل إلى أرض الساحة، ويغوص إلى ثلثيه.. إلا قليلًا.

وكانت فرصة طيبة لهكتور ينفرد فيها بخصمه الأعزل لو لم تكن مينرڤا حاضرة، وعلى أهبة تامة لمعاونة أخيل.. فلقد سارعت إلى الرمح فانتزعته من الأرض، وسلّمته إلى صاحبه دون أن يلمحها هكتور.

وقبل أن يتهيأ لها أن تصنع ذلك، قال ابن پريام: «أخيل! ها قد طاشت ضربتك وآن لطروادة التليدة أن تستريح منك يا ألد أعدائها!! لقد كنت تحدِّث نفسك برأس هكتور غريمك وخصمك، فلتبحث الآن عن رأسك يا بن بليوس..» ولم يكد البطل المسكين يتم قولته ويضيع بها فرصته حتى كانت مينرڤا قد أعادت الرمح إلى أخيل.

وتبسَّم أخيل ابتسامة لاذعة ساخرة بما قال هكتور، الذي داعب هو الآخر رمحه، ثم أرسله كأنه الحتف فارتد على درع ڤلكان، ثم هوى إلى الأرض، فغاص فيها، وقبل أن يلحق به هكتور حال أخيه بينهما، وأصبح الموت، أقرب إليه من حبل الوريد، وتلفّت ابن پريام يبحث عن أخيه ديفوبوس فلم يعثر له على أثر، فصاح من الوجل: «ديفوبوس! أغثني يا ديفوبوس! أدركني يا ديفوبوس! هاتِ لي رمحًا يا ديفوبوس».

بيد أن ديفوبوس لم يغثه ولم يدركه ولم يحضر له رمحًا، وبدت له مينرڤا وهي تبتسم ابتسامة خبيثة زلزلت أركان هكتور، الذي فطن إلى الحيلة التي جازت عليه، فقال يخاطب الربّة الساخرة، وهو يكاد ينشق من الغيظ: «يا للسماء! أهكذا تخاتل الآلهة، فتقضي بموتي في معركة لا أحمل فيها سلاحًا.. ولكني سأقاومك يا ابن بليوس، فإذا سقطتُ فلن يكون لك في ذلك فضل ولا مَحْمَدة، واذهب من بعدها فصلٍ للخاتلة التي نصرتك وآزرتك».

وامتشق المسكين سيفه، ولكن ماذا يصنع الجُراز البتَّار في ملحمة لا يقطر الموت فيها إلا على أسنَّة الرماح!

لقد انقض أخيل على فخر طروادة وأملها المذخور فعاجله بشكة من رمحه الظامئ نفذت في عنقه، وهوت به إلى أدنى الأرض المقدسة التي طالما دافع عنها مع جنوده البواسل الكرماء.

.. «هكتور! اليوم شفيت حزني الممضّ على بتروكلوس.. واليوم تذهب روحك إلى ظلمات هيدز غير كريمة ولا حميدة.. يا كلب طروادة المذؤوم!! كم كنت تمنِّي نفسك لو تظفر بي فتنبذ جثتي بالعراء لوحوش طروادة وجوارح طيرها.. ألا فحدِّث نفسك الآن ماذا صنع القدر بك..!».

وتهدَّج هكتور قائلا: «أخيل! يا ابن بليوس العظيم! استقسمتك برأسك الرفيع، وأبويك الحبيبين، ألا تأخذ جثتي فتنبذها لكلابك، وتعفّر جبيني الحر بثرى المذلّة بين أصحابك، وحسبك أن الآلهة قد أظفرتك بي، وأن المقادير السود قد نصرتك عليَّ».

فيقول أخيل، وقد زهاه النصر على ألد خصمائه: «اطمئن يا هكتور، فكلابنا لا تستطيب إلا جزر الأبطال، وستكون لها وليمة فاخرة.. فورأس أبيك لو ملأ لي پريام هذه الدنيا ذهبًا على أن أخلي بينه وبينك، ليعود بك إلى إليوم، ما رضينا بك بديلًا».

وتكون سكرة شديدة من سكرات الموت جاثمة على صدر هكتور تعذِّبه وتضنيه، فيتأنَّى قليلًا حتى تنجاب عنه الحشرجة، ويفتح عينيه ويقول: «أخيل! لا تغترّ بما تم لك من نصر، فپاريس أخي سيقتص لي منك، وسيرميك من أبراج طروادة بسهم يعجل بك إليَّ.. في هيدز.. وهناك سنلتقي!».

ويموت البطل..

وتنطوي صفحة مجيدة من صفحات طروادة. بل تنطوي أنصع صفحاتها جميعًا.

يموت هكتور. يا عجبًا!

هل كان كتاب الغيب مفتوحًا أمام هكتور يقرأ منه، عندما أنذر أخيل بسهم باريس؟!

وازدحم الهيلانيون حول الجثة يطعنونها ويصلونها كلومًا عجزوا عن ايصالها إليها حية، فأبوا إلا أن يصلوها بها ميتة.

نزل أخيل من عربته، فانحنى على الجثة، ونزع تلك العدة العزيزة التي نزعها هكتور من جثة بتروكلوس.. عدة أخيل.. فلن تكون بعد اليوم إلا لأخيل!

واستل ابن بليوس خنجره، وأهوى على عقبي هكتور فخرمهما، وربط القدمين العزيزين في مؤخرة عربته الحربية! ثم ألهب جياده فهامت على وجهها في الساحة، وطفقت تطويها مثنى وثلاث حول إليوم، والرأس العظيم يتعثَّر بثرى المعمعة الذاهلة، والطرواديون فوق الأسوار ينظرون ولا يحيرون.. إلا هذا الملك الشيخ.. پريام المذهول: الذي راح يملأ الفضاء أنينًا موجعًا، وشجوًا مفزعًا.. وإلا هذه الأم المرزأة.. هكيوبا الملكة.. التي راحت تحثو التراب فوق رأسها، وتتقلب فوق الأرض كالطائر المذبوح..

أما أندروماك.. فلها السماء.. ولها الآلهة!

لقد كانت تضفر أفواف[1] الزهر للقاء هكتور، وترشق الورود في أرائك المخدع، وتعد الحمَّام الساخن لغسل ثرى الميدان.. ولم تكن تفكِّر قط إلا في عودة البطل مخضَّب الذيل بدماء الأعداء..

---

(1) الأفواف: قطع القطن.

ولكنها سمعت لغطًا وضوضاء يرتفعان فجأة خارج القصر.. وكأن هاتفًا من السماء هتف بها أن تخرج لتستجلي النبأ.. ولكنها شعرت بقوة خفية تدفعها إلى البوابة الاسكائية.. حيث وقف پريام يبكي ولده.. فما كادت تصل ثمَّة وتشهد هذا الجمع المحزون يذري دموعه.. وما كادت تطل من شرفة البرج فترى هكتور مربوطًا في عربة أخيل، وأخيل الجبَّار يطوي به الساحة، ويذرع به الميدان.. حتى وجفت نفس الزوجة البائسة، وخرَّت إلى الأرض..

**

وأفاقت أندروماك التعسة..
وطفقت تبكي زوجها، وترثيه بالدم.



أندروماك يُغشى عليها بعد رؤية جثمان هكتور. (فلاكسمان)

بعد مصرع هكتور

انتصر أخيل..

وعاد بجثة هكتور ليجد أمه لا تزال تسقي بتروكلوس خمرًا، ولا تزال تدفع عن القتيل المسجّى فوق سرير الموت أسراب الذباب، ولا تزال تذرف الدموع الغوالي!

ويهرول زعيم الميرميدون، ويهرول معه جنوده حول جثة صديقه ثلاثًا، ثم يقف فوق الرأس المتَّشح بجلال الفناء. ويقول:

«السلام عليك يا بتروكلوس فقد ثأرت لك! السلام عليك فأنت خير حياة من كثيرين ممن ينعمون بالحياة، وإن تكن تسبح في لا نهاية هيدز!

هاك غريمك هكتور سأتركه جَزَرَ السباع وكواسر الطير، وسأضحِّي لك باثني عشر من خير شباب إليوم.. أذبحهم عند قدميك بيدي!.

ابكوا بتروكلوس يا رفاق!».

فيبكي الميرميدون على بطل أبطالهم، ويعولون حتى تخفق السماء بأناتهم، وتضطرب الأرض بزفراتهم، ويمتلئ الهواء من حولهم أسى وشجونا..

ويقبل الهيلانيون من كل فج يهنئون ويعزون: يهنئون بقتل هكتور،

ويعزون، ويا حرّ ما يعزون، في بتروكلوس!

ويمتلئ بهم شاطئ الهلسبنت، ويأمر أخيل رجاله فيأتون بالشاء والظباء، وبكل عجل جسد وخنزير سمين، وتؤجَّج النيران، ويسطع الشواء حتى ينضج، وتكون وليمة يُقبل عليها القوم أيّما إقبال.. إلا أخيل.. المنعكف وحده بذرف الدموع على بتروكلوس.

وأمر أجاممنون بماء ساخن يغسل به أخيل ما عليه من نضح الدم وغبار المعركة، ولكن أخيل يأبى إلا أن يظل النضح ويبقى الغبار حتى يتم تحريق بتروكلوس، وحتى تنتهي المراسيم الدينية التي تقتضيها السماء.. ويفرضها بلوتو[1] على موتاه!

وتفرَّق الهيلانيون بعد أكل شهي وريّ، ونهض الميرميدون إلى خيامهم يخلعون عددهم ويستجمُّون من عناء اليوم الحافل، ولبث أخيل وحده على الشاطئ الشاحب يرقب أواذيّه الصاخبة، ويرى أعراف الموج تنتطح هنا وهناك، وترتد ثم ترتد حتى تغيب في لا نهاية الماء!

ثم غفا اغفاءة فتمدَّد على العشب، وأسلم جفنيه لنوم عميق.

ورأى ظلًا حزينًا يطوف به، ولا يكاد يبين، فتقلَّب ذات اليمين وذات الشمال مما تأخذه الرؤيا به، ولكن الشبح ما يفتأ يهوّم ثم يهوّم، ويقترب ثم يقترب، حتى يكون عند رأسه، وحتى يقرّ النائم فما تبدو منه حركة، ويسكن فما يتردَّد فيه نَفَس، ويحسر الزائر لثامه، فإذا هو بتروكلوس!

لقد أقبل روحه الكبير يتحدث إلى مولاه، فيقول:

«أخيل! أهكذا تنام ملء عينيك وتدع صديقك يهيم في مملكة الظلمات دون أن يؤذن له بعبور ستيكس الفائض بالحميم، ليقر في

---

(1) هو ربّ الدار الآخرة.

عدوته الأخرى مع المؤمنين! إنني يا صديقي سأبقى طريدًا شريدًا ما دمت أنت متوانيًا عن تأدية الطقوس التي يتطلبها بلوتو وتفرضها السماء!

ماذا تبتغي بعد أن ثأرت لي يا أخيل؟ ألا يشجيك أن أظل معذّبًا في هذا التيه الذي لا نهاية له، كاسف البال مسبوه اللب[1]، لأنك تأبى أن تؤدي لي فرائض الآخرة!

أتحسب أنا ملتقيان في دنياك كرَّة ثانية يا أخيل، فأنت تنتظر هذا اللقاء؟ لا، لا يا صديقي، نحن لا نلتقي إلا هنا! في هذه الدار الجميلة الهادئة التي لا صخب فيها ولا ضجيج.. سنلتقي هنا.. وسنلتقي سريعًا.. ولن أزعجك إذا أخبرتك بما علمته هنا!.. إنك ملاق حتفك تحت أسوار طروادة.. لا تنزعج يا أخيل، فأنت بطل، والأبطالَ أمثالك لا يرهبون الموت، والبطل الذي لا يجرع الكأس طافحة في حومة الوغى يموت موتة لا تشرفه.. فأطمئن! إنما ذكرت لك ذلك لأن لي رجية عندك أتمنى لو أدّيتها لي.. ذلك أن توصي فتدفن رفاتك في نفس الرمس الذي يضم رفاتي، لنظل آخر الدهر متقاربين، كما كنَّا أول الدهر متقاربين، ولنقضي أحقاب الموت في مربع معًا، كما قضينا شرخ الشباب في ملعب معًا.

أبدا لن أنسى يوم حملني مولاي الأمين امفيداماس من نجاد أويوس إلى بلاط بليوس، حيث نشأتُ وترعرعتُ في ظلال القصر الذي ترعرعتَ فيه يا أخيل.. وأبدًا لن أنسى هذا الحنان الذي كانت تغمرني به ذيتيس، أمك الرؤوم، حتى اشتد ساعدنا، وسار الركبان باسمينا في كل نادي.

(1) مسبوه اللب: ذهب عقله.

هلم يا أخيل.. انهض يا زعيم الميرميدون.. واذكر ما قلته لك».

ويذرف أخيل عبرة غالية، ويجيب بتروكلوس فيقول:

«بتروكلوس! إليَّ يا أعز الناس عليَّ! سأفعل كل ما تريد، ولكن اقترب.. اقترب قليلًا.. لنسر من أحزاننا يا أخي، هب لي أن أعانقك فأنا مشوَّق إليك!».

وهبَّ من نومه مذعورا مادًا ذراعيه لعناق بتروكلوس ثم ضمهما فجأة.. ولكن!

واأسفا!.. لقد ضم أخيل الهواء..! لأن الشبح العزيز قد ولَّى بعيدًا عنه.. هناك.. هناك.. في الظلمات السُّفْلي.. في ديور الدار الآخرة.. في مملكة بلوتو الجبَّار.. حيث تذهب الأرواح والأشباح.. وحيث العذاب والنعيم!..

صرخ الزعيم المفؤود صرخة زلزلت عماد المعسكر، واجتمع لها القادة مشدوهين مروَّعين، وروَّعهم أكثر هذا الحديث الطويل عن الرؤيا المُشجية، فأنفذ أجاممنون الملك عصبة قوية إلى غابات الصنوبر والشاهبلوط القريبة، فجمعت أحمالًا ثقالًا من جذوع الأيك وحطام الدوح اليابس، وأقبلت فكوَّمت ما جمعت كومة واحدة عالية، ثم أمر أخيل جنوده فاصطفوا حول الكوم بعَددهم وعِددهم وخيولهم وعرباتهم، وأقبل فوج منهم يحمل جثمان بتروكلوس، موارى في شعر كثير انتزعه الفرسان من رؤوسهم حزنًا على قائدهم بالأمس، وكان أخيل يتعثَّر خلف القتيل وقد حطَّمه الحزن ورزأته المصيبة في أعز أصدقائه، وغشيه من الهَمّ ما لو كان بعضه بوضح الضحى لأحاله ليلًا من الوجد مظلمًا.. ونزع شعر رأسه هو الآخر فغطى به وجه صاحبه، ومد ذراعيه المرتجفتين فرفع الجثمان الطاهر، يعاونه نفر

من الميرميدون، ووضعوه فوق الكومة التي تسامت وسمقت حتى غدًا ارتفاعها مائة قدم أو يزيد.. وأمر أخيل فذُبحت ألوف من العجول والخنازير والنَّعَم ونُزعت عنها شحومها جميعًا، فوضعها بيده على الكومة من حول بتروكلوس، ثم أشار إلى حملة الزقاق فطفقوا يصبّون الزيت والعسل المصفى ليزيدا في ضرام الوقود.

وارتفع ضجيج بعيد وضوضاء، فتلفَّت القوم، فإذا فريق من الميرميدون يسوقون الشباب الطرواديين الاثني عشر الذين أسرهم أخيل في ملحمة الأمس، وقد كُبِّلوا في الأصفاد، ورهقتهم فترة مظلمة، من الروع والحزن، فلما شارفوا، تقدم أخيل المغضب المحنق، فاستل خنجره، وشرع يمسح بأعناقهم ويبقر بطونهم، ويروي سنانه من قلوبهم.. والبشرية البائسة تتلفَّت يمنة ويسرة.. وتتعذَّب وتبكي!

وأمر الزعيم فصُفَّت الضحايا الاثنتا عشرة من حول الكومة.

أما هكتور! فقد حَدَجه أخيل بنظرة ساخرة وأقسم ألا يحرق جثمانه فينفذ روحه إلى هيدز، بل يتركه حتى تنوشه الطير وتأكله كلاب البرية، وتلقي عظامه في اليم، غير كريمة ولا مرجوّة!

بيد أن منظرًا عجبًا خلب ألباب القوم، وأذهلهم عن أنفسهم.. ذلك أنهم رأوا شبحًا جميلًا أبيض، يصب دهن الورد فيجعل منه حنوطًا مباركًا لجثمان هكتور، ورأوا كذلك ضبابه ذات أفياء وظلال باردة تقف من فوقه فتذود عنه أشعة الشمس المحرقة حتى لا ينتن أو يتعفن..

ماذا؟! آه؟! إنها ڤينوس الوفية التي تصب دهن الورد فوق هكتور، وأنه أپوللو المحزون الذي ينشر الضبابة من فوقه لتقيه من الشمس وتذود عنه حرارتها!

وصلى أخيل صلاة قصيرة، ونذر لآلهة الريح إذا هي أقبلت تروح على النيران حتى تذكو، أن يذبح لها ويقرِّب لها القرابين! وما كاد يفرغ من صلاته، حتى تقلَّب البحر واضطرب. ومار اليَمُّ واصطخب، وثارت العاصفة الهوجاء في بطن الدأماء[1]، وأقبل زفيروس وأخوته آلهة الريح فحاصروا الكومة، وما هي إلا لمحات حتى كانت ضرامًا في ضرام، ولظى يتأجَّج في لظى.

وسكن اللهب، وخفَّ أوار النار، وتقدَّم أخيل وحمله الرفاق فصَبّوا على الجمر خمرًا حتى خبا.

وتقدَّم نفر فرفعوا رفات بتروكلوس وهم يبكون، وأقدم أخيل فوضعها بيديه في إران[2] من الذهب، وأشار إلى بعض أصحابه فحفروا في الأرض حفرة كبيرة عميقة، وأسرع هو فوضع الإران فيها، بين أنين الجند، وبكاء القادة، وزلزلة الأرض والسماء!

وهيل التراب على الميت، وعمل الكل في ذلك حتى كانت كومة عالية من الردم، ستظل حتى آخر الدهر رمز البطولة الخالدة، وتحية الدار الآخرة لهذه الدنيا المشحونة بالأشجان!

وكان من دأب الهيلانيين إذا مات أحد أبطالهم أن يحرقوه كما حرقوا بتروكلوس، ثم تتلو ذلك حفلة ألعاب يشترك فيها أبطالهم، ويسهم فيها الجندي الصغير إلى جانب القائد العظيم، وقد يفوز عليه فينال الجائزة من دونه، وكانوا يعدّون هذه الحفلة متمّمة للجنازة لا تكتمل إلا بها، فلما انتهوا من إقامة الشعائر الدينية للشهيد الكبير نهض أخيل فأعلن القوم بدء حفلة الألعاب ثم دعا للمشاركة في سباق العربات الحربية،

(1) الدأماء: البحر.

(2) تابوت.

وعدَّد الجوائز، فذكر أن للفائز الأول غانية من أبرع غانيات طروادة جمالًا، وأوفرهن حسنًا، وأنبغهن في القيام بشؤون المنزل، ثم آنية عظيمة من الذهب الخالص، غالية الثمن، عالية القيمة، لا تقدَّر بمال لِما بُذِل في زخرفتها ونقشها من فن، وما أضفي عليها من عبقرية، وإن للفائز الثاني مُهرة صافنًا تسبق الريح وتلحق البرق، وللثالث كوبًا من الفضة الناصعة، عظيم القدر، غالي الثمن، وللرابع بدرتين من الذهب الأبريز، وللخامس إبريقًا فضيًا للخمر، وكأسين للشراب.

واشترك في هذا السياق لَهَاذِم[1] أبطال الإغريق، وصناديدهم الصيد، وكان أول من نزل إلى الحلبة يومليوس الملك ابن أدميتوس العظيم، وتلاه ديوميد الحلاحل بن تيديوس، ثم منلوس سليل السماء، وفرع الآلهة ابن أتربوس الكبير، وكان رابعهم انتيلوخوس المشهور بن نسطور الحكيم، الذي أخذ أعين القوم بقامته السامقة، وعوده اللدن، وقوامه الأهيف السمهري الممشوق، والذي تقدَّم إليه أبوه فقبَّله في حرّ الجبين، وزوَّده بنصائحه الغوالي، وكان خامسهم مريونيس الهائل، صاحب الذكر البعيد، والشأو المجيد، في كل مثار نقع وفي كل ميدان.

وكان على الفارسِ العظيم فونيكس أن يلاحظ السباق، فكان في مركزه هذا حكمًا عادلًا وقاضيًا ماهرًا..

وأعطى أخيل الإشارة.. فانطلقت الجياد تزلزل الأرض، وتثير عجاجة قاتمة من ثرى الميدان، وتضرب الصخر بحوافرها فينقدح الشرر، ويميد جانب الجبل، وتتصل أبصار القوم بالريح التي تتعثَّر في أدبار الخيل، ويتحسَّس كل منهم قلبه، متمنيًا قصب السبق لصاحبه الذي هو من مناصريه، ثم.. تتدخَّل الآلهة في هذا اللهو البريء فتغير

(1) اللهاذم: القواطع. يُقال: سيفٌ لهذمٌ أي حاد وقاطع.

دفة المقادير، وتتحمَّس مينرڤا للبطل العظيم ديوميد، حينما ينزع أپوللو السوط من يده ويلقي به إلى الأرض، فتعيده إليه، وتلحظ أن أپوللو يصنع هذا ليظفر يوميلوس ويفوز بالسبق، فتذهب من فورها إلى ابن ادميتٍوس وتنزع إحدى عجلتي عربته، فيهوي البطل ويوشك رأسه أن يتحطم على الجلاميد المتراكمة على جانبي الطريق.

وتعود الخيل..

وتخفق قلوب القوم.. ثم ينظرون فيرون ديوميد قد أنهى الشوط.. ونزل من عربته فصافح فونيكس، واستحق بذلك الجائزة الأولى.. وتلاه انتيلوخس، ثم منلوس الملك، ثم مريونيس، وكان أبطاهم.

وسكن القوم قليلًا، وإذا هم يبصرون يوميلوس المقدام يسوق جياده، وخلفها عربته التي حطمتها مينرڤا، فيثير مرآه قهقهة عالية وصخبًا، لا يقطعهما إلا أخيل بصيحة راجفة تعيد إلى الملأ وقارهم، ويقضي ليوميلوس بالجائزة الخامسة «لأنه لولا الحظ العاثر لكان صاحب الجائزة الأولى!».

وأشرأبت الأعناق حين أعلن أخيل عن دور الملاكمة.

وشارك فيها من الأبطال أليبوس، فتى مفتول الساعدين مكتنز العضل، رحب الصدر، له قبضتان كأنهما حراشف جذور باردة من جذع شجرة، ألقت بها الريح في يوم عاصف، ونهض إلى جانبه شاب قوي بادي البأس، لم يلبث القوم أن عرفوا فيه يوريالوس بن مسبتوس، الذي طالما شارك في أولمپيات الملك أوديبوس وكان أبدًا فتاها وفارس حلبتها.

وأعطيت الاشـارة فانقض الأسد على الأسد، وارتطم الجبل

بالجبل، ولبث البطلان يكيل إحدهما للآخر لكمات كانت تقشعرّ لها أبدان الآلهة، وتنتفض من هولها أفئدة الرجال، ثم لاحت فرصة للبطل أليبوس كال فيها لخصمه لكمة في ذقنه[1] فألقته فوق أديم الأرض بين هتاف الجند وضجيج القادة وبذا استحق أليبوس الجائزة الأولى، وهي بغل أشهب مسرج، في شدقيه لجام من الحديد، يتصل به عنان من الفضةِ، أما يوريالوس فقد أفاق من اللكمة القاسية لينال كأسين جميلتين أُعِدّتا للفائز الثاني!

وأرهفت الأسماع حين نهض أخيل يعلن عن دورة المصارعة التي لم يجرؤ أحد أن يتقدم إليها حتى أوشك زعيم الميرميدون أن يلغيها لو لم ينهض أوليسيز ويتبعه أجاكس متثاقلين!

وأهطلت الرقاب ذاهلة نحو الزعيمين الهائلين، وشخصت الأبصار ترى إلى الجبل يأخذ بتلابيب الجبل، والبحر ذي العباب يصاول البحر ذا العباب، والشهاب الراصد يندق على الشهاب الراصد، لا هذا ينال فرصة من ذاك، ولا ذاك يرى ثغرة ينفذ منها إلى هذا والقلوب في أثناء ذلك تخفق وتخفق، والقشعريرة الباردة تشيع في أصلاب هؤلاء، وهؤلاء! كلّ يتمنى أن يفوز رجله.. حتى ثارت عجاجة حول البطلين انجلت عنهما صريعين فوق الأرض، لم ينل أحدهما من الآخر! فكان القضاء العادل من السماء!

وحاولا أن يعودا إلى صراعهما الأول، فحال بينهما أخيل.. لأن الدورة كانت لا تنتهي إذن.. فكان بحسبهما أن ينالا جائزتين متساويتين!

وبدأ سباق العّدائين، واشترك فيه أوليسيز وأجاكس أيضًا، ثم انتيلوخوس الذي استطاع أن يفوز بالجائزة الأولى، لما كان يبدو على

---

(1) Uppercut.

منافسيه من نصب، من جراء صراعهما السابق.

وتبع ذلك سباق المبارزة، وشارك فيه أجاكس أيضًا، ثم ديوميد العظيم، الذي استطاع بعد لأي أن يجرح خصمه في عنقه، فينبثق الدم من الجرح، فينال الحزام الفضي بذلك!

ثم كان حمل الأثقال وهو سباق يحبّه الإغريق كثيرًا، وقد شارك فيه يوليبوتيس وايبوس وليونتيوس.. ثم أجاكس! الذي فاز بالجائزة الأولى.

وتلا ذلك سباق الرماية، واشترك فيه البطلان تيوسيز ومريونيس، وفاز الأخير بأسنى الجائزتين للبراعة الفائقة التي أبداها في إصابة الغرض «وكان حمامة تنطلق وتنطلق.. حتى تكون خلف السحاب؟».

ثم كان سباق إصابة الغرض بقذف الرمح، وقد تقدَّم إليه قائد الحملة العظيم.. أجاممنون الملك.. ثم.. مريونيس الشجاع وأحد أتباع الملك ايدومنيوس.. وقد هال أخيل أن ينافس أحد قائد الحملة، فتقدَّم إليه معترفًا بتفوقه على الجميع في كل شيء، وقدَّم له الجائزة الأولى.. ثم قدَّم الرمح لمريونيس.. وكانت مجاملة طيبة من أخيل تقبَّلها الجميع بثغور باسمة.

پريام الحزين

تفرَّق القوم إلا أخيل..

لقد أوهنه الحزن، وشفّ قلبه الأسى، وكأن قتله هكتور لم يشفِ ما في نفسه من شجو[1]، ولم يخفِّف عنه ما يلقاه من عذاب البعد عن أعز أصدقائه.. الفقيد بتروكلوس!

وخرج لبعض شأنه، فرأى جثة عدوه في طريقه، تثير في نفسه الكوامن الشواجن، فينقضّ عليها كالمجنون، يشبعها ركلًا بقدمه، وكلومًا بخنجره، ويربط القدمين في عربته، ثم يلهب جياده بسوط نقمته فتعدو كالريح حول قبر بتروكلوس، جارة وراءها جثمان هكتور، تقلِّبه في الأديم المندى، وتَلُتُّه في التراب الهامد.

ويكون أپوللو مطلًا من سحابة سارية، فينتابه الهم على صديقه ما يثير في قلبه الحنان المقدس، ويلقي درعه الذهبي على القتيل المهين، فيقيه الدرع من الصخر والحصى..

أما ڤينوس! فإنها ترفّ هي الأخرى فوق الجثة، وما تنفك تصب

(1) الشجو: الهم والحزن.

عليها من خمر الأولمپ وما تنضح به من دمائها!! وطلائها[1].

وينجح أپوللو في إثـارة رحمة الآلهة، وتأليبهم على زعيم الميرميدون، وجعلهم صفًا واحدًا عليه، لولا أن نهضت حيرا مغضبة، فانطلقت تدفع عن أخيل. وتذكِّر سادة الأولمپ بهذا المهرجان الفخم الذي أقامه بليوس أخوهم ونَجِيُّهم هناك.. هناك في أعماق المحيط احتفاء بقدومهم للمشاركة في عرسه، وبنائه على ذيتيس المسكينة.. التي يعلم الجميع أنها ثكلى.. وإن لم تفقد أخيلًا بعد!

وتذكِّرهم حيرا بالموثق الحرام الذي قطعوه على أنفسهم أن يباركوا نسل بليوس، وأن يدفعوا عنه الضَرّ.. حتى تنفذ مشيئة رَبّات الأقدار.

ويحار زيوس بين سخط الآلهة.. ودفاع حيرا، ثم يبدو له أن ينفذ رسوله الأمين «إيريس» إلى ذيتيس الحالمة في أعماق البحر، فتوقظها وتلقي إليها برسالة السماء..

«.. أن هلمي من فورك هذا إلى سيد الأولمپ. فإنه يأمرك أن تسعي إليه في مهمة تعرفينها فيما بعد».

وتنتفض الأعماق بالأوسيانيد والنيريد وسائر عرائس البحر وعذارى الماء.. يسعين خببًا في أثر ذيتيس.. حتى يكن في أفق جبل آيدا.. فينثنين.. تاركات مولاتهن في ثوبها الحريري الأسود، وزنارها القاتم تسعى وحدها حتى تكون فوق الثبج، ومن ثَمَّة تعرج في الأديم الأزرق حتى تلج أبواب السماء.

وألفت حشد الآلهة لا يزال يتحاور، ولا يزال أپوللو يحاجّ حيرا، وحيرا تقرعه، حتى نظر زيوس فرأى ذيتيس تتهادى في طيلسانها

(1) الطلاء: هو دم القتيل.

الأسود ووجهها المشرق المترع بالمفاتن يزيده الحزن روعة، ويضفي عليه الأسى جلالًا..

فتبسَّم سيد الأولمپ، واهتزّ فوق العرش، ثم قال: مرحبًا ذيتيس! فيم هذا الأسى يا فتاة! آه.. مسكينة..! ولكن اصغِ إليَّ: لقد دعوتك إلى الأولمپ لتذهبي برسالتي إلى أخيل العزيز، فتوصِيه بجثة هكتور، لقد أثار بما ينزله بها من هوان غضب الآلهة جميعًا.. بل لقد أثار غضبي أنا أيضًا.. أنا حاميه ومنقذه ومرشده في كل مثار نقع. اذهبي إليه فأمريه أن يقلع عن هذه المُثلة، فإنه لا شيء يحنق الآلهة مثلها.. وليسلم القتيل لأهله، فهذا خير له وليقبلِ القود العظيم الذي يقدِّمه إليه پريام الملك الشيخ الحزين.. الذي حطمه الرُّزْء، وعظمت عليه البلية، وصدعت قلبه المصائب.. أما نحن.. فسننفذ إيريس إلى طروادة تأمر الملك باعداد القَوْد، والتجهُّز للقاء أخيل في معسكره.. وسنرسل ولدنا هرمز إلى پريام يحدو ركبه إلى معسكر أخيل ويعمي أبصار الميرميدون حتى لا يثوروا به وحتى يكون أمام زعيمهم وجها لوجه.

ذيتيس.. حسب أخيل ما حل بابن پريام».

وهمَّت ذيتيس فانطلقت إلى ولدها، حيث ألْفته يتناول وجبة الصباح، فأبلغته الرسالة الأولمپية وعيناها تفيضان بالدمع، وقلبها يخفق ويضطرب، ونفسها تذوب على شبابه الغض حسرات..

وهَشَّ أخيل لأمه، وتقبَّل رسالة الإله الأكبر قبولًا حسنًا، فنهضت ذيتيس وعادت أدراجها، بعد إذ طبعت على جبين ولدها قبلة خاطفة، كانت.. وا أسفاه.. آخر وداع له منها في الحياة.

**

وانطلقت إيريس إلى پريام الملك، فوجدته ما يفتأ يبكي هكتور،

ومن حوله أبناؤه التسعة، خضرًا كأفراخ القطا، نضرًا كأكمام الزهر، والرجل مع ذلك يقلِّب فيهم عينين تفيضان حسرة، ووجهًا يتَّشح باليأس والهم، وإلى جانبه جلست هكيوبا المُرزأة تئن وتتفجَّع، وترسل من أعماقها زفرات الهَمّ والأسى..

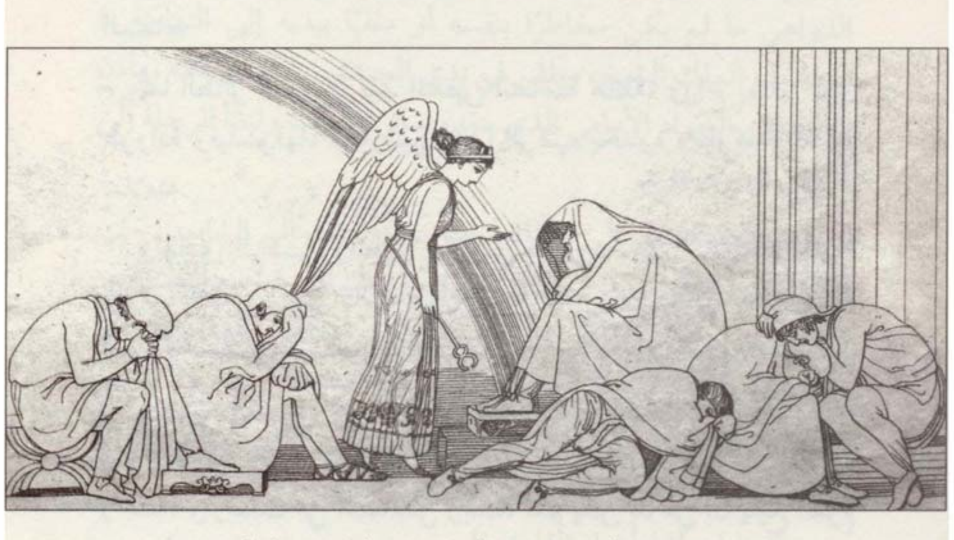
وبلغته إيريس رسالة ربه، وعادت أدراجها إلى الأولمپ، وما كاد الملك يخبر زوجه بما أوحي إليه من ربِّه، حتى اضطربت هكيوبا وأعولت وطفقت تضرب صدرها المتهدِّم بيديها الضعيفتين لما اعتزم زوجها من تنفيذ ما أشارت به السماء، والذهاب إلى أخيل يرجوه أن يهب له جثمان هكتور، خشية أن يأسره زعيم الميرميدون ويستبقيه عنده رهينة حتى يسلم الطرواديون..!

ولكن الرجل كان مؤمنًا لا يتسرَّب إلى قلبه الشك بما رسمت له الآلهة، ولا يساوره ريب في أي مما تشير به أربابه، فزجر الملكة ونهض إلى خزائنه العامرة بالتحف، فتخيَّر اثنى عشر قُرْطَقًا[1] من أغلى ما نسجت مصر، ومثلها من المعاطف المصنوعة من القاقم والسنجاب وعددًا كبيرًا من الوسائد الرائعة والطنافس ذات التصاوير، ثم أمر بعشر بُدَرٍ فأُحضرت من بيت المال، وبدِسْتين كبيرتين من الذهب، ذوي قوائم من الفضة، وأيد من الجوهر، وبأربع قدور مهداة من ملوك الشرق، تزن إحداها ما يملأ خزائن بن بليوس ذهبًا، وبكأس من الأبريز الخالص بها من النقوش والصنعة ما يعجز عن مثله عباقرة الجن.

أمر پريام بكل ذلك فوُضعت في صناديق كانت هي الأخرى تحفًا من صناعات مصر والشام والهند.. تهيم فوقها تصاوير فارس.. وصاح بأبنائه التسعة فهرعوا من كل مكان.. پاريس المشؤوم وهيلانوس

(1) القرطق: تعريب كُرْتَه وهو نوع من الملابس.

وأجاثون، وبامون وانتيفون وبليت، ثم ديفوبوس وهيوثوس وديوس.. كلاب الأزقّة كما كان يدعوهم أبوهم.. «ليت المنية التي تخطّفت هكتور خطفتكم وخلّت سبيل هكتور.. أو ليتها أصابت ألف ألف من أمثالكم وعميت عن ليكاون وبوليدور..».



إيريس تبلغ پريام رسالة زيوس. (فلاكسمان)

أمرهم فصفُّوا الهدايا ورفعوها فوق ظهور البغال، وما ثقل منها وضعوه في عربة كبيرة يجرها بهيمان، وتقدّمت هكيوبا فصبّت على يدي زوجها خمرًا يطّهّر بها، وأخذ هو في صلاة طويلة لزيوس.. أن يحميه ويَقِيَه.. ويرشده في طريقه إلى أخيل، ويرسل إليه الرسول الذي وعد، يقوده إلى فسطاط زعيم الميرميدون!

ولم يكد ينهض من صلاته، ويختم توسلاته، حتى رفَّ فوقه طائر ظلَّ يضرب الهواء بخافقيه، ويحوم ويدوم، ويرنق في سماء الهيكل تارة،

ثم يستقر عند المذبح أخرى، حتى أيقن الملك وحاشيته أنه الرسول المنتظر، والقائد المنشود، فخفقت قلوبهم، وفرحوا واستبشروا.

وتقدَّم إيديوس الحكيم فألجم البغل، وأسرج الخيل، وشدَّ البهائم إلى عربة الملك، وأقبل پريام فركب، وأصدر أمره إلى حكيم طروادة وفيلسوفها، فسار بين يدي الركب، يحدوه ويباركه ويضمن له رعاية السماء.

أما الطائر الميمون فقد انتفض انتفاضة هائلة، وراح يحلِّق فوق طروادة وفيلسوفها، فسار بين يدي الركب يحدوه ويباركه ويضمن سلامته.

وتهادى الركب. وانطلق إيديوس يحدوه، حتى كان عند مقبرة إليوس الأكبر، وحتى كانت طروادة الخالدة وراءهم، حالمة في غبشة المساء، ساهمة مستسلمة، كالفكرة الشاردة في دماغ الشاعر الغرير.

وغابت الشمس في مياه الهلسبنت، واختلط البنفسج الشاحب بسواد الليل، ونقت ضفادع الأبالسة في فضاء البرية، فملأت القلوب وحشة، وأرسلت في المفاصل رعدة، فلم يكن بد من أن ينيخ القوم حتى يأذن القضاء بالرحيل.

وفيما كان إيديوس يسقي الدواب من الغدير النائم في كِلّة[1] الغسق، إذ بشاب يافع يقبل نحوه ويسأل عن الملك.. يكون بين يديه بعد لحظات..

ويسأله الملك عن شأنه فيحدث أنه جندي آبق مِن جنود أخيل، إنه ينصح للملك ألا يجازف بنفسه وبما يحمل من اللُّهى والعطايا في هذه الرحلة المهلكة، التي قد تنتهي بما لا يدور للملك في خلد، أو

(1) الكِلَّة: الستار الرقيق.

يقع له بحسبان، ولكن الملك يبدي تصميمه، ويلح في سؤال الشاب عن هكتور.. «ألا يزال مسجًّى بين أيدي أخيل يشفي بمَرآة جَرده[1]، أم هو قد أسلمه للسباع وجوارح الطير تنوشه وتتغذى به؟» ويطمئنه الشاب اللعَّاب الداهية ثم يرثي له فيعده أن يكون قائده إلى فسطاط أخيل.. «لأن أحدًا من الناس لا يستطيع أن يخترق صفوف الميرميدون الدواهي ما لم يكن مخاطرًا بنفسه أو ملقيًا بيديه إلى التهلكة..» ويستسلم الملك الشيخ، ويلقي في يدي الجندي الشاب بزمامه ويأذن له فيمتطي الجواد الأمامي الذي يتقدَّم سائر الدواب وتبدأ الرحلة إلى مربض الميرميدون.

ويتحدَّث الشاب إلى الملك، ويتحدَّث الملك إلى الشاب.. حتى إذا كانا قيد خطوات من معسكر أخيل، مدَّ الشاب ذراعيه المفتولتين ولفَّهما حول جذع الملك، ثم رقاه رقية قصيرة، فلما سأله الملك عمَّا يبتغي بها. أنبأه.. «كي لا تمتد إليك عين ولا يلمحك أحد، ولا يحس بمسرانا أي من أولئك الميرميدون..» فيسكن جأش پريام الشيخ، ويطمئن قلبه، وتتضاعف ثقته في الجندي الشاب..

ويكون فسطاط أخيل تلقاءهما!

فينهض الشاب من جانب الملك، ثم ينتفض انتفاضة تكشف عن حقيقته، ويقول ضاحكًا: «أيها الملك أنت الآن في جوار أخيل، وعليك أن تلقاه في غير هيبة ولا وجل، فادخل غير مستأذن، ولتكن رابط الجأش ساكن الروع واركع بين يديه ثم أذرف أغلى دموعك حتى تليّن ما قسا من قلبه، وتحجَّر من مشاعره، واذكر له حاجتك فإنه راد عليك جثمان هكتور.. وثِقْ أن السماء قد قضت بذلك، ولا مردّ لقضائها.. أمّا

(1) أي أن أخيل يستريح لرؤية جثمان هكتور العاري والمُهان امامه.

أنا فلا تنتظر أن أسعى بك إلى زعيم الميرميدون. وليس سرًا أن أذكر لك أنني.. هرمز.. قد أرسلني أبي إليكَ لأجيء بك إلى هذا المكان.. انهض.. انهض.. ماذا أخافك مني، أجل، أنا ربك، ولكن لتقصر صلاتك هذه فالفرصة تكاد تفلت تشجَّع يا پريام.. قف.. آمرك..».

وينهض الملك من غشيته التي كادت تذهب به حين ذكر له الشاب أنه هو هرمز.. هرمز نفسه الذي ذكرت له إيريس أنه سيقوده إلى فسطاط أخيل..

وينظر پريام فيرى الجندي الشاب يرف في الهواء المُندَّى، ثم يرتفع ويرتفع، حتى يكون في السماء التي تتفتح له أبوابها؟!

ويصلح الملك من شأنه، ثم يتقدَّم بخطى وئيدة إلى فسطاط أخيل، ويدخله.. ويرى زعيم الميرميدون في الصدر، وبين يديه وزيراه العظيمان أوتوميدون وألكيموس، ثم قادة الجند منتشرين ههنا وههنا.. يهمسون ولا يكادون يبينون..

وكان السماط لا يزال أمام الزعيم، وزقاق الخمر لا تزال تقبِّل الكؤوس المفعمة، والشواء العظيم يملأ الخياشيم بقتاره.. فلم يبالِ پريام.. بل تقدَّم وتقدَّم، حتى كان أمام أخيل.. فركع ذاهلًا عن نفسه، ولف ذراعيه حول ساقي الزعيم، وراح يوسعهما لثمًا وتقبيلًا، ويمطرهما بأحر العبرات!

وشُده أخيل!

بيد أنه كان يعلم من أمر هذه المفاجأة كل شيء، فلم يزد على أن قال:

«پريام؟!».

«أجل يا بني، أنا پريام!».

وبُهت القادة مما رأوا، وأذهلهم ما سمعوا!

أهذا حقًا هو بريام ملك طروادة يبكي بين يدي أخيل وينتحب؟ إذن.. فيم هذه الحرب؟.. وحتّام ذلك الصراع.. وإلام تذهب هذه المُهج؟

«أجل يا بني.. أنا هو.. أنا الرجل المرزأ المحزون الذي قتلت أبناءه، وأهرقت دماءهم لأنهم يحاربون من أجل وطنهم، ويذودون عن بلادهم.. سعيت إليك.. إليك يا أخيلِ العظيم، لأمطر هذه اليد التي ذبحتهم بدموعي، ولأوسعها لثمًا وتقبيلًا!

أتمنَّى يا بني أن تعود قريبًا إلى أبويك سالمًا، فيهش أبوك للقائك، وتبش أمك بعودتك، ويفرح ذووك بك لأنك عدت إليهم بالنصر والفخر.. استغفر الآلهة.. بل عدت إليهم سالمًا من نكبات الحرب وكوارثها.. فهل أكون قاسيًا أن أرجوك.. حين تعود إلى ديارك وتلقى فيها أحباءك.. أن تذكر أن أبوين آخرين قد خلَّفتهما وراءك يشقيان ويبكيان، ويلبسان السواد أبد الدهر. لأن أبناءهما لم يعودوا من ساحة الحرب كما عدت أنت، بل هم قد سقطوا فوق أديمها، مضرَّجين بدمائهم، شاكين إلى أربابهم ما حل فيها بهم. تاركين آباء شيوخًا فانين، وأمهات ضعيفات معولات. وقلوبًا تتفجَّر أسى عليهم، وعيونًا تختلط دموعها بدمائهم من أجلهم، وأرامل يلطمن الخدود ويشققن الجيوب.. ويتامى لا حول لهم ولا قوة على الزمان الغادر، والحظ العاثر، والصبر الجميل؟

أرجوك في هكتور..

وا حرّ قلباه يا هكتور! وا أسفاه عليك يا ولدي!

صَدرتُ إليك يا أخيل من أمر السماء أرجوك في هكتور أن تسلِّمه

إليَّ حتى تُؤدّى له فرائض الآلهة، وطقوس الموت، وما أحسبك إلا ملبيًا ندائي الحزين، حتى تتيح للآلاف من جنوده وذويه وزوجه وابنه أن يبكوه جميعًا، وأن يشيعوه إلى الدار الآخرة بما رضيت أن تؤديه لبعض أصحابك، حتى تقر روحه، ويُؤذن لها فتلج إلى هيدز..

أخيل.. لبِّ ندائي أيها الزعيم الباسل.. لبِّ نداء هذا الشيخ الضعيف.. وارحم فيه هذا الذل الذي حمله إليك، واسعده بتقبل هذه الهدية التي أمرت بها السماء..

وإن كنت يا أشجع المحاربين في غناء عنها. ولا حاجة بك إليها».

وأحسَّ أخيل كأنَّما تخاطبه السماء كلها بلسان هذا الشيخ المتهدِّم، وكأنَّما الآلهة جميعًا تنطلق من فمه لتكون بيانًا ورحمة في قلبه، فأنهضه من بين يديه، وأجلسه إلى جانبه فوق أريكته، ثم أخذا معًا في بكاء حار طويل.

وتقبَّل أخيل هدايا الملك، وأشار إلى أتوميدون وزميله فأخذاها إلى الأسطول، ثم أمر الخادمات فغسلن هكتور بالماء الساخن المعطَّر بدهن الورد، ولففنه في مدارج بأكملها من كتَّان مصر، وتقدَّم هو فوضعه على وسادة الموت، وأشار إلى جنوده فرفعوه إلى إرانه، ثم أخذ يهوِّن على بريام ويواسيه، ودعاه إلى تناول العشاء معه، فلبَّى الشيخ وهو يعول ويبكي.. بكاء يفتِّت الأكباد ويذيب نياط القلوب..

وكان الليل قد انتصف أو كاد، وكان بريام الملك قد لبث الليالي الطوال يتفجَّع على ولده، ولا يذوق جفنه طعم الكرى، فأحسَّ بعد العشاء بإعياء وجهد، وميل شديد إلى النوم، فصُفَّت له ولرجاله وسائد فاخرة، عليها طنافس وملاءات من الهند، واستأذنَ أخيلَ فاستلقى على متكئه.. وقبل أن يسلم عينيه للكرى سأله أخيل أن تكون هدنة بين الجيشين المتحاربين حتى تؤدَّى كل الطقوس اللازمة لحرق هكتور،

واتفقا على أن تكون هذه الهدنة لمدة أحد عشر يومًا.

وفي الهزيع الأخير من الليل، أقبل هرمز الكريم فأيقظ پريام الملك، ونبَّهه إلى الخطر الذي يحيق به إذا أشرقت الشمس وأقبل أجاممنون وسائر القادة الهيلانيين ورأوا كبير أعدائهم، وصاحب إليوم، في معسكر أخيل.. هنالك يحجزونه لديهم رهينة حتى تسلم مدينته.. «فهلم أيها الملك وانج بنفسك، وسأقودك إلى طروادة بحيث لا يشعر بك أحد، ولا يحس الميرميدون لركبك ركزًا».

ويسير الركب في هدأة الفجرِ، ويحدو هرمز القافلة حتى تكون لدى البوابة الاسكائية الكبرى، فيسلِّم على الملك ويبارك الميت.. ويعرج إلى السماء..

وتكون كاسندرا، ابنة پريام الكبرى، أول من يلمح الركب مقبلًا فتبشِّر الأهالي المحزونين، ويرتفع اللغط، وتشتد الضوضاء، ويتكبكب المواطنون حول العربة التي تحمل الإران حتى ليتعذَّر السير ويبطئ السعي فيصيح الملك بالملأ فتنفرج الطريق، ويعم الصمت ولا يُحَسُّ إلا وجيب القلوب وخفقانها.

وتقبل أندروماك فتذري دموعها، وتندب حظها، وتبكي زوجها، وتمزِّق قلوب الطرواديين مما يذيبها من أسى وحزن، ووجد وكَمَد.

وأم هكتور.. ويا لمصاب الأمهات في فلذات أكبادهن، وأعز الأبناء عليهن!!

وهيلين! والعجيب أن تبكي هيلين هي الأخرى! هيلين الآبقة، هيلين الآثمة!

**

ويأمر الملك فينتشر الجند يجمعون الوقود من كل فَجّ، حتى تكون

كومة عالية، ويوضع الجثمان المبكي فوقها، وتصب الخمر تحية لإله الموت وتكرمه، وتشتعل النار ضرامًا[1].

**

انشد يا هوميروس!

يا شاعر الأحقاب الخالية!

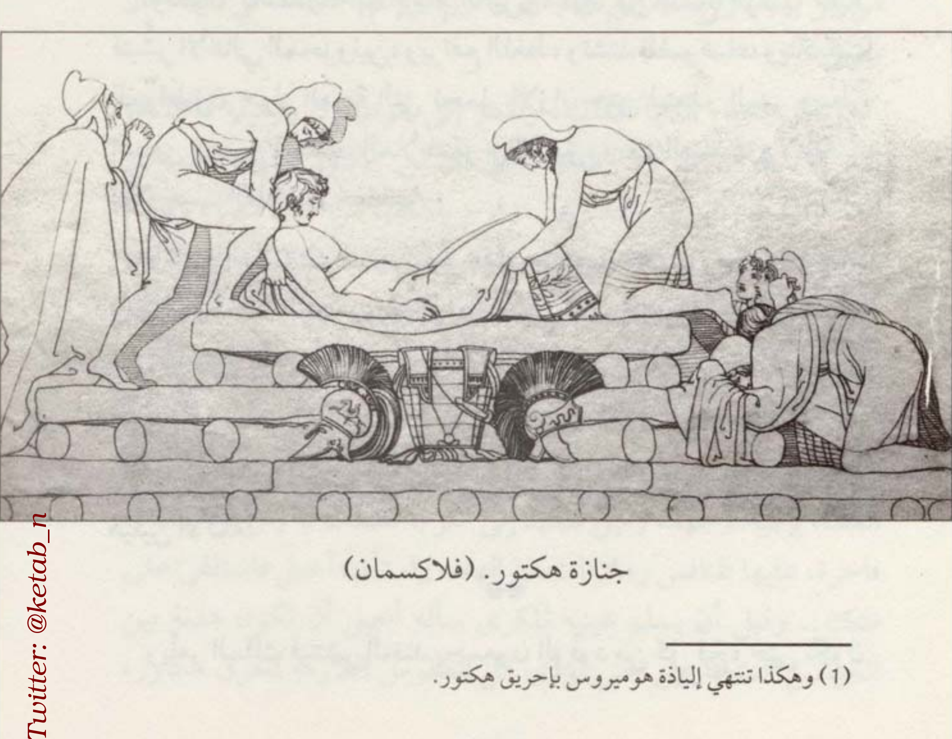
أيها القيثارة المرنة في أنامل الأيام!

أرسل من الأزل أنشودتك تملأ أسماع الأبد!

واعصف من الريح.

واهتف مع البلابل..

وتقبل تحيات المعجبين.



جنازة هكتور. (فلاكسمان)

(1) وهكذا تنتهي إلياذة هوميروس بإحريق هكتور.

مقتل أخيل

انتهت الهدنة، واندلعت نيران الحرب كرَّة ثانية، واقتحم الجَّمعان تؤجِّج العدواة بينهما ثارات وثارات، ولم يُجْدِ الطرواديون أن تنضم إليهم مليكة الأمازون تحارب بفصائلها في صفوفهم، وتشد بجموعها أزرهم، فإن أخيل هو لم ينقص ولم يزد.. بل هو يزيد كل يوم ظمأ إلى دماء قاتلي صديقه وأحبّ الناس إليه.. بتروكلوس الشهيد.

لقد انقضَّ أخيل على مليكة الأمازون التي انقضّت بدورها على جحافل الهيلانيين فأوقعت الروع في نفوسهم، وقذفت الرعب في قلوبهم.. فلم يزل بها يصاولها ويطاولها حتى نهز منها نهزة انفذ بها رمحه في صدرها، وعفر جبينها الملتهب بثرى المعمعة، وجرَّدها من سلاحها فإذا هي جثة هامدة، وانكفأ اتباعها وبهم من الحزن على صاحبة الأمر فيهم.. ما صرفهم عن طروادة والطرواديين.

وأن أخيل ليصول في الميدان ويجول، وأنه ليرتفع بصره عفوًا، وعن غير قصد، إلى البرج الشاهق من أبراج إليوم، فوق البوابة الإسكائية، إذ هو يلمح قمرًا مطلًا من شرفة البرج يرنو بعيني ظبي، يهطع[1] بجِيد[2]

---

(1) هطع: مدَّ عنقه وأقبل ببصره على الشيء.

(2) الجيد: العنق.

رَئِم[1]، ويشرق بخدين ناضجتين من خدود ربّات الخدور، يرسلان علىّ الساحة كلها سناءً ورواءً..

من هي؟

من هذه العذراء البارعة التي تشرف هكذا على الساحة الحمراء فتطفئ جذوات الغل المتّقدة بين أضلاع أخيل، وتضع حدًا لهذه الثورة التي ظلّت إلى تلك اللمحة تعصف بنفسه الغضبى، وتحزُّ في قلبه المحزون؟

أوه..! إنها الأميرة الفاتنة بوليكسينا، صغرى بنات الملك الشيخ.. بريام البائس الباكي الحزين..

لقد أرسلتها العناية لتشرف على الساحة الصاخبة، ولتنظر إلى هذا البطل الخرافي الجبّار الذي لم يعد بيت في طروادة كلها إلا وفيه لسان يلهج بذكره، ويتحدّث عن شجاعته، ويصف جبروته.. ثم لم يعد بيت في طروادة كذلك، إلا وفيه عين مؤرَّقة تبكي على عزيزها الذي قتله هذا البطل، أو الذي سيقتله، أو الذي يُخشى عليه أن يقتله. كأنه أصبح سفير هيدز إلى إليوم، أو وزير بلوتو العظيم في هذه الدار!

وأبصر أخيل بها.. ويالها من نظرة أنبتت في قلبه دوحة من الحب وارفة، ذات ظلال وذات أفياء..

وظلَّ الرمح يهتز في يده.. ولا يصيب أحدًا.. وظل هو يُسارق النظر قمر البرج المطل مشدوهًا مسبوها.. لا يعرف لماذا شبَّت هذه الحرب، ولماذا يقتتل هذان الجمعان؟!

وانثنى من الميدان ينظر في هذا الغرام الجديد..

---

(1) محبوب ومألوف.

ولم يجد بُدًّا من العمل لإحلال السلم محل تلك الحرب التي طالت وتتابعت عليها السنون، من غير أن يظفرٍ الهيلانيون بالطرواديين، أو الطرواديون بالهيلانيين، ومن غير أن يفكر أحد في هذه المجزرة الشائنة التي تغتذي كل يوم بقطوف الشباب من زهرات الأمَّتَيْنْ على السواء.

فيا له من حب مهَّد لسلم، لولا قساوة في القلوب زادتها الثارات عنفوانًا. ولولا شرف أمة بأسرها تعبث به أمرأة، ولولا الإحَن التي ذهبت بأبناء الملوك الصيد.

واستطاع أخيل أن ينفذ رسله إلى پريام يستعتبه، ثم استطاع الرسل أن يخاطبوا الملك في بوليكسينا على أن تكون أحبّ أزواج أخيل وآثرهن إلى قلبه، فوعدهم الملك، بعد أن لحظ من افتتان ابنته هي الأخرى بزعيم الميرميدون، أن تتم مراسيم الزواج حين تضع الحرب أوزارها، وحين تنكشف هذه الغاشية عن طروادة..

بيد أن الهوى المبرح قد ألَحَّ على قلب أخيل، والصبابة العاتية قد جمعت أفانين من السهاد في عينيه، وطيف بوليكسينا يراوحه ويغاديه ويملأ عليه أمانيه، ويتهادى أمامه في كل نظرة ينفرج عنها هدبه، أو غمضة تتناعس بها جفونه! فلم يطق إلى صبرٍ من سبيل!

وأنفذ رسله كرَّة أخرى فاتفقوا مع الملك على إجراء مراسيم الخطبة، عسى أن تفل من غرب هذه الحرب القاسية، أو تبزغ منها تباشير السلام المنشود!

وأعلنت هدنة ليوم أو بعض يوم، وأقيم المهرجان الفخم في صميم الحومة الرائعة، وتقدَّم أخيل فصافح الملك، وأعلنت الخطبة، وانثنى الزعيم العظيم وقلبه يكاد يطفر من الفرح، أن أصبحت له بوليكسينا..

وما كاد البطل ينقلب إلى جنده، حتى كانت ڤينوس توسوس إلى باريس أن ينتهز الفرصة العزيزة النادرة، ويريش سهمًا من سهامه المسمومة إلى عقب أخيل التي لم تغمرها مياه ستيكس فيصيبه.. فيرديه!

ووتر باريس قوسه، وأرسل السهم المسموم إلى عقب أخيل فنفذ فيه، وأنفذ فيه قضاء ربَّات القضاء.. اللاتي فرغن الساعة فقط من غزل خيط حياته، وقطعته أتروبوس[1] الهائلة بمقصها الجبَّار الفظيع. هكذا أنهى باريس الخائن تلك الحياة الحافلة بغدرة سافلة من غدراته التي توشك أن تنتهي!

واستُطير الميرميدون! وانقضَّ أوليسيز كالعاصفة ينافح عن جثمان صاحبه، واستطاع أن يستنقذ القتيل العزيز من أيدي أعدائه الجبناء، وكان أجاكس العظيم يعاونه في دفع الجموع الحاشدة التي تكاثرت حول الجثة تطمع في عدة ڤلكان.

وانصرف الجيش الحزين يذرف دموعه على أخيل!

ووقفت ذيتيس تلقي على ابنها نظراتها الأخيرة.. وتذرف عليه دموع الوداع!

وكانت ثيابها السود تبكي معها..

وكانت السماء تذرف شجونها على أخيل..

وعرائس البحر ساهمات على شواطئ الهلسبنت الفائض بالدم!

وبليوس المحزون يضطرب في الأعماق فيجعلها ضرامًا!

والأولمپ كله، إلا عصابة ڤينوس، يعزّي بعضه بعضًا.

---

(1) أشرنا إلى ربّات القضاء سالفًا ـ وهن ثلاث:

1 ـ كلوتوو وتنسج خيوط الحياة.

2 ـ لاخسيز وهي تبرمها حتى تحتمل عاديات الزمان.

3 ـ وأتروبوس وهي تقطعها فتنتهي الحياة.

وليس أولئك جميعًا شيئًا إلى ما حدث من بعد، قبيل أن تخمد النيران فوق أخيل.. فقد ضج المكان الصامت بصيحات مفاجئة، نبَّهت ما سكن من هول هذا المحشر الرهيب.. وتلفّت القوم، فإذا أجاكس العظيم قد أصابه طائف من المَسّ، وإذا به يرغي ويزبد، ويعول وينشج، ثم يقذف في فمه صبيبًا من الدم، يتلوه شوب من العلق، وينبطح على الأرض ثم يثب على قدميه، ويروح ويغدو دون أن يلوي على شيء.. ثم يستل جُرازه ويركزه فوق الأرض، ويتكئ بصدره على سنانه، فينفذ السنان من ظهر أجاكس، ضحية جديدة لهذه الحرب التي لا تشبع، وخيط حياة حافلة يمر وشيكًا بين الشفرتين في مقص أتروبوس!

ويحك أجاكس! وللآلهة ما وفيت لأخيل يا بطل الأبطال!

وذُهل القوم لانتحار أجاكس، ولم يفيقوا من ذهولهم إلا ليروا مأساة ضعضعت ما أبقى عليه الحزن من ألبابهم، وأطاشت ما بقي من حلومهم، وتركتهم سكارى وما هم بسكارى..

وهذه بوليكسينا!

إنها تقبل من طروادة كأنما بها مَسّ..

وهي تطوي الساحة المزدحمة بالأشلاء.. المضرجة بالدماء، بقدمين عاريتين، لا يقيهما حذاء.. وإن الدم ليتفجَّر منهما..

وهي تصرخ.. وتضرب خديها الشاحبتين، بكفيها الواهيتين. وهي تجفل كالظبية المراعة، وتدور حول نفسها.. ثم تقف لحظة.. وتنطلق..

وهي تفعل هذا حتى تكون أمام البركان الخافت، المشتمل على رفات أخيل..

وإنها لتقف تلقاءه جامدة كأنها دمية.. ذاهلة كأنها تمثال.. يا للهول!

لقد انطلقت الفتاة فخاضت النيران.. ودسَّت رأسها في جمرات الغضا تبحث عن حبيبها المرجو.. وزوجها المؤمل.. عن أخيل[1].

أخيل الجبار.. قاتل ليكاون وبوليدور.. وهكتور.

**

ويجزع الهيلانيون مما ألمّ بهم من مقتل أخيل، وانتحار أجاكس حزنًا عليه، فينصرفون عن الحرب إلى استيحاء آلهتهم، وينفرد كالخاس يرسل نظرة في النجوم، ويناجي سكان السماء، ثم يقبل على القادة وقد فرغت قلوبهم من الصبر، وتبلبلت أفكارهم من طول الانتظار.. فيقول: «سهام هرقل!! لا بد من سهام هرقل! لن يفتح عليكم طروادة إلا سهام هرقل!».

سهام هرقل؟ وما سهام هرقل هذه؟

آه! لعلها هي هذه السهام التي غمسها هرقل في دم هيدرا[2].

فتسمَّمت به، وادخرت من الموت ما يكفي لإبادة الطرواديين جميعًا.. لكن أين هي هذه السهام اليوم! وأنَّى للهيلانيين أن يهتدوا إليها؟

جلس القادة يفكِّرون..

وذهب العَرّافون يقلِّبون صحف الغيب.

(1) اختلفت المصادر في انتحار بوليكسينا، فبعضها يرويه كما أثبتنا، وبعضها يزعم أنها انتحرت على قبر أخيل، والبعض يروي أن بيروس، ابن أخيل، قد انتزعها من حضن أمها هكيوبا وجعل منها قربانا على قبر أبيه عقب فتح طروادة.

(2) نشرنا هذه الأسطورة في كتاب أساطير الحب والجمال عند الإغريق «مجازفات هرقل» ج 1 .منشورات دار التنوير

وطفق مشايخ الجند يفتِّشون في زوايا أدمغتهم.

ثم تذكَّر أوليسيز، بعدَ لأي، أن هذه السهام المنشودة قد تُركت مع الجندي القديم فيلوكتيتس[1] الذي غادره الجيش فوق جزيرة لمنوس، في طريقه إلى طروادة.. فجر الحملة.. منذ عشر سنوات!

ولقد كان فيلوكتيتس قد أصيب بجرح كبير في قدمه جعل اصطحابه مع الحملة من المحال، لما كان يلقى حينذاك من الآلام المبرحة، وما كان يملأ به آذان الجند من الصراخ والأنين.. فاضطر أوليسيز إلى تركه في جزيرة لمنوس، حيث أوى الجندي المسكين إلى كهف منعزل عكف فيه على جرحه يعالجه.. دون جدوى!

واتفق القادة على أن يذهب أوليسيز، مصطحبًا معه بيروس بن أخيل «أو نيوبتلموس كما كانوا يسمونه أحيانًا» إلى جزيرة لمنوس ليريا هل الجندي الجريح ما زال يحيا هناك، وقد بحثا عنه في أنحاء الجزيرة حتى عثرا به يئنّ في كهفه ويتوجّع، ويشكو إلى غير مسمعٍ، فعرضا عليه أن يصحبهما إلى طروادة فأبى، وجعل يشتد في الإباء يذكِّره هذا اليوم الأغبر الذي آثروا فيه تركه فوق تلك الجزيرة القاحلة لا أنيس ولا سمير، ولا لسان يرفّه عنه وحشة الألم ووحشة المنفى الذي لا يد له فيه، وكَبَرَ عليه أن ينطلق مع هذا الجيش الذي جحده وغمطه حق الجهاد في سبيل الوطن، والذود عن شرف هيلاس واسمها المقدس..

وتركه أوليسيز لبيروس يأخذه بالحيلة والرفق.. ولكن بيروس لا يستطيع أن يقنع فيلوكتيتس.. فيكاد يدعه برمًا متسخطًا.. لو لا أن يظهر طيف هرقل فجأة مرفرفًا في العلو، فيأمر فيلوكتيتس، بعد تهويمة هنا

(1) اعتمدنا في تلخيص هذا الجزء من ذاك الفصل على درامة سوفوكليس الخالدة فيلوكتينيس Philoctetes ترجمة لويس كامبل.

وتهويمة هناك، أن ينصاع لما يأمره أوليسيز به[1].

ولا يسع الجندي الكريم إلا أن ينطلق مع أوليسيز.. فيركب الجميع في السفينة إلى طروادة، ويلقاهم العسكر المشتاق بالبُشر، ويهرع إليهم بالايناس!

أليس في سهام هذا القادم الأعرج.. النصر كل النصر؟!

**

ونُفخ في صور الحرب، واشتجرت الأسنّة، واستحرَّ القتال، وتبوأ فيلوكتيتس مقعدًا للرماية لا يبصره فيه أحد، في حين يبصر هو منه كل ما في الميدان!

وراش سهامه، وتطايرت المنايا عن قوسه المِرنان! وسعت إلى الطرواديين مصارعهم تهدهدها سهام هرقل، وتمهِّد لها يمين فيلوكتيتس!

ومرق سهم منها إلى باريس!

وكان يشرف على المعركة من أسوار إليوم! فوقع يتشحّط في دمه، ويغص بريقه، ويصرخ من الألم الذي يسري في عروقه مع الدم!

واجتمع حول باريس أبوه وذووه وعشيرته.. وهيلين!

وطفق الجميع يبكون باريس أخوته، والذكريات السود التي أقبلت من كل صوب ترف فوقه وترنق على جبينه.

وأخذ الألم من باريس مأخذه.. وراح المسكين يصرخ ويتلوّى.. غير آبه لما تغرقه به هيلين من قبلات دنسة، ودموع مسمومة، كانت

(1) هذه رواية سوفوكليس ويقول هوميروس إن هرقل زار فيلوكتيتس في المنام وألقى إليه هذا الأمر.

الويل كل الويل على طروادة والطرواديين.

وذكر، وهو يتجرَّع غصص العذاب، أن حبيبته الأولى وزهرة صباه، ووردة حبه القديم، أيونونيه، كانت قد ذكرت له أنها تعرف من خواص الأعشاب المختلفة ما يشفي أقلُّه أشد أوجاع الجروح وأنكاها، فأشار إلى بعض أهله، وطلب إليه أن يذهب إلى سيف البحر، علَّه يجد أيونونيه، فإذا لقيها فليخبرها بما انتهى إليه «حبيبها!» پاريس، والآلام التي تعذِّبه وتشقيه، من جرَّاء جرح هذا السهم المسموم.. بيد أن أيونونيه التعسة.. أيونونيه المعذبة.. أيونونيه التي أخلصت لپاريس الحب حتى عبدته.. ذكرت ما كان من هجر هذا الحبيب وقلاه[1]، وذكرت دموعها التي ذرفتها مرة تحت قدميه ضارعة متوسلة.. وتلك القسوة التي كافأها بها بعد أن خدعته ڤينوس.. وأوقعته في أحبولة هيلين.. فرفضت في إباءٍ وشمم أن تذهب إليه.. والآلهة وحدها تعلم مقدار ما كانت تكنه له برغم هذا الرفض من الحب النقي.. والصبابة الحزينة.. والهوى المتأجِّج المشبوب!

وقضى پاريس نحبه!

وأعدَّت النيران الضخمة لتحريقه، فما أن أُشعلت من حوله حتى شوهدت أيونونيه المبتولة تخرج من لجة الهلسبنت وتعدو، كأن قد أصابها مس، حتى تكون تلقاء النار.. فتقف باهتة.. وتتنهد طويلًا.. وتقذف بجسمها الجميل المرمري الممشوق في اللهب.. وتصرخ صرخة مشجية.. و.. وتنتهي قصة حبها الباكي الحزين..

وهكذا تخطُّ بيدها آخر سطر في كتاب پاريس..

---

(1) القِلَى: البغض.

فتح طروادة[1]

لم يبرح فيلوكتيتس يرسل سهامه على الطرواديين، ولم تبرح المنايا تتخطفهم.. ولكن المدينة ذات الكبرياء ما برحت أمنع من عقاب الجو على الغزاة الجبارين.

وذهب كالخاس عراف الحملة، إلى آلهته يستوحيها، ثم هرع إلى سادته قادة الجيش فذكر لهم أنه ما دام تمثال مينرڤا المقدس.. البلاديوم المشهور، في طروادة فلن يفتحها على أهلها فاتح، ولو عاونته الأرباب جميعًا!

وانطلق أوليسيز، وانطلق معه ديوميديز، فتنكرا، واحتالا على حارس البوابة الاسكائية الكبرى ففتحها لهما، وذهبا قدمًا إلى هيكل مينرڤا.. وسرقا البالاديوم المقدَّس، وعادوا به، وكل همهما أن تبطل نبوءات العم كالخاس، التي أخذت تترى، ويأخذ بعضها برقاب بعض.. وكرَّت الأيام.. ومع ذلك لم تفتح طروادة؟! ثم بدا لأوليسيز أن يصطنع الحيلة.

(1) اعتمدنا في تلخيص هذا الفصل على ملحمة فرجيل الخالدة The Aeniad ترجمة فيرفاكس تالمر «طبعت دانت» ورجعنا كذلك إلى درامة يوربيبذ الممتعة The Trojan Women ترجمة جلبرت موري النثرية وترجمة ر. بوتر الشعرية مع مابين الملحمة والدرامة من فروق محتفظين بروح الأسطورة.

فعرض على زعماء الحملة أن يُدعى مهرة النجارين والمثالين فيصنعوا حصانًا هولة كبير الحجم.. خاوي الجسم، فيكون بداخله جمهرة من أقوى شجعان الهيلانيين وأبسلهم، ثم يوهم الأسطول أنه أبحر بجنود الحملة، فإذا مضى شطر من الليل، وأقبل الطرواديون على الحصان فأدخلوه مدينتهم تذكارًا لهذه الحرب الضروس التي أكلت أخضرهم، وأحرقت يابسهم، وذهبت بالزهرة اليانعة من شبابهم.. ثم إذا كان الهزيع الأخير من الليل.. خرج الأبطال المختبئون ففتحوا أبواب إليوم، وانقضّ الجيش المرابط، فاحتل المدينة العاتية التي رُغمت تحت أسوارها أنوف، وذُلّت جباه، وذابت أنفس، وذهبت أرواح، دون أن ينال منها أحد.

وطرب القادة لهذه الحيلة التي بدههم بها أوليسيز وانصرفوا عن القتال وهم له كارهون.. وانصرف الطرواديون فاعتصموا بأسوارهم، ورابطوا داخل صياصيهم، ومهرة النجارين وكبار المثالين دائبون على حصانهم الهولة حتى فرغوا منه.

وأقلع الأسطول..

وانكشفت الساحة من هذا الجراد المنتشر الذي لبث ينوء فوقها عشر سنين.

واختبأ أوليسيز داخل الحصان ومعه نخبة من شياطين الميرميدون وعلى رأسهم بيروس النجيب، ابن أخيل الخالد، وعصبة قوية من فرسان الإغريق البواسل.

ودق الطرواديون البشائر..

وجاؤوا يهرعون إلى الساحة، ويتكبكبون حول الحصان الهولة، ويكلمون سينون الذي تركه الهيلانيون عند الحصان ليخدع الطرواديين

ولينصح لهم بنقله إلى المدينة ليكون آخر الدهر تذكارًا لهذه الحرب التي شنَّها قومه على طروادة ظلمًا، فباؤوا منها بالبوار.

«.. هؤلاء الهيلانيون اللؤماء، الذين انصبّت عليه أحقاد الآلهة، وثار عليهم كبير الأولمپ وسيده الأعظم، وسُلِّطت عليهم الزوابع والأنواء حتى كادت تفنيهم لولا أن أُمروا بتضحية قربان بشرى ينجيهم من غضب السماء.. ولكن؟ من منهم أصاخ إلى الأمر المقدس؟ ومن منهم سمع إلى هتاف الأولمپ؟ لقد جبنوا جميعًا! ولم يشأ واحد منهم أن يضحِّي بنفسه لينقذ الجميع، حتى أوليسيز نفسه، هذا الداهية المغفل! لقد جبن هو أيضًا! وفي الوقت نفسه حاول أن يرغمني أنا! أنا سينون المسكين، على أن أقبل التضحية، وأن أهِبَ دمي للآلهة لتهدأ ثورتها.

ولكني رفضتُ في شمم، وامتنعت في إباء.. لا خوفًا من الذبح ولكن ضنًا بدمي النقي الطاهر عن أن يهرق في سبيل هؤلاء الجبناء.. الذين تكأكأوا وفزعت نفوسهم من صيحة السماء!

وهربتُ يا مولاي، يا مولاي پريام العظيم.. ولُذتُ بظلال طروادة الخالدة، طروادة المنيفة القوية، وجعلت أصلي لأربابي حتى استجابت لي، وأرسلت إليهم من أنذرهم بسوء المنقلب إذا هم لم يقلعوا هذا المساء!.. قاتلهم سيد الأولمپ! وقاتلهم الآلهة جميعًا!

والآن! ها هم أولاء قد تركوا هذا التمثال الرائع الذي أعدوه ليوم نصرهم، فجعلته الآلهة آية فشلهم! انقلوه يا مولاي إلى المدينة، واجعلوه تذكارا لهذه النوبة الجنونية التي شنُّوها عليكم، فحاق بهم سوء ما كانوا يمكرون.. إلا فليكن قربى لمينرڤا!

لقد سمعت هاتفًا في صلاتي يقول «.. الويل لمن يصيب هذا التمثال بشر، تنقضّ عليه رجوم السماء، وتخسف من تحته الأرض،

وتميد من فوقه الجبال! وطوبى لمن احتفظ إلى الأبد به! إذن يحميه شر حدثان الزمان وعوادي الأيام».

وكان سينون الداهية يمزج كلماته بدموع الصلاة والورع. ويشعل فيها جمرات الأخلاص والصدق.. وكان يرسل آهاته من الأعماق.. حتى استطاع أن ينفذ إلى سويداء الملك، ويستولي على مشاعر الطرواديين، وحتى ثار الطرواديون أنفسهم على قديسهم الوقور لاوكون، راهب نپتون الأكبر حين نصح ألا تجوز عليهم هذه الكلمات المعسولة، والنفثات السحرية التي يتلجلج بها لسان سينون، وأن يدعوا الحصان مكانه «فإنه إن يدخل طروادة جلب عليها الشر وكان فأل السوء للضحايا والشهداء.. ولا تصدِّقوا أن الهيلانيين قد تركوا هذا الحصان تكرمة لنپتون كما يهذي هذا الأفَّاق المأفون، بل هم قد صنعوه حيلة منهم لغرض سيئ.. وها هي ذي ابنتك أيها الملك.. كاسندرا العزيزة فاسألها.. فإن لديها سر السماء».

وسأل الملك كاسندرا فأفتت بما أفتى به لاوكون.

ولكن.. من يصدق كاسندرا ولا تزال نقمة أپوللو تنصبّ فوق رأسها.. وقد جعلها إله الشمس عرضة لكل مستهزئ، وضحكة كل ساخر لعَّاب.

وزاد الناس استهزاء بالقديس لاوكون، حين رأوه تفترسه حَيّتان عظيمتان على سيف الهلسبنت إذ هو يقدِّم قربانه لربه نپتون فتقتلانه وولديه، عقب تحذيره الطرواديين ألا يقربوا الحصان المشؤوم وألا يدخلوه مدينتهم!

وتعاون الطرواديون جميعًا فجرَّوا الحصان الهولة، وهدموا بأيديهم

جزءًا كبيرًا من سور إليوم المنيع لتتسع البوابة للتمثال الهائل، فكانوا كالتي نقضت غزلها أنكاثا..



حصان طروادة. جيوفاني دومينيكو تيبولي (1727-1824)
Giovanni Domenico Tiepolo

وكان الأسطول قد اختبأ في ظلال الأيك النامي فوق جزيرة تندوس، فلما كان النصف الثاني من تلك الليلة الخرافية الحالكة، وكانت طروادة كلها قد استسلمت للنوم العميق الذي يسبق القضاء الصارم عادة في مثل هذه الأحوال، هبَّ سينون الخبيث ففتح الباب السرّي الذي لا يعرف إلا هو مكانه من الحصان، وخرج الأبطال فقتلوا الحرَّاس النائمين لدى الأبواب، وأشعلوا النيران، فرآها الجنود الذين عاد بهم الأسطول في دُجى الليل، فانطلقوا سراعًا إلى «إليوم» الخالدة.. المستسلمة..

فدخلوها.. وأعملوا السيف، وشرعوا الرماح، واستباحوا المدينة، وهتكوا الأعراض النقية، وأحلوا حرمة الهياكل، وأضرموا النيران في القصور، وأتلفوا الحدائق الفينانة، وهشَّموا تماثيل الآلهة في الميادين العامة، وقتلوا الصبية والأطفال، وجعلوا المدينة أطلالًا!

وهكذا، وفي سكرة الليل، وهدأة الظلام، تمَّ للهيلانيين الاستيلاء على تلك المدينة العتيدة، وهبَّت من تحت الثرى عشرة أعوام طوال مضرَّجة بالدم، ملطخة بالإثم، حافلة بالذكريات، غارقة في الدموع. تشهد الفتح المجرم، وترى المأساة الظالمة في آخر فصولها!

وكان إينياس اليافع، ابن ڤينوس الهلوك من انخيسيز، فتى طروادة وأميرها الجميل ذو القسمات، يغطّ في نومه العميق، ملء سريره الذهبي الوثير.. مطمئنًا آمنا.. لا يدور بخلده أن تحل الكارثة بإليوم في هذه الغفوة من الفجر.

وكان إينياس محبّبًا إلى الآلهة.. ولم يكن قد جاء أجله بعد.. فأرسلت إليه ربّات الأقدار طيف هكتور يزوره في نومه، ويريه حلمًا مفزعًا.. وينذره. أن اهْبُب يا إينياس فقد سقطت طروادة، وانج بنفسك وبأهلك فالأسطول ينتظرك، واستنقذ التحف المقدسة والآثار العلوية.. فقد دنَّسها الفاتحون!».

وذُعر إينياس، وهبَّ من نومه لهفان صَعِقًا.. وفزع إلى سلاحه ثم أشرف على المدينة المروَّعة فشهد المأساة تَحلّ بها..

وهاله أن يرى الوحوش الضواري من بغاة الميرميدون، وغزاة الهيلانيين يسوقون أتراب طروادة وبيض خدورها المكنون. عاريات أو نصف عاريات.. إلى الأسطول.. ليكنّ إماء في بيوت هيلاس.. ورقيقا في أسواقها؟!».

وكاسندرا؟ كاسندرا نفسها! ابنة پريام الملك.. حبيبة السماء وصفية الآلهة! التي حذّرت أباها يوما من قبول پاريس.. أن يحل البلاء بالمملكة وينزل الشؤم بالناس! ها هي ذي مسوقة في قبضة أجاممنون نفسه.. أجاممنون سيد القوم وقائدهم العام، يحملها إلى.. سفينته!

وفكّر إينياس، فلم يجد لانقاذ المدينة وأهلها من سبيل.. فأشار إلى بعض رجال قصره فقتلوا نفرًا من جند الإغريق المتخلفين عن الجيش الغازي، كانوا مشغولين بالسلب والنهب في متجر قريب، ثم نزعوا عنهم ثيابهم فلبسها إينياس وصحبه ليتخفّوا بها عن أعين المغيرين، وانطلقوا إلى القصر الملكي، وبودهم لو استطاعوا أن يحموا الملك في هذا الروع الأكبر.. ولكن وا أسفاه! لقد كان بيروس بن أخيل قد سبقهم إليه في عسكرٍ مَجْرٍ[1] من أبالسة الميرميدون، وكان بوليتيس بن پريام، وآخر فرع من دوحته الباسقة آبقًا أمامه، مكروبًا مفزعًا، فارًا إلى ذراعي أبيه الضعيف الشيخ، يلتمس الحماية في أوهى حِمى.. فلم يزل بيروس ينهب الأرض في أثره.. حتى قتله بين يدي أبيه، وانقضّ على الملك التعس فوضع حدًا لهذه الحياة الطويلة المملولة الشقية التي لطّخها الدم البريء وصهرها جحيم الشدة.. ولم يغنِ عن پريام المسكين توسّلات هذه الزوجة المعذّبة التي وقفت بينه وبين بيروس.. هكيوبا! الملكة المرزأة! التي بقيت وحدها لتجرع الثمالة الباقية في كأس الحياة.. مرًا وعلقمًا..

وهكذا صعدت روح الملك إلى سماء طروادة.
تتلفّت حولها! ترى المدينة الخالدة تضطرم.
النيران في جنباتها.. وتندكّ صروحها العزيزة.

---

(1) عسكرٌ مجرٌ: كثيرٌ جدًا.

في الرغام.. وتتهاوى أبراجها المنيفة التي
سجدت تحتها آسيا الجبارة.. والآن!
ها هو ذا على ثرى إليوم لُقًى لا نَفَس فيه!
وجثّة هامدة لا تحمل اسمها بعد..
ورأسًا معفرًا.. من غير جسد![1]

وزاغ بصر إينياس حين شهد هذا المنظر الرهيب، ووَقَرَ في نفسه أن مثل هذه النهاية المحزنة قد تحل بأبيه الشيخ، أنخيسيز، وبزوجته الهيفاء كروزا، وبطفله المعبود أيولوس.. فلم يبالِ أن يقتحم صفوف الأعداء إلى قصره الذي خلا غابه اليوم من أسده، وبدل الشوك من ورده، وعاث فيه جنود الهيلانيين فأصبح قاعًا صفصفًا.. كأن لم يشدُ في دوحه بلبلٌ.. ولم يحنّ فيه فؤاد إلى فؤاد!

وهناك.. في إحدى الردهات المنعزلة.. وجد هيلين! نعم، هيلين! سبب هذه الكوارث المتلاحقة التي حلّت بطروادة والطرواديين.. هيلين التي لم تبالِ أن تتزوج ديفوبوس - شقيق پاريس - عقب مقتل حبيبها بأيام معدودة!

وجدها هناك.. تنقدح المصائب شررًا من عينيها، وتتدجّى عواشي الكروب فوق هامتها، وتنعقد ظلمات الكوارث على جبينها.. ثم كُشف له حجاب الغيب المحرَّم على أعين البشر، فرأى أن الآلهة أنفسهم يعملون بأيديهم في تخريب طروادة، وتدمير الطرواديين وعلى رأسهم شيخ الأولمپ وسيده زيوس.. كبير الأرباب.

«فانجُ بنفسك يا بني.. ولُذ بالبحر.. ولتنزح عن هذه الديار».

وانطلق إلى أبيه فنصح له أن يهرب معه.. ولكن أباه استكبر وأبى..

(1) عن فرجيل.

بحجَّة أنه ينتظر نبوءة من السماء توحي إليه بما توحي.. فغيظ إينياس وأغلظ لوالده القول، ثم أمره أن يهبّ من فوره غير مستأن فيعتلي كاهلي ابنه وإلا قُتلوا في الحال!

ولم يسع انخيسيز إلا أن يطيع.. فسار ابنه يحمله، وسار ولده الصغير ايولوس بجانبه، وتبعتهم زوجه الجميلة كروزا..

كان قد اتفق مع أتباعه، قبل أن يقصد إلى قصر الملك، أن ينتظروه في هيكل خرب قريب من مياه الهلسبنت.. فلمَّا أقبل نحوهم يحمل أباه اتفقوا على أن يبحروا في الحال.. ولكنه.. وا أسفاه! افتقد زوجه فلم يجدها.. زوجه كروزا التي كانت الساعة فقط تتبعه! لقد قتلها كلب من شياطين الميرميدون!.. ولما رجع إينياس ليبحث عنها لقيه طيفها الجميل.. عند تمثال مينرڤا.. فخاطبه قائلا: «هلم يا إينياس! غادر هذه الديار في الحال.. واذهب إلى شطآن التيبر، فإن الآلهة قضت أن تبني بيديك.. رومة.. أم القرى!» وأبحر وأبحرت فلول الطرواديين معه وعينه تفيض من الدمع على كروزا!

وفي غبشة الصبح المضطرب، كان صوت الطبل الكبير يقصف كالرعد في خرائب طروادة. وكانت الجموع الحاشدة تهرول نحو الأسطول وكان السبي الكثير من عذارى طروادة وسائر نسائها يهرولن هن الأخريات نحو البحر.. فكنت ترى هكيوبا الملكة.. وأندروماك الحزينة التي اغتصبها بيروس لنفسه.. وكاسندرا.. تلك التي أحبتها السماء فأصبحت في جملة السبي من سريات أجاممنون وغانياته.. وكنت ترى غيرهن يهرولن في الصباح الباكر إلى شاطئ الهلسبنت، ليركبن البحر فيغبن عن أرض الوطن إلى الأبد..

وكانت كاسندرا تنظر إلى المأساة وتبتسم.

وكانت أمها ترمقها بعينين دامعتين.. وتسألها عن سبب ابتسامتها.. فتفتر كاسندرا وتقول.. «أماه ليس حظ هؤلاء الغزاة المنتصرين بخير من حظ أبطالنا.. هأنذا أقرأ ألواح القضاء.. انظري.. ها هو ذا مصرع أجاممنون بيد زوجته كليتمنسترا العاشقة.. أنها تفضِّل اليوم ذراعي إيجستوس الآثم على جنة يكون فيها زوجها! إنها ستقتله، ستذبحه بيديها.. حينما تطأ قدماه أرض الوطن!

وانظري يا أماه.. ها هوا ذا أوليسيز تعصف به الريح. ويلعب به الموج.. ويؤرجحه البحر اللّجي.. والعشاق يتقاتلون من حول زوجه.. وتليماك المسكين يضطرم غيرة ولا يستطيع أن يفعل شيئًا.

وانظري يا أماه.. ها هو ذا منلوس.. بائس.. كم أنت بائس يا منلوسٍ.. لقد ظن المسكين أن هيلين نقية كما هي! لقد نسي الشقي أنها تقلّبت في أحضان أزواج غيره! انظري إليه يقذفه البحر إلى شطآن مصر.. وانظري إليه ذليلًا بين يدي هيلين يتوسَّل إليها وكان أحرى لو أنه قتلها.

**

ونسي الهيلانيون في نشوة النصر أن يقرِّبوا القرابين للآلهة التي نصرتهم وأيَّدتهم وأظفرتهم بأعدائهم، قبل أن يبحروا.. فأثاروا غضب الأولمپ.. واستنزلوا لعنة السماء، واستحقّوا حنق حيرا ونپتون ومينرڤا.. ونقمة زيوس!

لقد ثارت ثائرة مينرڤا.. فانطلقت إلى أبيها وشكت إليه ما فرّط هؤلاء الجاحدون في جنبها وجنب الآلهة. واتفق الجميع على أن يسخِّر نپتون الجبار.. إله البحر.. رياحه العاتية على أساطيلهم فتمزّقها.. وتضللها تضليلًا..

فما كادت الأساطيل تمخر عباب الماء.. وما كادت تبتعد عن شواطئ إليوم.. حتى بدأت العاصفة تدوِّم.. وحتى أخذت الأمواج ترسل أعرافها حول السفائن، وحتى نثر الثبج حبابه فوقها.. وحتى ارتعدت فرائص القوم.. ونظر بعضهم إلى بعض.. كأنهم في يوم حشر.. فهم لا ينبسون.

ولقد صدقت كاسندرا!

فها هي ذي الأساطيل الكثيفة تتمزَّق فوق سطح البحر.. وها هي ذي جواري منلوس المنشئات تدفعها العاصفة في طريقها إلى مصر، وها هي ذي مراكب أجاممنون تتكسّر على الصخور الناتئة في عرض اليم.. وما يكاد يصل هو إلى مملكته أرجوس حتى تقتله زوجته العاشقة مؤثرة عليه عاشقها الأثيم إيجستوس.. وها هي ذي سفينة أوليسيز تضل في البحر الشاسع، وتتكسَّر بما عليه من سلب.. ويظل البطل المغوارٍ في نقلة وترحال.. عشر سنوات. وتظل زوجته پنلوپ تنتظره.. وخطّابها يقتتلون حول قصرها.. وتليماك. ابنها البائس ينتظر أوبة أبيه. حتى يعود بعد شدة وبعد أهوال، فيدمِّر العشَّاق الآثمين.

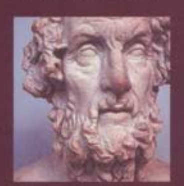
وهاك بيروس بن أخيل يعود ومعه أندروماك التي تُظهر له الحب، عاملة بنصيحة هكيوبا لها.. حتى تنشئ ابنها لينتقم لأبيه ووطنه من اليونان.. وكانت تعتزم مضايقة بيروس ومناوأته ليقتلها.. ولتستريح بالقتل من عذاب العيش بعد هكتور[1].

(انتهت)

(1) يعتبر هذا الفصل الأخير من طروادة النبع العذب الذي استمد منه اسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيدز مآسيهم الخالدة التي أربت على المائتين، والتي لم يبق منها إلى اليوم أكثر من ست وعشرين نرجو أن نقدمها للقارئ تباعا وفي زمن قريب.

الفهرس

HOMER



ولد هوميروس حوالي 725 قبل الميلاد على ساحل آسيا الصغرى، الذي أصبح اليوم تركيا، وكان وقتها جزء من بلاد الإغريق. وهو واحد من سلسلة طويلة من الشعراء الذين كانوا يقرأون أو يغنّون القصائد الملحمية الطويلة، فكلٌ من الالياذة والأوديسة تضم في أصلها آلاف السطور. لا بد أن هوميروس كان يمتلك ذاكرة عظيمة.

THE ILIAD

في هياج العواطف المحمومة تتصارع الآلهة مع البشر، ويتقاتل الرجال حتى الموت في حرب طروادة. إلى يومنا هذا لا نستطيع أن نجد مثيلاً للبطولة والمغامرة التي تقدمها لنا الإلياذة -هذه الملحمة الرائعة. ومنذ أن تم توثيق وكتابة هذه القصائد (حوالى القرن الثامن قبل الميلاد) فإن الناس لا تزال تقرأها إلى يومنا هذا.

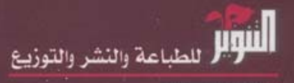
عميقٌ جدًا تأثيرالأدب الإغريقي القديم في الحضارة، فحتى الذي لم يقرأ إلياذة هوميروس يعرف "حصان طروادة"..

الألياذة، أشهر ملاحم الشعوب القديمة قاطبة. تُرجمت الإلياذة إلى كل لغات العالم تقريباً، وتُرجمت إلى الأنكليزية أكثر من خمس عشرة ترجمة. وقد استند دريني خشبة في "صياغته" العربية على أربع من هذه الترجمات.

إن هذه الصياغة العربية للإلياذة، جعلت الملحمة الأغريقية جزءاً من تراث الأدب العربي الحديث، بفضل حرص دريني خشبة على بلاغة التعبير وروعة أسلوبه ورصانته. وقد اختار صياغتها نثراً، فجاء نثره بليغاً موسيقياً غنياً بالتعبيرات الفنيّة والصور. وقد استخدم لذلك عبارات مشتقة من القرآن الكريم، واستفاد من تراث الشعر العربي، كما من السيَر الشعبية العربية... وبذلك أقام دريني خشبة علاقة وثيقة بين الملحمة اليونانية في صياغتها العربية وبين الأدب العربي نفسه. وهو ما جعل هذه الصياغة إحدى الروائع التي يقرأها أجيال القرّاء العرب باستمتاع، ويستفيد منها دارسو الأدب الكلاسيكي.

سامي خشبة


ISBN 978-977-85115-4-3
9 789778 511543


التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت . القاهرة . تونس
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com